اَلْيَاسُ أَبُو شَبَكَة

المجموعة الكاملة

في الشعر

المجلد الأول

جمعه وقدّم له
وليد نديم عبّود

الطبعة الأولى

١٩٨٥

الياس أبو شبكة

المجموعة الكاملة

في الشعر



مقدمة

إختصار رجُل في صفحات أمرٌ صعب؛ فكيف بشاعر رأى في انعكاس صورته أمام المرآة روح إله؟

ومع أن الشّعراء في كلّ وادٍ يهيمون، ليتّخذوا من الهوامش اليوميّة عناوين كبيرة تعلّلهم باكتناه سرّ الحياة، فإنّهم لا يقعون، في الحقيقة، إلّا على زَبدالبحر الكبير، على رغوة تتبدّل، تظهر وتختفي دون أن تشكّل جوهر الماء. وهذا الوهم ليس حكراً على الشعراء فحسب، إنّما يشمل المجتمع الأكبر لأنّ كلّاً منّا له وهمه وخلاصه. أوَليست الحياة كابوساً لا ينتهي إلّا بالموت؟

* *

وُلد الياس أبو شبكة في العام ١٩٠٣، وتوفي بعد أربعة وأربعين عاماً من هذا التاريخ. ومع أن للولادة تاريخاً، وللموت موعداً، فإن أبا شبكة لم يُخلق ليموت كسواه، بل ليقول شيئاً. ألم يقل جبران من قبل وهو الذي كتب مجلّدات مجلّدات: «لم أقل كلمتي بعد»؟ وهل يمكن ترجمة الحياة بكلمة؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا هذا المجلّد الذي يضمّ شعر أبي شبكة؟ ولماذا نتعب ومآل البحث كلمة مفقودة وسرّ مفقود؟ وهل تستحقّ الكلمة — السرّ هذا المجهود الكبير، هذا التعب والشقاء، وهي بالنتيجة سرابٌ يومئ إليك ولا يرويك؟

* *

تاريخ الياس أبي شبكة يبدأ من الحزن والألم. صفعة الحياة الأولى له، كانت موت والده. وقد أثار فقدُه في نفسه الطريّة السؤال التالي: ما الحياة؟ ما الموت، وما بعده؟ وهذا السؤال طرحته البشريّة منذ بدء وعيها، ولم تُجب عنه حتّى الآن. فكأنّ أبا شبكة في حياته، يختصر معاناة البشريّة ومحاولتها تخطّي السؤال إلى جواب يكشف سرّ الخلق.

هذا السؤال الوجوديّ ألغى طفولةَ أبي شبكة، أو أخلّ بنموّها الطبيعيّ. فتفتّحت عينا الشاعر على الوجود من نهايته، أي من الموت. فبدأت نزعته الرومنطيقيّة، وعاشها قبل أن يقرأها في كتب الغرب وآثار شعرائه.

أوليسَ الفقراء، كلّ الفقراء، واليتامى والمحرومون، رومنطيقيّي النزعة؟ أوليست الرومنطيقيّة مدرسة حاولت أن تهرب من السؤال الوجوديّ؟

وإذا كان هيدغر يعتبر الإنسان كائناً مخلوقاً للموت، فالنفس الرومنطيقيّة المرهفة الأحاسيس والشّعور ترى في الموت الحزنَ الذي يُفرح أحياناً، انطلاقاً من شكواها الدائمة، ومن خيباتها المستمرّة، ومن سعيها المحموم لتحقيق المثال الذي تحلم به. فالرومنطيقيون يستمتعون بالألم. والموت هو الألم الأكبر لأنّه الإنسلاخ الكلّي عن الوعي والحياة. لذلك، نجد أبا شبكة الشاب يتمنّى الموت لنفسه، ويؤكّد وهو في ربيع العمر أنّ البداية كالنهاية دائرة مغلقة تبدأ بالحزن وتنتهي به. لذا يعاتب الوالد الذي مات لأنه أفسح له في المجال ليعيش حياةً لا يؤمن بها أصلاً، فهي من التراب وإلى التراب:

لو كنتَ تعلم يا أبي وأنا طفلٌ مصيري العادمَ السّعدِ
لبكيتَ عند ولادتي ندماً وخنقتني وأنا على مَهدي

مشكلة أبي شبكة تبدأ إذن مع الموت. وقد رأى أن لا معنى للحياة بدونه. فالموت حتميّ كالولادة، والموت يحرّر من زمن معيّن هو زمن الحياة. وبدونه تكون الحياة أبديّة، أي يكون الألم أبدياً. فالحياة عنده تتزامن والألم، إن لم نقل تتوحّد معه. والإنسان يبقى عبداً للمحيط، للمجتمع، للسلطة الإلهيّة والأرضيّة، للذّة، للشهوة، للقلق، طالما أنه على قيد الحياة.

هذا الوعي الكامل للموت عند أبي شبكة لا يعني أنه استأثر بتفكيره أو حجّر أحاسيسه إذ عاد ورأى في الطبيعة، في المرأة، في الله هذه الحلولية المستمرّة والمتشابكة، هذا التبدّل الذي يقضي على مظهر جماليّ معيّن ليولّد مظهراً آخر.

إن تتابع الفصول عند الشاعر هو موت مستمرّ لفصل يروح، فيحلّ محلّه فصل آخر يلتقي مع الأول في المظهر الخارجي، إلّا أن الذي حدث قد حدث. والشجرة التي أسقطت أوراقها الخضر ثم عادت بفعل فاعل لترتدي ثوب الحياة من جديد، تؤكّد أن عودة الحياة إليها كانت على حساب ما مضى، ما اختفى، ومات...

وهكذا اللذّة، فلحظتها الحميمة تموت في حينها. تبقى، وتبقى في الذاكرة وهماً مضى، يتأجّج إلى أن تُطوى الصفحة الأخيرة من حياة الفرد.

إنّ رؤية أبي شبكة لمحيطه في الذوق، للوز الذي يشهد فصولاً أربعة هي: العري، تفتّق البراعم، الإخضرار والثمرة زادت من اهتمامه بمسألة الموت. فهو وإن احتمى بالطبيعة لينسى عقدته المزمنة، فإنه عاد والتقاها في الطبيعة. ومع أنّ بلدته، مسرح طفولته، يكتنفها الصنوبر الدائم الاخضرار، فإنّه لم يرَ من هذا المحيط إلّا التبدّلات الأربعة، كما لم يرَ في الطبيعة إلّا ما يمرّ ولا يعود:

والريح لصٌّ مرق على رؤوس الحبق
كأنّه ما سرق
كأنّه ما جنى

إنّ أبا شبكة لم يستطع كالإنسان البدائي أن يفسّر الحياة بدورة القمر، أو يقارن بين عودته والتجدّد الدائم للحياة. فالرجل أدرك أن الحياة حتّى في تجدّدها لا تعيد نفسها بنفسها، بل تعود بعناصر أخرى.

إنّ الموت يعيدنا إلى الحياة، إلّا أن الحياة الجديدة هي قيامة للآخر ولو كان جزءاً منا، وليست للأنا بالذات. والعقلية الشرقيّة التي ترى في الولد استمرار العائلة تؤكّد نظريّة الحياة هذه. وهذا ما كان يزيد من ألم أبي شبكة، ويؤجّج أسباب معاناته، وهو الولد الذي فقد أباه، والأب الذي فقد ابنه وهو جنين، فازداد شعوره

بالموت، وترسّخت عقدته الشرقيّة، وازدادت بالتالي غربته في العالم لأنه وحيد ومضطهد ومظلوم، وهو لن يبقى أو يستمرّ:

هذا الوجود جنينةٌ وعقوبةٌ قد غرَّ فيها آدمَ التفّاحُ
هذا الوجود مشانقٌ نُصبت لنا والظّلم في ساحاتها السفّاحُ

لقد عاش أبو شبكة القلق بكلّ أبعاده. فعصبيّته المتوتّرة، وقلمه المتشنّج، وبحثه الدائم عن الخلاص، وارتطامه بصعوبات الحياة اليوميّة وبالفقر الذي دقّ باب الحارة القرميد بعد جاه وعزّ، كلّ ذلك دفعه إلى أن يرفض العيش بذلّ وانكسار وعبوديّة. ففي ذهنيّة الرجل أمجاد الماضي والبيت العريق، وفي ذهنيته أيضاً مرارة الواقع، وسواد المستقبل. ونتيجة هذا الصراع بين الماضي والحاضر، بين الممكن والمرتجى، كان يعضّ على الجرح بقسوة تقرب الساديّة، وهو على أمل دائم أنّ الجرح سيلتئم، وأنّ الخلاص آتٍ.

من حياته المتألّمة، ومن حوادثها المفزعة، دخل أبو شبكة باب السؤال ليكتشف منافذ الخلاص. ورأى أن لا بدّ من الإنطلاق والتحرّر من الحياة.

وهكذا شعر شعوراً عميقاً بحاجته إلى الحريّة المطلقة، الحريّة المتطرّفة، المجنونة، العبثيّة، الفوضويّة، المهدّمة. إذاً، لقد أراد أن يعيش الحريّة بمفهومها الواسع، أي من خلال القيام بكلّ ما يرغب فيه، إرضاءً لنزوات كامنة في أعماقه. فكأنه أبى، من هذا القبيل، أن يأخذ بنظريّة سبينوزا القائلة بأنّه لا يمكن للإنسان أن يحقّق حريته إلّا برضوخه لقوانين المجتمع والكون. وهو في رفضه هذا أعاد إلى أناه الإنسانيّة قيمتها الحقيقيّة، فتولّدت عنده قدرة هائلة على عدم الإنسجام مع أيّ شيء، على الإتّهام والصراع والعصيان والرفض. ومع أنّ الحريّة قادته في البدء إلى الألم والفوضى والدّمار، وأفقدته إنسانيّته، وهدمت كيانه، فإنّها في الوقت عينه ظلّت البعد النهائيّ له؛ فهي بقدر ما حطّت به إلى الجحيم، شالت به إلى السماء.

لقد شكّلت الحرية عند أبي شبكة مشروع تجاوز دائم. فتجربته المنطلقة من الذات محاولة لتخطّي الواقع، لتخطّي اللحظة الحاضرة بمشروع مستقبلي فيه من الحلم ما يؤمّن له الحريّة المطلقة. فهذه الحريّة هي في نهاية الأمر الحلم بالمطلق. من هنا

كان يحاول معانقة الحريّة المطلقة، حتّى في حياته اليوميّة. ولأنّ الحريّة لا تُترجم إلّا عبر فعل ماديّ محسوس، لذا نراه كلّ صباح يتصب أمام المرآة، يلقي قصيدة بصوتٍ عالٍ ليوهم نفسه والناس أنّه فوق كلّ الأعراف والتقاليد، وفوق مصاف البشر... إنّها المحاولة الواهمة للسيطرة على قَدَر يقرّر، وإنسان ينفّذ.

لكنّ هذه المظاهر الخارجيّة لم تقنع أبا شبكة أنّه أدرك الحريّة. فهو يعلم أنّه، وإنْ حمل عصاه وتبختر في شوارع الذوق وبيروت، أو مشى تحت المطر، فهو لا يستطيع أن يوقف، ولو للحظة واحدة، إنهياره.

إنّ محاولته الظاهرية تلك، زادته يقيناً أن الحرية التي ينشد وهمٌ. علماً أنّ الظروف التاريخية التي مرّت على البلاد آنذاك زادت شعوره بالعبوديّة، كما أنّ فقره وتقاليد المجتمع القروي القاسية فرضا عليه أن يبحث عن وسيلة أجدى لبلوغ الحريّة.

إنّ حياة أبي شبكة المليئة بالحرمان المادي والحرمان العاطفي دفعته للبحث عن منافذ خلاصيّة تعيد إليه حقّه في الحريّة. وقد التقى هذه المنافذ في بدائيّتها الأولى، في بكارتها وعذريّتها: التقى الطبيعة البريئة الحانية، الطبيعة المتبدّلة الدالّة على حركيّة الحياة، فحاورها وارتاح إليها. والتقى المرأة العاهرة فاقتنص الشهوة منها وكأنّه يغتصب اللحظة الزائلة ليجمّدها، وليؤكّد قدرته على ممارسة الحرية. لكن المرأة العاهرة لم توصله إلى مبتغاه. بالعكس، رفعت الجدار أمام رؤاه التحرّرية فعاد والتقى المرأة — الحبيبة وهام بها؛ قدّسها، توحّد معها روحاً وجسداً، فَعَلا بذاته إلى السماء، إلى الله.

* *

قلنا أنّ الموت كان هاجس أبي شبكة الأول، وقد لاحقه هذا الهاجس حتّى في أوقات لقاءاته مع الطبيعة. ذلك أنّ الشاعر عانى كثيراً من عقدة الموت. وبما أن مَن حوله لا يشعرون مثله بنهاية الحياة، فقد لجأ إلى الطبيعة تؤاسيه ويؤاسيها. أليست الطبيعة صورة مكبّرة عن حياة البشر؟ أوليس العصفور مهدّداً دائماً بالعاصفة والبرد والزمهرير، بالسجن وراء القضبان؟ أوليس مهدّداً بالقتل؟ أوليست شقائق

النعمان مهدّدة دائماً بالقطف، بالانتزاع، بالذبول، باليباس وبالموت؟ أوليس الغدير المنساب بين الحقول يعرف من أين يأتي، ولا يعرف أين سيصل في البحر الواسع؟

لقد التجأ الياس أبو شبكة إلى الطبيعة لا ليهرب من واقعه فقط، بل ليتعزّى ويوهم نفسه بأنّه ليس وحده إلى الزوال. فكلّ مظاهر الوجود وكل مظاهر الطبيعة، تسير إلى نهايتها المحتومة المقرّرة والمحددة. ولكي يرتاح من عبء مخزونه الداخلي عايش الطبيعة وحاورها، فكأنّ الحوار الذي أراده هو كحوار أفلاطون، مع أنه يدري أنّ الفلسفة تسأل ولا تجيب.

من هنا أراد أبو شبكة أن يستنطق الحجر، علّه يعطيه أمثولة أجدى من أمثولة البشر. أراد محاورة النهر ليبوح له بعذاباته وبما يعانيه، فالبوح يخلق راحة تعيد إلى الشاعر بعضاً من توازنه النفسي:

زرتُ نهر الصليب أمس لأسمعْ
كيف ينساب ماؤه الكوثريُّ
فرآني صفصافه فتقنّعْ
بضباب كأنّ وجهي نعيُّ
قلتُ للقلب: يا شقيُّ فرجّعْ
شاطئُ النهر هاتفاً: يا شقيُّ

لقد رأى أبو شبكة في الطبيعة الوجه الآخر الذي يبحث عنه؛ فبثّها شجونه واستمع إليها، بعد أن شعر بغربة قاسية في مجتمعه، غربة حدّت من فعل البوح لديه، ومن فعل اللقاء والنجوى.

ألم نقل أن لشقائق النعمان وللغدران همومها؟ لكن ما يميّز هموم الإنسان من هموم الطبيعة أنّ الأول يعي نهايته، يعي محدوديته، يعي عدم قدرته على ممارسة الحريّة، في حين أنّ الطبيعة جامدة الإحساس، راضية بقدرها لأنّها لا تعي. هنا ألم الإنسان، وهنا فرح الطبيعة.

على أنّ الشاعر الذي يرى الأشياء الخارجيّة عبر ذاته، ويتحاور مع الطبيعة من

خلال معاناته الشخصيّة، نسي أنّ الطبيعة بعيدة عن همّه الأساسي مع أنّ المصير واحد. ممّا جعله يتخطّى بالوهم وبالخيال هذا العائق، بعد أن تعب من حمله الثقيل وتساؤلاته المريرة.

وعدم تمكّن أبي شبكة من الإجابة عن الأسئلة التي تقلقه، دفعه دفعاً إلى معانقة الحلم. وهكذا اختلطت الحياة عنده بالأحلام التي خلقها لنفسه، والتي كان يحاول بلورتها وممارستها وهو متوحّد في الطبيعة، بعيداً عن قوانين المجتمع وأنظمته.

وانغمس أبو شبكة في حياته الثانية، في حياته الداخليّة، في حياة الحلم. فانفتحت أمامه آفاق التخطي والتجاوز، بعدما عرف أنّ الجسد محدود وفانٍ، وأنّ الروح واسعة حتّى أنّها تستطيع بالتكرار أن تغمر الطبيعة بأكملها فتعطيها الحماية والدفء، وتفتح أمام الحياة احتمالات غير مرتقبة وغير محدّدة سلفاً. إنّ الإنعتاق من المادة سبيل الى معاكسة أنظمة الكون. هكذا يرى أبو شبكة الحريّة فعل معاكسة ومشاكسة وشيطنة وإخلالاً بالقوانين المتعارف عليها بين الناس.

ولأنّ أبا شبكة لم يعش في الحلم فقط، بل كان الرغيف يجرّه إلى ترك عالمه المفضّل ليحتكّ مباشرة بالناس، فقد تأكّد له أن الحلم هو الصورة الملوّنة لسيناريو الحياة المعروض بالأبيض والأسود. فالحياة ارتزاق ولقمة صعبة، والبشر أهواء متعدّدة ومصالح متضاربة، الكبير منهم يأكل الصغير.

لقد خبر أبو شبكة البشر لأنّه احتاج، فالاكتفاء ابتعاد عن التجربة، وابتعاد عن الإحتكاك بالناس وقرع أبوابهم. وبرغم أن الآية تقول «أطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم»، فإن الحياة مع تطوّرها وتشابكها غيّرت الكثير من القيم السماويّة البعيدة عن واقع الحياة المعاصرة. لكلّ هذا، ارتدّ أبو شبكة إلى الأرض كالإبن الشاطر بعد طول اغتراب، فذبحت له عجل الوفاء. فالأرض بالمفهوم اللبناني كريمة، معطاء، أعطها تعطك. وبما أنّ الشاعر أعطاها خلجات قلبه، فقد بادلته جميلاً بجميل: أمّنت له واحة مستقرّة، وصفحة هادئة كصفحة مياه صافية، فرأى عبر الأرض صورة مثاله، صورة مبتغاه.

أليست أمنية الشاعر المرجوَّة أن يرتاح من قسوة القدر والحياة؟ وهكذا برزت الطبيعة عند أبي شبكة كتجربة خلاص، كواحة أمان، وبذلك استعادت مفهومها القديم: الأرض هي الأمان، وهي تضم رفات الأجداد، وتحمل في أحشائها ثمرة الحياة. وإذا كان بعض القبائل في الهند يرفض الزراعة لأنّ المحراث يشقّ الأرض ويجرحها، فإنّ الأرض عند أبي شبكة تتخطّى مفهوم الجماد أيضاً لتتأنسن. والشاعر يعبّر عن حركيّتها عبر أفعال تنتمي إلى الحقل المفهومي الإنساني:

عرائس الدّلب على الشاطىء
يذوِّب النوم بأحداقها
هادئة كالنهر الهادىء
تحلم في خضرة أوراقها.

* *

ودمعةُ الرابية الآمنةْ
صامتةٌ ماذا ترى تكتمُ
ساكنةٌ في الساعة الساكنةْ
كشيخةٍ في أمسها تحلمُ.

إنّ طبيعة أبي شبكة ليست كطبيعة أغلبية الرومنطيقيّين. فنحن نعرف أنّ بعض شعراء المدرسة الرومنطيقيّة كانوا يهجرون أوطانهم لارتياد بلاد جديدة تؤمّن لهم ما يبحثون عنه من حماية ودفء. بينما المعروف عن أبي شبكة أنّه لم يكن ينام خارج منزله، ويصرّ على أن يعود إلى بلدته ولو متأخّراً. فالبيت هو عالمه المفضّل ويرتبط في ذاكرته بالبحبوحة، بالحنان والأمان يوم كان الوالد على قيد الحياة. ومن البيت يستوحي شاعرنا مفهوم الطبيعة. فالطبيعة، بسقفها السماوي وأرضها المفروشة بالأزهار، هي البيت الذي يحمي ويؤمّن الاستقرار والثبات، ويبعد الإنسان عن هموم الترحال والتشرّد في المجهول.

وإذا كان أبو شبكة يرفض أن يبتعد عن بيته، فهو يرفض كذلك أن يختار طبيعة غير طبيعة بلاده! فالطبيعة عنده ليست فعل خلاص من مشكلته الفرديّة فحسب، بل من المشكلة الجماعيّة في لبنان التي بدأت مع التطوّر الصناعي. فأبو شبكة رفض أن يُدخل الكهرباء إلى بيته مفضّلاً الشمعة التي تذوب، والتي تذكّره بالموت. وقد أراد برفضه التركيبات الصناعيّة الحديثة أن يحافظ على براءة لبنان، وهو الذي هرب من المجتمع القاسي المعقّد، إلى الطبيعة — الحلم، إلى الأشياء في بدايات تكوّنها وفي هيوليتها والتي ما زالت تحافظ على نفحة الله فينا:

أرجع لنا ما كان يا دهرُ في لبنان
كانت لنا أحلامنا والمنى
وكان صفو الزمان

....

....

أرجع إلينا الصاج
والجرن والمهباج
وخصبنا في الربى
ونورنا في السراج
واسترجع الكهربا
وكاذباتِ الغنا
يا دهر أرجع لنا
ما كان في لبنان

إنَّ الطبيعة عند أبي شبكة هي الطبيعة اللبنانيّة المتميّزة بالصدق والخير والحماية والدفء والعطاء. وعطاء الأرض عندنا عطاء مزدوج: عطاء مادّي للرغيف،

وعطاء روحي لا يفنى. لذا تبرز الطبيعة عنده كأنّها رمز الإكتفاء والقناعة وعدم استجداء الغير:

خمورنا في الخابيةْ
جنى كروم الرابيةْ
وعندنا الكِبَرْ
والحبّ والخفر والعافيةْ
والقمح في أعدالنا
والزيت في قلالنا
والتّين في السّلالْ
وكلّها حلال، من
جبالنا

إنّ أبا شبكة اليتيم احتاج دوماً إلى أب، وبتعبير آخر إلى مرشد. والطبيعة بما تقدّم من فصول الحكمة كانت له هذا المرشد؛ كما كانت الملجأ الذي ينسحب إليه بعد خسارة أيّ معركة في الحياة، وفي الحب، وفي الحلم...

والطبيعة كانت كذلك الإطار لعلاقته مع المرأة، ولعلاقته مع الله؛ فمنها كان يستمدّ فرحه واندفاعه نحو المرأة:

يا فتاتي تحت زهر الياسمينْ قد تعاهدنا على حبّ أمينْ
لا يزال الدهر بسّاماً لنا شاهداً عدلاً على تلك اليمينْ

وفي أحضانها أيضاً كان يتقرّب إلى الله، والله هو الإستقرار، ويتجلّى في مظاهر الطبيعة كلّها. لذا دخلت الطبيعة عنده زمن القداسة، زمن التوبة، زمن الغفران، زمن العودة إلى الينبوع الأزلي:

للربى ظلٌّ على الأرض بهيّ
وعلى السّهل عطورٌ وضياءْ

ومن الجدول ترجيع شهيّ
ترفع الإنسان أو تدني السماءْ

ولكن... هل كانت الطبيعة خلاص أبي شبكة الأخير؟ الجواب لا. لأنّ أبا شبكة ظلّ كالطير الصغير، يرفرف ولا يحلّق، وماذا يستطيع أن يفعل طير صغير؟

صحيح أن الطبيعة كانت له مكان الانعتاق والتحرّر والهرب والأمان، إلّا أن الحلّ بقي مفقوداً، والتوتّر لم يتبدّل، وكان يشتدّ كلّما اقترب الشاعر من الهاوية. وبقيت حاجته إلى الطبيعة... لكن الطبيعة كتجربة خلاص لم تمنعه من محاولة حلّ مشكلته مع الحياة بطريقة مغايرة. فالتجأ إلى المرأة، فوجد فيها أقسى الخيبات وأجمل الآمال.

* *

لم تتّخذ المرأة في رؤيا أبي شبكة وجهاً واحداً. فهي تارةً الملاك الهابط من السّماء، وطوراً الأفعى المتأجّجة شهوةً وناراً. وأبو شبكة لم يبحث عن المرأة من أجل المرأة، بل من أجل الوصول من خلالها إلى ما يحلم به من اطمئنان وسعادة. وقد اتّخذت محاولته هذه أشكالاً عدّة، تنوّعت وفق المرأة التي التقاها في كل مرحلة من مراحل تجربته، ممّا يؤكّد أن الشاعر كان صادقاً في نقل علاقته بها. إنّه لم يعش المرأة خيالاً كمعظم الرومنطيقيّين، بل عرفها جسداً وروحاً.

ومع أنّ لقاء المرأة في عصره كان يتمّ بصعوبة نظراً للتقاليد الشرقيّة التي كانت تتحكّم بالمجتمع آنذاك، فإن أبا شبكة في اندفاعه المحموم للقاء الآخر، للقاء المرأة، تجاوز ما تفرضه عليه الأعراف والتقاليد، محطّماً الحواجز ليجد المرأة — الخلاص.

وبحثه عن المرأة بدأ باكراً. فها هو ابن الثامنة عشرة يهيم بغلواء. إلّا أنّ «القيثارة» التي زامنت حبّ غلواء، تشهد أنّه عرف أكثر من غلواء واحدة؛ وفي ذلك العهد بدأت تتكوّن نزعته الرومنطيقيّة في الحب، تلك النزعة التي تدغدغ إجمالاً مشاعر المراهقين فيرون في المرأة الحلم الجميل، والإنسانة التي لا تلدغ. إنّهم ينظرون إلى المرأة من بعيد، يتخيّلونها أكثر ممّا يلمسونها، تعيش في روحهم وفي قلبهم أكثر مما تعيش في تشهّيهم. فهم يحلمون بها ملاكاً، ولا يعرفون أنّ هذا الملاك يتحوّل في السرير إلى أفعى

تغتصب اللذّة. إنّهم يجهلون سرّها، سرّ سطوتها، سرّ حبّ تملكها الرجل إن تمكّنت، وسرّ مكرها... إنّ أبا شبكة كان كغيره من الشباب الحالمين ينظر إلى المرأة من خلال ستار شفّاف يضفي عليها هالة من القدسيّة، ويعطيها أبعاداً الهيّة. لذا كانت المرأة في المرحلة الأولى من شعره المرأة صديقة الروح، أكثر من المرأة — العشيقة. فبدا حبّه بالتالي حبّاً رومنطيقيًّا، غنائياً، يكتفي بلمح الحبيبة أكثر من توغّله في تفاصيل تجربته معها، لأنّ التجربة كانت سطحيّة تكتفي باللقاء، بالنظرة، بالإبتسامة، بلمسة السلام...

وهذه الشفافية في الحبّ تعود إلى طبيعة الشباب المراهقين. وأبو شبكة الذي لم يكن قد بلغ مرحلة النضج بعد، تاق بفعل تكوينه النفسي إلى فتاةٍ تشاطره بعض معاناته، بعض آلامه، وبعض آماله في حياة أخرى. فكأن تطوّر نظرته كأطوار الحياة ولادةً ومراهقةً وشباباً وشيخوخة. وقد مرّ بجميع هذه الأطوار.

أحبّ المرأة الملاك، وأحبّ المرأة الشيطان، وأحبّ المرأة — الحكمة، ممّا يعني أن الرجل لم يأت إلى المرأة إلّا من حيث كان من الطبيعي أن يأتي إليها. ففتيات «القيثارة» فتيات مراهقات لا يمكن لأبي شبكة أن يرى فيهنّ بحكم العمر وعدم الخبرة الا العفاف والعذريّة. إنه لم يلق منهنّ ما كان يحلم به من إصغاء ومشاركة وتقدير وحبّ. فطغى طابع التشاؤم والحزن على قصائده الغزليّة الأولى. فالفتيات اللواتي عرفهنّ لم يخرجنه من دائرة حزنه، ومن انكفائه إلى نفسه المريضة. إنّه لم يلق غير الصدود، وهذا الصدود المتواصل دفعه أحياناً إلى أن يكفر بالحبّ، فاعتبره «سليل الخراب» وهو بذلك يؤكّد فشله العاطفي، كما يؤكّد أنّه يبحث عن المرأة التي يمكنه أن يتماهى بها، وأن يجد في نفسها صدىً لنفسه.

وبدلاً من أن يلتقي المرأة التي تستجيب لحاجات روحه بكلّ أبعادها، والتي يتكامل معها عن طريق الجسد، فقد التقى المرأة — العاهرة، ممّا ولّد لديه اقتناعاً ثابتاً أن الحسن والجمال في المرأة هما المعادل الطبيعي للخطيئة:

مـلّـقـيـه بحسنك المأجورِ وادفعيه للإنتقام الكبيرِ
إن في الحسن يا دليلة أفعى كم سمعنا فحيحها في سريرِ

إنّ علاقة أبي شبكة بالمرأة تخضع لمبدأ المدّ والجزر. فهو يقترب من الجسد أو يبتعد عنه وفق حاجاته النفسيّة، وتبعاً لطبيعة المرأة العشيقة. فالتواصل عنده يخضع لناموس ذاتي. فحين يكون في حالة احتقان داخلي فإنّه يتفجّر شهوة تتطرّف حتّى الهوس، حتّى الشذوذ؛ وإن حلّت السكينة على نفسه عاد البياض إلى مآقيه، وعادت الروح لتحجب جسد المرأة عنه.

وعلاقة أبي شبكة بالمرأة لا يمكن أن تنفصل عن حياته. فالمرأة عنده ضرورة قصوى، لأنّها تشكّل علامة من علامات النصف الآخر. وقد عانى كثيراً حين اكتشف المرأة الأفعى: سقطت لديه المثاليّات، انزاح عن عينيه ستار الوهم، صارت المرأة من البشر بعدما كانت من جنس الملائكة.

وهذا الواقع ولّد عنده صراعاً مريراً بين جسده وروحه. فجسده المحموم المهتاج، وروحه التي تنشد الاستقرار كانا في احتكاك دائم. وحصيلة هذا الإحتكاك كانت التجربة الشعريّة الفذّة التي تحوّلت إلى صراع بين الحياة والموت. فمن خلال علاقته بالمرأة كان سؤاله المصيري يظهر جلياً: أيّهما يفنى الجسد أم الروح؟ ممّا دفعه إلى ممارسة الجنس بشبق لا ينتهي. وهو بذلك يحاول أن يؤكّد ذاته، أن يؤكّد بقاءه، أن يؤكّد استمراريّته. فالروح التي فشلت في إيصاله إلى الطمأنينة، دفعته إلى محاولة البحث عن بديل آخر فكان الجسد. ولا شكّ في أنّ أبا شبكة أثناء بحثه عن سرّ الروح أوّلاً، وعن سر الجسد ثانياً، عانى تناقض الإنسان وثنائيته، وهو ليس الوحيد الذي عانى مثل هذا الأمر. فالقدّيسون أنفسهم عانوا هذه الإزدواجيّة. ألم يقل بولس الرسول: «إنّني أشعر برَجُلين في ذاتي». كذلك فإن الجسد والروح في التفكير الأغوسطيني يبرزان دائماً كأنّهما ملكتان على طرفي نقيض، ممّا يجعل الإنسان ممزّقاً بين عاملين من عوامل التنازع.

لكنّ استغراق أبي شبكة في حمّى الجسد أثناء علاقته بالمرأة المتزوّجة، امرأة «أفاعي الفردوس»، لم ينتزع من قلبه ومن فكره حنينه الى الطهارة والعفّة وتوقه الى المرأة الحبيبة الطاهرة. وقد ساعدته هذه الحركة الثنائية المتأرجحة بين البعد المادّي والإنجذاب الروحي على تعميق معرفته بذاته. ذلك أنّ الصراع بين الجسد والروح هو سبيل إلى الكمال، كما يؤكّد نوفاليس إذ يقول أن المرء لا يتوصّل إلى معرفة حقيقة ذاته «إن لم يكن هو نفسه وإنساناً آخر في الوقت عينه».

وبالفعل فقد استعاد أبو شبكة، المشبع تفكيره بالمثاليّات، توازنه بعد بدئه علاقة جديدة مع مغنيّة سمراء أعطته من روحها ومن جسدها، فاكتشف أنّ المرأة إذا طغى جسدها على روحها أو العكس، فقدت سرّ الخلاص، وفقدت قدرتها على أن تُحِبّ وأن تُحَبّ، وتحوّلت إمّا إلى ملاك غير موجود حقيقةً، أو إلى شيطان تنفر منه لتأجّج شهواته وميوله الجسديّة.

إنّ تجارب أبي شبكة المتعدّدة مع المرأة، أوصلته أخيراً إلى مرحلة الحبّ المتوازن حيث لا طغيان للروح على الجسد، ولا تسلّط من الجسد على الروح. فالروح والجسد يكمّل أحدهما الآخر، والعلاقة الروحيّة ضرورة لأنّ الإنسان روح، ولأنّ الروح بحاجة ملحّة إلى إقامة حوار مع روح مثلها علّ هذا الحوار يؤدّي إلى إغنائهما معاً. والجنس ضرورة للحبّ ووسيلة إلى تحقيقه، وهو الأداة الوحيدة القادرة على استثارة الحبّ والمحافظة عليه في مجتمع يتألّف من أناس منغمسين في المادّة والجسديّات. من هنا يصحّ قول مدام لافاييت: «إن في الحبّ شيئاً من كلّ شيء. ففيه شيء من الروح، وفيه شيء من العقل، وفيه شيء من القلب، وفيه شيء من الجنس».

إذن بعد أن مرّت المرأة عند أبي شبكة بمرحلة المراهقة والشبق، أي بعد أن مرّت بتطرّف الروح والجسد، بدأت تأخذ ملامحها وهويّتها الأخيرة. فالتجربة أدّت إلى استنتاجات حسيّة. وكيف لا، وأبو شبكة لم يقرأ المرأة في كتاب، بل عاشرها وأحبّها ومارس الجنس معها! ففلسفته في المرأة فلسفة وجوديّة حياتيّة مستمدّة من الحياة بكلّ مضامينها، وهو لم يصل إليها إلّا بعد معاناة طويلة. هذه المعاناة التي لم يجد حلاً لها في الطبيعة، بل كاد يجد لها الحلّ عند المرأة. إلّا أنّ المرض كان أقوى.

إنّ الحبّ في بعده الأخير، جعل أبا شبكة يعتقد أنّه وحبيبته قادران على بناء دنيا جديدة:

أو لم نَبْنِ بالمحبّة والرأ — فة دنيا أعزَّ من دنيانا
تهدم العالم الذي يهدم الوجـ — ـدان فينا، وترفع الوجدانا

ومع أنّ حبّه قاده إلى الغبطة الكبرى، إلى التلاشي في الحبيبة تلاشياً تاماً، وإلى أن

يسمع صوتها وأن يرى وجهها في كل خلجة من خلجات الطبيعة والكون، فقد كان يشعر في قرارة نفسه أنّ حبّ الرجل للمرأة ليس غاية الإنسان الأخيرة. فالحبّ تجاوزٌ إلى حبّ أكبر وأعمّ. والحبّ البشري مهما بلغ وارتقى لا يمكنه أن يملك في ذاته مقوّمات الاستقرار والبقاء. فمن الضرورة والحالة هذه أن يكرّس هذا الحبّ نفسه، لبلوغ حبّ أسمى يتحقّق من خلال علاقة الرجل بالمرأة.

هنا يلتقي أبو شبكة في هذه الرؤية مع أفلاطون الذي لم ينظر إلى الحبّ كحبّ، بل إلى التغيّرات العميقة التي تحدثها العلاقة بين الرجل والمرأة في نفس الرجل، فتُغني فكر الرجل وروحه. فالحبّ عند أفلاطون وسيلة لبلوغ النشوة الكبرى، وواسطة لتأمين الإرتقاء نحو المطلق غير المدرك، أي نحو الله.

وإذا كانت العلاقة الجسديّة والروحيّة بين الرجل والمرأة تحمل في طيّاتها نوعاً من السرّ، فإن لهذا السرّ وجهين: فهو مرتبط أوّلاً بحتميّات الوجود الفعلي في كون زائل، وهو مرتبط ثانياً بالوجود الأبدي الذي يمكّن الحب، بمعزل عن الجنس، من إدراك الخلود. من هذا المنحى نفهم قول أبي شبكة:

لي إلى الله في حنانك مرقاةٌ وفي صوتك الشجيِّ سلالمْ

إنّ تجربة أبي شبكة في تصاعديّتها تلتقي مع النظرة الأفلاطونية إلى الحبّ، القائمة على أن الإنسان ينتقل من حبّ الأجساد الشهيّة، إلى حبّ الأنفس الطاهرة، فإلى حبّ الخير المطلق الذي لا شكل له. وأبو شبكة عرف الحبّ في وجهيه: الجسدي والروحي، واختار أخيراً المرأة التي تستطيع أن توصله إلى الحبّ المطلق، إلى الله. فالله هو السلام الحقيقي، وهو الرجاء الآتي، والإيمان وحده يريح لأنّه يجيب عن السؤال الأساسي أي الموت.

* *

كانت تجربة الياس أبي شبكة مع الله، النتيجة الحتميّة لعلاقته بالطبيعة وبالمرأة، ولبحثه الدائم عن الحرية. فهو بعد أن امتلك تجربة ذاتيّة متكاملة، تجربة متحرّكة تنبع

من معايشته اليوميّة للمحسوس ، أوصله بحثه عن الحرية لدى المرأة والطبيعة إلى الله. فكان طبيعياً والحالة هذه أن تعبّر تجربته في هذا السياق تعبيراً صادقاً عن معاناة نفسه التائقة إلى التحرّر النهائي ، أي إلى الخلاص.

لقد أراد أبو شبكة ، كما يعبّر في رسالة منه الى غلواء «أن يعيش في حريّة سامية وأن يموت في حريّة سامية». لكن الشاعر اكتشف باكراً أن الظلم والبغضاء يمنعانه من ممارسة حريّته كما يجب ، وكذلك يمنعان الناس من تحقيق حريّتهم المتكاملة. لذلك ثار في مواقف معيّنة على الله ، ورفض عدالته الإلهيّة بأبيات متسائلة مشكّكة :

ربِّ لِم أنتَ تظلم الأبرياءَ وتزيد العاني الشقيَّ شقاءَ
هم يقولون هكذا اللهُ شاءَ فاحترم فيه حكمةً علياءَ
وأحبُهُ الشكر بكرةً وعَشيّا

ولم يكتف الشاعر بهذا القدر من الرفض ؛ فنفسه الشاعرة الرافضة راحت في حمّى مشاهدتها الواقع القاسي المرير ، تسائل الله عن سرّ تعذيبه الكائنات التي خلقها ، والتي نفح فيها بعضاً من روحه. ولعلّ هذه التساؤلات بالذّات ، والروحيّة التي تنطلق منها هي التي جعلته يبحث باستمرار عن الخلاص. ومع أنّ بحثه عن الخلاص في الطّبيعة لم ينتهِ به إلى الإبتعاد عن الله بل قرّبه منه بالمقدار نفسه ، فإنّ تجربته مع المرأة العاهرة قادته إلى الإبتعاد عن الله ، وإلى الإنجراف وراء الملذّات الجسديّة الحسيّة وارتكاب المعاصي.

لكنّ هذا الإبتعاد لم يطل. فاستغراق أبي شبكة في الخطيئة لم يمنعه من معاودة البحث عن الله في المرأة الحبيبة ، بعدما اكتشف أن الجسديّات وحدها لا توصل الإنسان إلى الحريّة المطلوبة. على أنّ هذه الجسديّات ساعدته على بلورة إيمان قويّ ، إيمان يرتكز على الحاجة الروحية إلى الله ، وعلى التوجّه اليه ملجأً وحمايةً وخشبة خلاص. فالخطيئة أكسبت الشاعر بعداً إنسانياً لأنّها ترتبط ارتباطاً وثيقاً باختبار «أناه» الكلّي. وفي غمرة ممارسته الجنس للذّة الجنس ، نراه يعترف في «أفاعي الفردوس» أنّه خاطئ ، مما يعني أنّه يدرك محدودية وجوده وطبيعته الإنسانيّة.

فالبحث عن الحريّة هو الذي قاده إلى الخطيئة. والخطيئة ثمرة من ثمرات الحرية لأنّها إحساس الأنا وحضورها أمام ذاتها، وتأكيد للذّات، وهي الدليل الأكيد على وجود الحريّة وإن في وجهها السلبي. وإذا كان أبو شبكة لم يذق ثمرة الخطيئة حتّى النهاية فذلك لأنّ شعوره بالخطيئة كان قويًّا. فولّد عنده هذا الشعور صراعاً عنيفاً بين شهوة الجسد وما تقضي به التعاليم الدينيّة.

والإحساس القويّ بالخطيئة ما كان ليبرز بهذا العنف لولا إيمانه الوثيق بالله. ذلك أنّ الإنسان العادي يعيش حالة الخطيئة حين ارتكابه لها، في حين أنّ الإنسان المتشرّب روح الإيمان يصبح الخطيئة بحدّ ذاتها.

من هذه الرؤية يمكننا فهم ما كان يضطرم في صدر أبي شبكة من صراع، كما يمكننا أن نفهم شعوره العميق بالذنب تجاه ذاته:

رأيتك تمشي في المساخر شاعراً	وتاجك محطومٌ عليكَ مكمَّدُ
وروحُك ممسوخٌ، ونورُك ذاهلٌ	وشِعرك بالغلِّ الدنيء مصفَّدُ
وشاهدتُ أشباحَ السّماء كئيبةً	عليكَ بأسواط الأراجيفِ تُطرَدُ
فيمَ أزغتَ النفسَ عن نهج قدسها	فصارت مغاراً سافلاً وهي معبدُ!

إنَّ خيبة أبي شبكة من العالم المعيوش، وشعوره بأنّ الإنسان عاجز عن بلوغ الطمأنينة المرجوّة والسلام الداخلي واللذّة الحقيقيّة المستمرّة في الزمان، بمعزل عن الله، جعلاه يتوق إلى التوبة والتكفير والعودة إلى ربّه:

ربّاه عفوك إني كافرٌ جانِ	جوّعتُ نفسي وأشبعتُ الهوى الفاني
تبعتُ في الناس أهواءً محرّمةً	وقلتُ للناس قولاً عنه تنهاني
ولم أُفِق من جنون القلب في سبلي	إلّا وقد محت الأهواء إيماني

ربّاه عفوك إنّي كافرٌ جانِ

وهكذا ارتدّ إلى الله، وصار يراه في مظاهر الوجود كلّها. فتّش عن الله بعدما شعر بحاجته العميقة إليه، فوجده في كل مكان. فتطرّفت رومنطيقيّته إلى حدّ الترهّب،

وأصبح كفيكتور هيغو يعتبر أن الله موجود وحالٌّ في كلّ شيء ، وأن العالم بأكمله هو هيكل له. من هنا اعتباره نفسه لعبة في يد الله ، لعبة يجب أن يصونها ، وأن يحافظ عليها. فالله أصبح عنده الملجأ والحماية.

ولأنّ أبا شبكة عاد إلى الإيمان القوي بعد طول اغتراب ، فإنّه لم يكتف بالطلب إلى ربّه أن يصونه فحسب ، بل أن يصون حبيبته أيضاً :

ربِّ صنها وأبقها لي ظِلًّا   من حنانٍ يمتدّ في صحرائي

إنّ الإيمان بالله أوصله إلى الفرح والطمأنينة ، إلى السعادة القصوى والهدوء ضمن التوازن النفسي والرجاء. فالله ، وقد صار يراه محور الوجود ، جعله يصالح ذاته ، ويتحرّر من قيود المادة والجسد ، ويوحّد قواه النفسيّة ليوجّهها نحو تحقيق هدف واحد : السلام الداخلي.

وهذا الإيمان كان عزاءه الوحيد في رحلته الأخيرة ، كما كانت المرأة عزاءه في حياته. وكم كان يطلب من زوجته غلواء وهو على فراش المرض الأخير أن تصلّي ، ليردّد معها الصلاة بتقوى وخشوع كلّيّين.

إنّ الموت الذي دفع بأبي شبكة إلى البحث عن الخلاص من خلال منافذ خلاصية ثلاثة ، أكّد له أنّ الحرية هي في امتداد روحه في الفضاء ؛ فكأنه عاش لتكون تجربته خبرة للآخرين.

هنا تكمن أهميّة الرجل ؛ فقد استطاع أن يترجم حياته إلى قصيدة ، تجسّد فعل الخلاص ورجاء القيامة. فالشعر عنده كان المكمّل للثالوث : الطبيعة والمرأة والله ، لأنّه لغة القلب والروح ، لأنّه لغة الإنسان.

* *

هذه المقدّمة، محاولة متواضعة لربط تجربة أبي شبكة الشعريّة بتجربته الحياتيّة. ذلك أن لا فصل بين أبي شبكة الشاعر وأبي شبكة الإنسان. إنّها المعاناة الصادقة والتجربة المتكاملة والبحث المستمرّ عن الحقيقة. لذا كان هذا المجلّد الذي يضمّ تجربة إنسان اختبر الحياة مدّة أربعٍ وأربعين سنة، واستطاع أن يبدع من مآسيه وأفراحه وآلامه وآماله نشيداً متكاملاً يختصر آدم وحوّاء منذ بداية الخليقة حتّى اليوم.

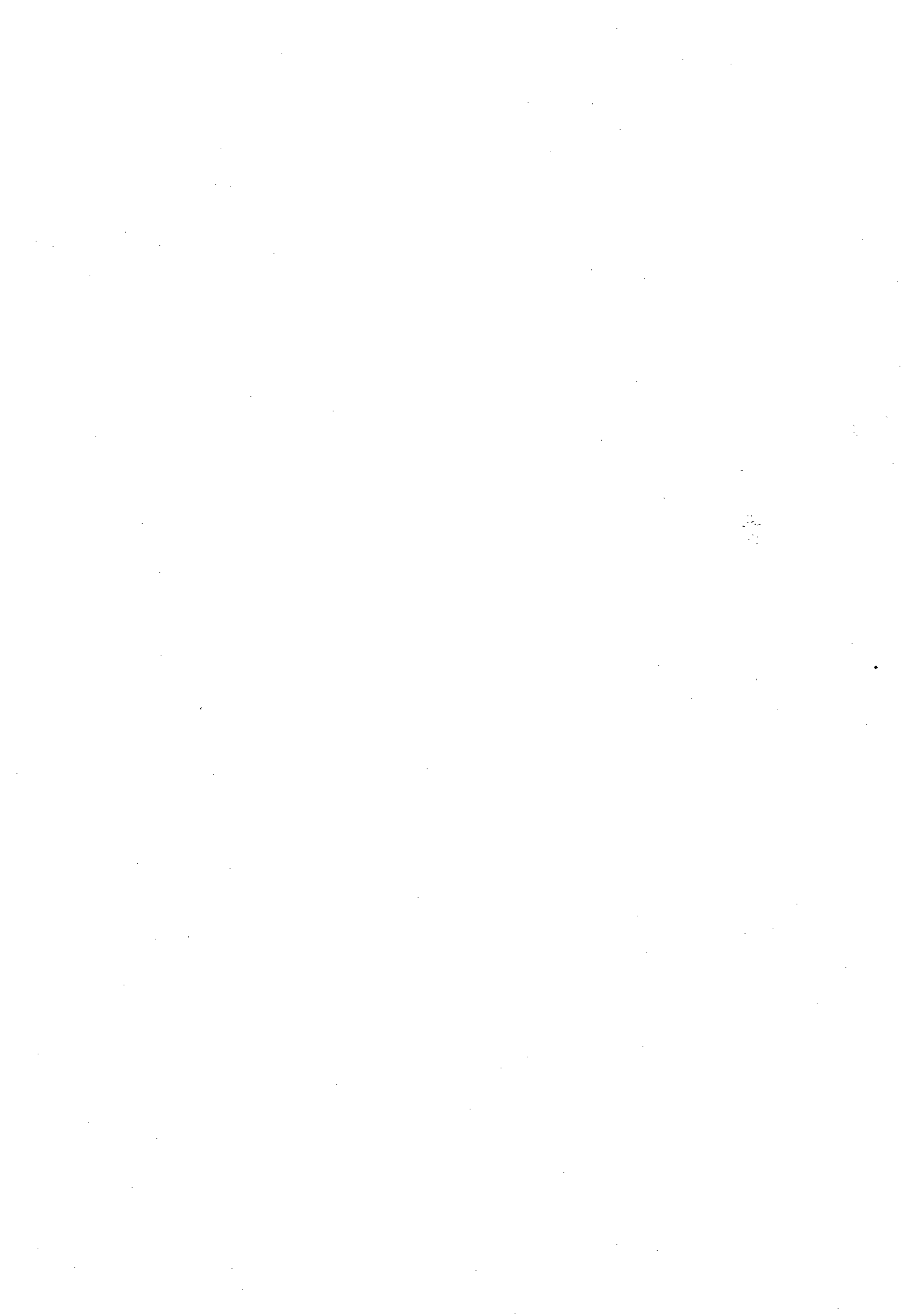
وليد نديم عبّود



القيثارة

الطبعة الأولى

١٩٢٦



أرفع قيثارتي هذه إلى روح والدي

يا أبي ،

لقد فتكَت بك يدٌ أثيمة في بلاد الغربة بعيداً عن زوجِك وصغارِك ، فخلّفتَ اليأس في صدر أمي والألَمَ في قلبي !

كنتُ في العاشرة من عمري يومَ توارى وجهك اللطيف إلى الأبد ، وكنتُ لا أزال أدفأ بين جناحيك ، وها أنا اليوم في الثانية والعشرين ، في عهد الشباب ، في عهد الجهاد والألم !

أُفتِّش في بلادي فلا أجدُ لي نصيراً ، ولا أجد مَن يُدركُ مبادئ نفسي وما طُبعَت عليه إلّا فئة قليلة هي مثلي في آلامها وبلاياها !

يا أبي ، لقد توالت الأيامُ العديدة وهي أشدُّ سواداً من ظلمة قبرِك ، وأنا ثابتٌ في مبادئي كالأرزة في وجه العاصفة ، أَوَدُّ شكاةً فلا أجدُ مَن يُصغي إليَّ غير روحك المرفرفة فوق رأسي !

ما هذه الجراحات التي أرفعُهَا إليك الآن، سوى أفواه الألم صارخةً من عمق أعماق نفسي!

هذه هي «القَيثارة» التي وقَّعتُ عليها، في طريقي الوعرة، أناشيدَ قلبي! فعلى كلّ وترٍ من أوتارها آثارُ دماء، وعلى كلّ قطعة من أخشابها جفاف دموع!

فإذا رأيتَ دمائي زكيّة ودموعي طاهرة، فأبقِ قيثارتي في عالم الخلود، وإلاَّ فحطِّمْـهَا على رأسي وغلِّل بأوتارها نفسي!

الياس

ما نُجيب الابناء إن سألونا

أيّها الظُّلمُ والخنا والغرورُ ... يا خداعاً تعفُّ عنه الشرورُ

يا كُنوداً، ويا محاباةَ قومي ... يا صدوراً، يدبُّ فيها النفورُ

يا خصاماً، يا منكراتَ بلادي ... يا رياءً، يا حِطَّةً، يا فُجورُ

إقربي ما آستطعتِ من كُبرِ نفسي ... أنا صدري رحبٌ وقلبي كبيرُ

ليَ نفسٌ كالبحرِ ذات آتّساعٍ ... فلُبابٌ يُلقى بها، وقشورُ

تبصقُ الرّجس عن عفافٍ وطُهرٍ ... واللآلي تبقى بها، فتغورُ

لا يغرَّنْكَ أنني مُستكنٌ ... فإلى ثورةٍ سكوتي يُشيرُ

وآستريبي إذا سمعتِ زفيري ... إنَّ في صدريَ الزفيرَ زئيرُ

إقربي، إقربي فآلامُ نفسي ... جمرةٌ يستطيرُ منها السعيرُ

جمرةٌ في بركانها تتلظّى ... شاخصاتٌ إلى لَظاها الدّهورُ

يا بلادي، كفاكِ هزءاً بنفسي ... إنَّ نفسي حسامُكِ المطرورُ

لا تقولي قد أحرَقَتْها البلايا ... كلُّ نفسٍ لم تحترقْ لا تُنيرُ

أُتركيني أُنشدْ أغانيَ حبّي ... أنا بالحُبِّ والأغاني فخورُ

إنَّ شعري أبقى من التاج عمراً ... ذلكَ التاج للزوالِ يصيرُ

كم أميرٍ، وكم مليكٍ توارى ... وطوَتْه دُجنَّةٌ وقبورُ

والمعرّي الضرير ما زال حيّاً   وفـقيراً كـان المعـرّي الضريـرُ

* *

يـا نـفـوساً تطوَّرَ البأسُ فيها   أيـن يـأوي حسامُكِ المشهورُ
ليس يُجدي حِلمٌ ولا اللينُ يُجدي   لـنـفـوسٍ شعـارُهـا الـتدميرُ
خُـلـقَ المجدُ لـلقدير، فجدّوا   لا يـنـالُ الـرقيَّ إلّا الـقديرُ
وَرِدوا العلمَ، إنّ في العلمِ نوراً   وٱنفُضوا الجهلَ، ليس في الجهل نورُ
هـذه التربةُ التي أنشأَتـكُـم   عـاثَ فيهـا مسـوَّدٌ مـأجـورُ
فـٱنفضـوها، ففي ثُراها نُضارٌ   وغِـنـاكُـم نُضارُهـا المذخـورُ
مـا نُجيبُ الأبناءَ إن سأَلونا   أيَّ أرضٍ أَنـرتُـمُ يـا بـدورُ
أَيَّ عـارٍ خـلّـفـتُـمُ لـفـراخٍ   رغب الـذلُّ فيهـم يـا نسورُ
أَنُـطـيـقُ الحيـا ونحن شيـوخٌ   شرفٌ في صـدورنـا وشعـورُ
عُـجَّـزٌ لا نَصيرَ يدفعُ عنّا   ما نقاسي، ما للذنوبِ نصيرُ

* *

أيّها الـفـجـر يا سراجَ البرايا   عجَباً منكَ، كلّ يومٍ تزورُ
كَيف لم تسأَمِ الوجودَ المحابي   أَتُـرى أَنتَ مثـلـه شرّيـرُ؟!
أَيَّ يـومٍ زيـوتُ نورِك تخبو   وعلى سُنَّةِ الضـيـاءِ تـثـورُ
وتـزجُّ الـوجـودَ في ظُـلُماتٍ   مستبدٌّ في بُردها الديجورُ؟!
إنَّ هذا الوجودَ أَمسى مُسنّاً   وشقـيّاً أَمسى الوجودُ الخطيرُ
رثَّ فيه خُلق الرجال ورثَّتْ   نَـزَواتُ العُلى ورثَّ الضـميرُ
لـيس فـيـه إلّا خداعٌ وزورٌ   وبـلـيَّـاتـه خـداعٌ وزورُ

خلفَ التيسُ فيه ليثاً هصوراً ويحَ تيسٍ ينامُ عنه الهصورُ
عبثاً نرتجي الصيانةَ ما لم تتمزّقْ عن الرّياءِ الستورُ
قد أَقمْنا على الجهالة عهداً وعلى الجهلِ لا يقيمُ البصيرُ
أَوَلسنا ورّاثَ أَقدَم مجدٍ في يدينا صليلُه والصريرُ
أَوَلسنا ورّاثَ شعبٍ أُنيرت بتعاليمه الهداةِ ، العصورُ
عبدوا الفنَّ نيِّراً ، وعبَدْنا ترَّهاتٍ ، شعارُها التبذيرُ
ما تبقَّى لنا من الفنِّ إلّا ذكرياتٌ هي النزاعُ الأخيرُ
أُمّةً كانتِ البلادُ ، فأَمسَت أَمَةً ما دَرَتْ بمَن تستجيرُ
يستبدُّ الغنيُّ فيها ويَعمى عنه كلُّ الورى ، ويشقى الفقيرُ
في ذُراها وفي السواحل يجري من عروقِ الجدودِ ، ماءٌ نميرُ
فاسجدوا للأثيرِ فيها ، وصلُّوا ، فلُهاثُ الأجدادِ هذا الأثيرُ

*

خاطرة

نظرَتْ إلى المرآةِ فاتِنَتي بتدلّلٍ يستعبدُ النظَرا
فهببْتُ ألثمُها لأَنَّ بها لخيالِ حُمرِ خدودِها أثَرا

ليس عن ضعف قعودي

هـذه الـدنـيـا سآمـهْ　　تـعبٌ فيهـا الإقـامـهْ

جـحـد العاتي فلـمَّـا　　يُبقِ لي فيهـا كـرامهْ

ليسَ عن ضُعفٍ قعودي　　عنه، لكنْ عن شهامهْ

ليَ نـفسٌ عـلّـمـتني　　كـيـف أَستـزري لِئامهْ

ليَ آدابٌ أراهـــــا　　فوق خدّ العلم شامهْ

ويـراعٌ يـتـمـنّى الـ　　ـفَجرُ لو كان آبتسامهْ

يُـعـرَفُ الـنـذلُ ولو حـطَّ　　على الـرأس عمامـهْ

كـلّ نـذلٍ مسـتـبـدٌّ　　في محيَّـاه علامـهْ

لم أحـاربْـه بسـيـف　　بـل بصـدقٍ وآستقامهْ

إنْ أُفَضِّـلْ صفعَه بالـ　　ـنَّـعـلِ أَنصِـفْه مُقامهْ

العامل الثائر

ما حيلةُ المفئود في حُسَّادِهِ   إمَّا آستبدَّ به طَغامُ بلادِهِ
صَدَمَتْهُ عاصفةُ الزمان، فقوَّضَتْ   بيتاً بناهُ على رجاءِ فؤادِهِ
بيتاً أَوَتْ فيه مواكبُ وحيِه   وتمشَّت الأحلامُ بينَ عِمادِهِ
قصدَته آمالُ الشبابِ، وطالما   كانت عذارى الحُبِّ من قُصَّادِهِ
حوِّلْ عيونَك عن مشاهده، فلم   تُبقِ الحوادثُ منه غيرَ رمادِهِ
ما شادَهُ ربٌّ التساهل والوفا   إلّا ليهدِمَهُ على عبَّادِهِ
أَوَلَستَ تسمعُ كيف يُنشد مثخنٌ   تتصاعدُ الزفراتُ من إنشادِهِ
هذا فؤادي تُستباحُ دماؤُهُ   مستَقطراتٍ من جراحِ ودادِهِ

* *

قال الحسودُ غداةَ أبصرَ مدمعي   يجري به بَصَري بملءِ سوادِهِ
هذا ضعيفٌ لا يميلُ به الهوى   إلاَّ ويعزفه على أعوادِهِ
يا عاذلي ليس اعتقادُك مُحكَماً   بالشاعر الباكي على أمجادِهِ
فالشعرُ لو أدركتَ، وحي حقيقة   والشاعرُ الرسَّامُ طوعُ قيادِهِ
لي موطِنٌ عاشتْ به أولادُهُ   فبكَت حُشاشتُه على أولادِهِ

أُلقيت في حفلة العمّال في بيروت.

يحيا ، أَمامَ عيونه جَلّادُه ، ويموتُ لاثمَ قَبضتَيْ جَلّادِهِ
نظّارُهُ ، وهُمُ شعاعُ عيونه يتطوّعونَ اليومَ لاستعبادِهِ
جبناءُ لا يتقيّأُونَ بحكمِهم إلاَّ مراعاةً لدى أسيادِهِ
لا بأسَ عندهم إذا لعبتْ به أفرادُه ، وأَذاهُ من أَفرادِهِ
فهم الذئابُ ، وفي سبيل وظيفةٍ تمشي أظافرُهم على أكبادِهِ
لهَفي على وطنٍ تُضامُ أُباتُهُ ويسودُ فيه النّذلُ بآستبدادِهِ
لبست غرابيبُ الغنى أبرادَه وتجنَّدَ المثريُّ لاستشهادِهِ
في موطني شعبٌ يبيعُ بفضّةٍ شعباً يقيم على رُبى أجدادِهِ
يجترُّ عن ظمأٍ نطافَ دمائه ويريشُ نبلته على أجسادِهِ
مَنْ يسترقْ قوماً يعيش بمالهم فلتبصُقِ الدّنيا على ألحادِهِ

* *

اعروسَ شعري ، يا صدى قلبي الذي حالتْ عبيدُ الظلم دون جهادِهِ
كوني شعاعاً في سراج صبابتي فالناس عاملة على إخمادِهِ
كوني حساماً لا يَملُّ غرابُه لتخلّصي المسجونَ من أصفادِهِ
وآمشي بأعصابِ الحقودِ وأَضرمي نارَ السلام تدبّ في أحقادِهِ
وتبسَّمي لدمٍ أُذوِّبه على قَلمي الذي خلَّدتهُ بمدادِهِ
وكما هديتِ (أبا نواس) إلى العلى فآهدي فؤادي ، فهو من أحفادِهِ
في صوتِكِ الساجي لبانة عامل يسمو بها في الحزن عن أضدادِهِ
ما لَامَسَتْ قلبي سحابةُ علةٍ إلاَّ وكان غناكِ من عوّادِهِ

* *

أَعروسُ شعري ، في بلادي نزوةٌ سلبتْ من المفئودِ عذبَ رُقادِهِ
لبنانُ يرضى شوكه تاجاً له ويـذيب نـقـمتـه على أَورادِهِ
كم في رُبى لبنان من متشاعرٍ نامي الفَساد ، مُفاخرٍ بفسادِهِ
يملي الـذي أَملاه غيرُ يراعه ويقول ذا شعري ووحيُ رشادِهِ
أيعيش في الماضي ويترك غيرَه يبني الجديدَ على رسومِ بلادِهِ
ويفاخرون بـه لأَنَّ نسيجَه كـنسيجِهم ، ومرادُهُم كمُرادِهِ
فهم الذين يقدّسون قديمَهم لا يتركـون الرّثَّ من أَبرادِهِ
لا يـفـتـأَونَ يـردّدونَ بجهلِهم مـا تـنتنُ الآذانُ من تردادِهِ
أَين الأُلى رفعوا أريكةَ عزِّه وبَنوا مغاني المجد فوقَ نجادِهِ
الجالسون على عروشِ جلالِهِ والمالكونَ على ذُرى أَطوادِهِ
اللابسون بسـطوةٍ أبـرادَه والمُضرمونَ البأسَ في أَجنادِهِ
ذهبوا وقد بذروا سنابل زرعِهم فتسارعتْ غِرْبانُنا لحِصادِهِ

في ١ أيار سنة ١٩٢٥

القلب لا يُشرى

أُنظروه تَروْا خياليَ فيهِ شفَّهُ سقمهُ، فصار شبيهي

رشأٌ حُسنه يضاعف حُبّي ألعذارى في فجرها ترويهِ

فإذا ما النجومُ أبدَتْ شعاعاً فشعاعٌ من حُسنِهِ يخفيهِ

وإذا ما الصَبا أذاعت حديثاً فالصَبا في حديثِها تعنيهِ

كم سهرتُ الظلام أرعى هواه وأنا شاخصٌ بمرشفِ فيهِ

فكأنّي عبدٌ أَوَدُّ رِضاه وأنا فاعلٌ بما يُرضيهِ

ومِراراً لزمتُ غرفة يأسي أنظم الشعر والهوى يمليهِ

غرفةَ الحزن، أنتِ تحوينَ صَدراً كلّ ما في الوجودِ لا يحويهِ

يا غزالاً أويتَ قلبيَ، رِفقاً صار ميتاً ذاكَ الذي تأويهِ

إن تكنْ تستحلّ قتل فؤادي ليس في الحُبِّ غيرُه تشتريهِ

في ٧ تشرين٢ سنة ١٩٢٢

اغنية المجد

سجدتُ في هيكل الأماني مضعضَعَ العقل والجَنانِ
في ليلةٍ لم تُبنْ شِهاباً إلّا أَراشت سهماً رماني
وقلتُ للمجد، وهو طيفٌ لم أَرَهُ بعدُ في مكانِ
إنَّ أَمامي طريقَ نفسي وليَهْدني منكَ نيِّرانِ
إذا بصوتٍ كالهمْسِ أَلقى في مسمعي هذه المعاني
أَنا خفيٌّ كالسرِّ أو كالـ ـهلاكِ، أَنقضُّ في ثوانِ
أظهرُ في ساعة الطعان بين ضبابٍ منَ الدّخانِ
ولا ينالُ الخلودَ منّي إلّا فؤادُ الذي يراني
فما لهاثي إلّا ضرامٌ يدبُّ في عنصرِ الزمانِ
فلا يغرنّك آبتسامي فَتحتَ جفنيَّ هوّتانِ

* *

سكبتُ في أعينِ المعرّي زيتَ النبوّاتِ من عيوني
وقلتُ للناصريِّ طَهِّرْ ذنوبَهم بالدمِ الثمينِ
قلتُ لقيسٍ، عشيقِ ليلى، أَنشِدْ ومُتْ رافعَ الجبينِ
قلتُ للينين نَمْ قريراً أَنتَ نبيٌّ بعدَ قرونِ

الصمتُ في قدسِه صلاتي ومُوحياتُ الآلامِ ديني
لا يرتقي سُلّمي ضعيفٌ أَنا لبأسٍ، لستُ للينِ
مقالدي الصبرُ والتأني وشدّةُ العزمِ في الشؤونِ
أَحملُ في مقلتي عذاباً وشعلة النار في جبيني
الشيخُ مثلُ الفتيِّ عندي مَن يسعَ تُفتَحْ له يميني
لمَّا أُعيِّنْ وقتَ حضوري فبعدَ حينٍ أَو قبلَ حينِ

* *

البعضُ ماتوا تحت ذراعي أمام مصباحيَ المنيرِ
والبعضُ ماتوا مذ جئتُ حتى أُلقي على رأسهم زهوري
الموتُ في مجده شعاري ونافخٌ في الدّجى نفيري
فقبلةُ الخُلد لم أَضعْها إلّا على حافةِ القبورِ
مَن يطلب المجدَ في حياةٍ فليشترِ المجدَ بالزفيرِ
أنا هزار في الليلِ أشدو لحني على مسمعِ الدهورِ
يسمعني الموتُ في دُجاهُ وهو يماشي خُطى العصورِ
أشربُ من أَدمعٍ عذارى ومن دماء القلبِ الكبيرِ
ولستُ أُحيي ذكراً مجيداً لذي نبوغٍ وذي ضميرِ
إلّا إذا ما ٱفترستُ قلباً يكون أقوى من النسورِ

ولما تقيسون الصلاة؟

ويلُ الضعيف من القديرْ ويـلُ الأثيمِ من المصيرْ
هــذا يماشيــه الــنصيــرُ وذا يقيمُ بلا نصيرْ
هــذا يمجّــد بــالشرورِ وذا يُهانُ بلا شرورْ
هذا يُظَـنُّ من اللبــابِ وذا يخالُ من القشورْ
ويحُ الصـغيـرِ فـإنّـه شِلوٌ بـأنيابِ الكـبيـرْ
شرَفُ الضميرِ لدى المسوّدِ أن يكونَ بلا ضميرْ

* *

وصـبيحةٍ قـد جزتُها في مـنحنى وادٍ نضيرْ
تَـرَكَتْ بصـدريَ عـلّةً يحدو بها حـادي السعيرْ
شاهـدتُ ثـاكـلـةً تنوحُ وراءَ تـابوتٍ حقـيـرْ
تـرثي ابنهـا بمدامـعٍ حرّى من القلبِ الكسيرْ
نَـظَـرَتْ إلى الـتـابوتِ باكيةً على أَملٍ أخيرْ
وكـأَنَّ مُـقـلـتَـهـا سراجُ كـاد يُطفيُ بـالزفيرْ
وارَتْ يـدُ التربِ الترابَ وعـاد حفّـارُ القبورْ

والـــكــاهــنُ المأجـورُ تَمـ ـتَمَ مدة الوقت القصيرْ
ومضى وخلّى الميت تؤ نســهُ الجداولُ بــالخريــرْ
وتـــزوره عـــنــد المسا والـفـجر أسرابُ الـطيورْ
بكتِ السماءُ اَبنَ الشقا ءِ بمدمع الزُهـر الـغزيرْ
والليل ذوَّبَ في الضريـ ـحِ عواطف البدر المنيرْ

* *

إي معشرَ القومِ الأُلى سنُّوا الشرائع لـلعصـورْ
أَتـفـاوتٌ بين الـغـنى والـفـقـر حتى في القبورْ
حقٌّ الـتـحـبُّـرِ لـلغني ولا حـقـوقٌ لـلـفـقـيـرْ
هـذا إلى الأمـواتِ يَسـ ـقطُ ، ذاكَ ينزلُ بالحريرْ
مـاذا ! أَلـيسَ الله مـجّاً نــاً لخلق مســتـجـيـرْ
أَتـفـاوتٌ بين الـفـقـيـ ـرِ لدى المهيمنِ والأميرْ
مـاذا ! ألا تَرضى الملا ئكُ أَنْ تَنازلَ بالظهورْ
إلا مـــتى تـــرشونها بـالمال في الـيوم الأخيرْ
لِمْ ، يا تُرى ، حدَّدتم ثمنـاً لـرَبِّـكـم الـقـديـرْ
حـتـى يُطـافَ بـه ورا ءَ الـنعشِ بالعدد الغفيرْ
ولما تـــقـــيسون الصلا ةَ إذا عدلتم في الأمورْ
لأُلي الشـــقـــاء قصيرةً وطـويـلـة لأُلي الـقصـورْ
الحَور يـــرمي ظـــلّـــه في القفر والحقل النضيرْ
لا فـرقَ عـنـد ظلالـه بين الـعشـابـة والـزهـورْ

* *

رومـــــا ! يـودُّ الله أن يمشي التساوي في الصدورْ
ويـودُّ أَن يُـعـطى ولـيـ ـسَ يُباع في يوم النشورْ
أَوَلَـمْ يهبْ دمـه الـطهو رَ وفـلذةَ الكَبدِ الطهورْ
فـالـنفسُ تطلبُ مرسلاً لا تـاجراً واهي الضميرْ

في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٩٢٥

*

خاطرة

إنفِ عنكَ الأحزانَ والحسراتِ معرضاً عن وجهيهما التوأمين
وتـنـعَّـم مجاهـداً في الحياةِ لا يمرُّ الصِـبـا بهَا مـرّتين

في ٣٠ آذار سنة ١٩٢٢

ما بعد منتصف الليل

مرَّ جنحٌ من الظلام وقلبي لم يزل يستمرُّ في خَفَقانِهْ
وهفا النومُ عن جفوني ، فروحي في وجودٍ ضلَّ الهدى عن مكانهْ
أنا في مُخدعٍ تكادُ لآها تي تسيلُ الدموعَ من جدرانهْ
ضيِّقٍ ، مظلمٍ ، فلو أقبلَ النو رُ إليه ، لخافَ لونَ دهانهْ
وأمامي القنديل ، يلمعُ نوراً فإخالُ الجحيمَ في لمعانهْ
وأراه يسآلني عن شجوني لو حباه الإلهُ نطقَ لسانهْ
يشعرُ القلبُ من دمي بدبيبٍ كدبيبِ البركانِ في هيجانهْ
وأرى بين إصبعيَّ لفافاً تتلاشى أعمارُنا كدخانهْ
ساهرٌ في كآبتي ، وحبيبي بسلامٍ ، ينام عن أشجانهْ
فبنان الرقاد تسكبُ سحراً وتذيبُ الأحلامَ في أجفانهْ
أنصفَ الليلُ ، ما لقلبي يُناجي في سكون الدجى هوى سكّانهْ
مسَّهُ عارضُ الجنونِ ، فلولا أَضلعي ، لاستطارَ عن جثمانهْ
أسمعُ الليلَ في الفضاءِ يغنّي وحفيفُ الأوراقِ من ألحانهْ
تلك أُنشودةُ الحياة يُغنّيـ ـها لسانُ الدُجى على عيدانهْ
وأَرى ظلمةَ الدجنَّةِ إبليـ ـساً نجومُ الفضاءِ من أعوانهْ

موكبُ من عرائس الجنِّ يمشي	للقاءِ الشيطانِ في إيوانهْ
هم يقولون ما به، وهواه	حسبما يبتغي، وطوعُ بنانهْ
حين نادى جَنانُه رحمةَ الحبّ	آستجابَ الهوى نداءَ جَنانِهْ

* *

إي ولكن! لو يدركونَ أُموراً	قد رماها الفؤاد في كتمانهْ
لو همُ يعلمون ماذا يُقاسي	عاشقٌ يستجيرُ في لبنانهْ
لو دَرَوْا أنّ في الطبيعة عدلاً	قطع الظلمُ كفَّتَيْ ميزانهْ
لاستباحوا كفرانَه وآستحلّوا	أَن يظلَّ الحزينُ في كفرانهْ

* *

ربِ! عفواً، لقد فقدتُ شعوري	فشعوري يهيمُ في تيهانهْ
كن شفيقاً عليّ وآرحمْ فؤادي	إذ تراه قد ضلَّ عن إيمانهْ
إنَّ قلبي مأوىً لكلّ عذابٍ	قد أواه الضنا بلا استئذانهْ
فكأني وُجِدتُ في الكون حتى	أشربَ الكأسَ من يدي شيطانهْ

* *

يا صديقي، إن شئتَ تبيانَ قلبي	فجبيني ينبيك عن تبيانهْ
رسم القلبُ طيفَه فيه، فآنظرْ	يعرفون الكتاب من عنوانهْ
يا صديقي، أُنظر لبستانِ عمري	كيف دبَّ الذبولُ في أُقحوانهْ
فشبابي أخنت عليه صروفٌ	أَفقدته النضار من ريعانهْ
صرت في وحدتي أُخاطب «موسه»	راشفاً في الظلام سحرَ بيانهْ
كان مثلي، فغيَّب القبرُ منه	جسداً بالياً قُبيلَ أوانهْ
شاعرَ الدمع هل من الدمع بدٌّ	في وجودٍ، أَلعينُ من غدرانهْ؟
أَفعمَ الكون بالعذاب حياتي	فلهذا تاقت إلى أَكفانهْ

في ٢٧ ك٢ سنة ١٩٢٢

تذكارات وآلام

في ذمّة الماضي انطوت ساعاتُ أحلامي العِذابْ
أيّـامَ لا هـمٌّ سوى همِّ المعلّمِ والكتابْ
أيّامَ كـانَ أبي الشبا بَ وكنتُ نوراً للشبابْ
أيامَ حُلمي لم يكن إلّا شُعاعاً من شِهابْ
إن أنسَ لا أنسَ الهضا بَ وما على تلك الهِضابْ
والشمسُ تُوشكُ أن تغيـ ـبَ ويعلنَ الجرسُ الغيابْ
وأبي على صخرٍ يُحدِّ قُ في عَشيَّةِ صيفِ آبْ
فيما تُـراهُ كـانَ يـفْكرُ وهو ينظرُ في الضبابْ؟

* *

لم أنسَ أتـرابي الأولى كانوا وكنتُ لهم مداما
إن جئتُهم متبسّماً ألقَ ارتياحاً وابتساما
وإذا غضبتُ تشاوروا فيما يُعيدُ ليَ السلاما
عـبث الشبـابُ بهم فغيَّرَ خُلقَهم عاماً فعاما
إن الشباب ملاعبُ الـ أيامِ فاحذَرْ أن تُضاما
في ذمّةِ القبرِ القصيّ حُشاشةٌ ذابَت هـيـاما

خــفَّت إليهـا في الترا ب يتيـمـةٌ بين اليتامى
هيَ نفسيَ الـثكلى وقد صلَّى العذابُ لها وصاما

* *

أُمي وقـد وَجدَ الضنى في مـقـلـتيهـا مـدخَلـهْ
تَـرثي الحيـاةَ كـأنّـهـا من نصفِ شهرٍ أرملهْ
كـم مرةٍ نَظرَتْ إليَّ فتمـتـمت: مـا أجمـلهْ
لو كنتُ أقرأُ من خلا لِ عـيونـه مسـتـقبـلَهْ
أَنا في سبيـل لا أكا دُ الـيومَ أُدركُ أَوَّلـهْ
يـا أُمِ رِفـقـاً واَصبري لا بُـدَّ لي أن أُكـمـلهْ
أنجزتُ مـرحلـةَ الشقـا وعـليَّ أَيضـاً مـرحـلـهْ
حـملَ المسيحُ صليبَـهُ حـتى أَعـالي الجلـجلـهْ

في ١٠ شباط سنة ١٩٢٥

يا بلادي!

يا بلادي
هو ذا قلبيَ يبكي
فوق أطلال هواه، ويناديِ
يا بلادي !

* *

لو ترينَ الدمعَ منه
جارياً في الصدر، مثلَ الجدولِ
تمتلي منه عيوني
وخدودي الصفرُ منه تمتلي
فآستقي منه وداداً
فدموعي من ودادي
يا بلادي !

* *

إنْ أَرَ الحبَّ قسيّاً
لا أجدْ في جورِهِ إلّا فؤادي
أَو أَرَ الذلَّ انتشاراً
لا أجدْ في سترِهِ إلّا بلادي
أخفضي الرأسَ إلى أَنْ
ترفعيهِ بالجهادِ
يا بلادي!

* *

أينما سرتُ أرى الناسَ
لدى ذكرِكِ دوماً يهزؤونْ
فهُـمُ منكِ، ولكنْ
جحدوا، والناسُ قومٌ جاحدونْ
وهمُ الأبناءُ باعوا
ألأُمَّ في سوقِ المزادِ
يا بلادي!

* *

حدّثينا عن جدودٍ
ظلَّـلَ الأَرزُ ثراهم من قديمٍ

وعنِ الحكّامِ لمَّا
حكموا فيكِ بقانونٍ قديمٍ
علِّمي اليومَ قضاةَ
العدلِ، إنصافَ العبادِ
يا بلادي!

* *

يا بلادي إنْ دعاني
نَسبي التَوْرابُ في تلك اللحودِ
وآنطفت نارُ هيامي
وخبا زيتي بمصباحِ الوجودِ
لا تعدّيني رماداً
فهيامي في رمادي
يا بلادي!

في ٢٨ ك[٢] سنة ١٩٢٤

العرافة

هذه القصَّة لا شأنَ لها ... بأَقاصيص عجوز خَطِلِ
فهي نُطقٌ سمعته أُذُني ... وبيانٌ أَبصرته مُقَلي
فأنا في سردها أصدقُ إذ ... إنّها قد حَدَثَتْ في منزلي
فآسمعوها وآفقهوا جوهرها ... وخذوا موعظةً مما يلي:

* *

قمتُ في ذاتِ ضحىً من مضجعي ... وبناتُ الشعر قد قامت معي
وتوجَّهْتُ ، كأمسي ، يائساً ... أَنزوي منفرداً في مخدعي
مخدعٌ كالقفص الضيِّقِ قد ... سكنَتْ فيه عذارى أدمعي
كلّ عذراءَ على قيثارها ... هجعَتْ ، والشعرُ بين المُقَلِ

* *

فسمعتُ الطيرَ في مجثمه ... مُنشداً يستقبلُ الفجرَ الجديدا
ورأيتُ الفجرَ سكرانَ هوىً ... يَردُ الطهرَ ولا يسقي الوجودا
وعلى قيثار «فينوس» شَدَتْ ... ربةُ الحكمة «مينرفا» النشيدا
إنَّ للفجر غراماً طاهراً ... ما درى معناه غيرُ البلبلِ

* *

طلعَ الصبحُ رويداً وأنا أسكبُ الأشعارَ من قارورتي
مُطلقاً زفرةَ صدري بأسى فأثيرُ الروح في نرجيلتي
وأرى دخنتَها ثائرةً تتلاشى في زوايا غرفتي
كلما أطلقتُ فيها زفرةً همستْ في الصبحِ حتى ينجلي

*   *

وإذا صوتٌ تعالى ملحناً من بعيدٍ مثل أوتار النَغَمْ
صادمتْه نسماتٌ في الصَبا فأتى كالهمسِ في أُذنِ النسمْ
عند ذا أَطللتُ من نافذتي تاركاً قرطاسَ شعري والقلمْ
فإذا : بصارةٌ برّاجةٌ تكشفُ البختَ بقولٍ مُنزلِ

*   *

ما ترددتُ بأن ناديتُها وعلى ثغري خيالُ البَسماتْ
فأَتتْ ، والوشمُ في مرشفِها طرقاتٌ لمرورِ المعجزاتْ
قلتُ يا عرّافتي ، هل أنتِ مَنْ قرأَتْ في الغيبِ أسرارَ الحياة؟
أَطلعيني عن مآتي وطني وعن الحالةِ في المستقبلِ

*   *

فأجابَت بعد أن مدَّت يداً لاستلامِ الغرشِ من كَفّي نصيبْ
ورَمَت في حجرتي أبواقَها فتعالى نَغَمٌ منها غريبْ
ضَع على الأبواقِ يمناك ، وقل : إنني آمنتُ باللهِ المُجيبْ
ثم قالت ليَ كلاماً صائباً فاْسمعوا يا قومُ ما قالتهُ لي :

*   *

إنَّ لـبـنـانَ ضـعـيـفٌ رازحٌ   تحت أثــقــالِ ظلامٍ أسودِ
لـعـبَت فـتـيـانُه فيه ددا   ما أرادَت مـهـنةً غيرَ الدَدِ
هجعَت سكرى بأحلامِ الصبا   هل دَرَت ماذا توارى في الغدِ
إنَّ شعـبـاً كـثُرت أحلامُهُ   لهو شعبٌ ضـائعٌ في الدُولِ

* *

لـبلادِ الأرزِ أبـنـاءٌ نَـأت   فهي تشقى في زوايا المهجرِ
ولها قَلبٌ إذا ما ذُكر الـ   ـوطنُ اهتزَّ اهتزازَ الشجرِ
سعدُ لـبـنـانَ كـبـيرٌ إنما   بسوى أبـنـائـه لم يـكـبُـرِ
ولــه بـرجٌ علا مـرتـفـعـاً   من قديمٍ ، وغداً لا يعتلي

* *

عـنـدمـا الغُيَّابُ تعتادُ الحمى   لترى مسـتـقـبلاً في الـوطـنِ
عـنـدما الأمواهُ تُمسي مسكِراً   جـاريـاتٍ مـن أعـالي الـقُـننِ
عـنـدما المهجرُ يُمسي خالياً   من رجالٍ نَشأَتْ في الدِمَنِ
بشّـروا لـبـنـان بالعودِ إلى   زمـنٍ مـثـل الـزمـان الأوَّلِ

* *

عـنـدما البغضاءُ تُمسي مهجاً   تـنـسـلُ الحبّ وتـأوي الرجلا
عـندما الأرماحُ تُمسي سككاً   وفـرنـد السيفِ يُمسي منجلا
عـنـدمـا الحاكمُ في عزّته   يُـنـجـد الـفلّاح حتى يعملا
بشّـروا لـبـنـانَ بـالـعزِّ فما   وطـنٌ عـزّ بـغـيـرِ الـعـمـلِ

* *

كنتُ أُصغي وفؤادي نابضٌ وعيوني شاخصاتٌ في السحابْ
نـاظراً في عـالم الماضي إلى مجد قومي المتلاشي كالضبابْ!
إنّ زيتَ المجدِ لا تشـعـلُهُ زفراتُ اليأسِ من صدرِ الشبابْ
فـالـتـآخي والـقُوى تضرمُه هـل مؤاخـاة بهذا الجبـلِ

*   *

عـنـد هـذا نَـهضتْ عَرّافتي بعد ما قد جمعت أبواقها
ومضت تسرع بـالمشي وقـد وهبت من سحرها أحداقها
ولَدُن قد خرجت من منزلي ومضَت نـاشدةً عشـاقـهـا
صرخت: بصـارةٌ بـراجـةٌ تـكشفُ البختَ بقولٍ منزَلِ

*

خاطرة

كلُّ سعدٍ يُبنى على شقوةِ الغَيْـ ـرِ فـهـذي شريـعـةُ الأَيامِ
أُنظرِ الشمس كيف صارت نهاراً حين وارَت نصف الورى في الظلامِ

يا بنت لبنان

إمحي السوادَ عن الأهدابِ في المُقل وآمحي آحمرارَ اللمى الممزوجِ بالقُبلِ
فلستُ أَرغبُ جفنَ العينِ مكتحلاً ولستُ أنشدُ إلا حمرةَ الخجلِ
ولا تـودّك نـفسي غير طاهرةٍ كأدمع القلبِ في قارورةِ الغزلِ

* *

يا بنتَ لبنان يا نبراسَ إظلامي كوني حياةً تمشَّى بين أعظامي
وفي عـيـونيَ مـرآةً أراكِ بها وفي فؤاديَ مؤاساةً لآلامي
فـأَنتِ رمـزٌ لإيحائي وإلهامي أَبصرته من كوى حبِّي وأحلامي

* *

يا بنتَ لبنانَ كوني الجزءَ من كبدي وآمشي معي في ذهِ الدنيا يداً بيدِ
فأمس كنتِ فتاةً تلعبين دداً لكن شببتِ وأمسى اليومُ غيرَ ددِ
فأنتِ أُختٌ تؤآسينَ الحياةَ غداً وأنتِ أُمٌّ لهذا الكونِ بعد غدِ

* *

يا بنتَ لبنان، بنت المجدِ والشانِ يا ظبيةً مرحَت في جنَّةِ البانِ

خذي ٱحمرارَكِ من زهرِ المروجِ ففي المروجِ أزهارُ طهرِ العالمِ الثاني
وكحِّلي الجفنَ بالآدابِ وٱفتخري بأنَّ كحلَكِ من جنَّاتِ لبنانِ

*   *

دعي سواكِ تبيعُ الثغرَ بالذهبِ فالثغرُ ما ٱنشقَّ كي يجني على الأَدبِ
ولم يكن ضرَبُ الأفواهِ ذا ثمنٍ فلا تبيعي الهوى من ذلك الضرَبِ
عُـرفتِ طاهـرةً فـٱبقي مثـابـرةً لا تبدلي الفلَّ بالأشواكِ والحَطبِ

*   *

يا بنتَ لبنانَ ما أسمى مسمَّاكِ فالزهرُ يجني شذاهُ من مزاياكِ
أنتِ ٱبنةُ الكَرمِ الموروثِ من قِدَمٍ وحيث تأوي ظِبى المرديتِ مأواكِ
فإن تعالى إليكِ النوحُ من تَعِسٍ إرمي «لعازر» شيئاً من عطاياكِ

*   *

في ذات ليلٍ وقد فات الكَرى عيني خرجتُ أَسرحُ فكري مع صديقينِ
فشمتُ نجمَ الدُجى تنضمّ ساريةً وبـٱئـتلافٍ تمشَّى كـلّ نجمـينِ
وغـيـمتين أطـلَّ الـبـدرُ بينهما شبيه جـوهـرةٍ ما بين نهدَينِ

*   *

فقلتُ والنفسُ تعدو رائدَ الأَملِ الائـتلافُ أَساسُ الجدّ والعملِ
ففي الـفـتاةِ دروسٌ نستنيرُ بها إنَّ الفتاةَ حياةُ القلبِ في الرجلِ
إذا ٱستـنـارَت وآختْه مصافحةً تجري دماءُ القوى في مهجةِ الدّولِ

في ٢٣ ك[١] سنة ١٩٢٣

القضاء المفتون

او

صدام فهمي امام القضاء

كيف قوّضتمُ بناءَ القضاءِ ... في سبيلِ النجاةِ بالحسناءِ

يا قضاةً ظلمتُمُ العدلَ حتى ... ترحموا الحُسنَ في عيونِ النساءِ

قد عهدنا أَنَّ الجمالَ حسامٌ ... مرهَفُ الحدّ، باترٌ، ذو مضاءِ

ما عهدناهُ أَنه الشرعُ حتماً ... جائرٌ في الورى على التعساءِ

فإذا كان قاضياً، ذلك الحُسـ ... ـنُ ، يدينُ العباد تحت الخفاءِ

أجلسوهُ على المنصَّةِ جهراً ... واستعيضوا به عن الزعماءِ

يُصبح العدلُ حينذلك فحشاً ... ويغور الوجودُ في الفحشاءِ

والفقير الضعيفُ يمسي ذليلاً ... وتصيرُ الأحكامُ للأغنياءِ

كم بريءٍ في السجن أمسى شقيّاً ... من ضحايا الشرائع العمياءِ

ولكم مجرمٍ يعيثُ فساداً ... هو في شرعكم من الأبرياءِ

يا قضاةً والعدلُ أعظمُ ركنٍ ... لمسيرِ النظامِ في الغبراءِ

كيف كفَّنتمُ الشبابَ بقانو ... نِ تَوارى ملوّثاً بالدماءِ

ما درى الناسُ قبل ذلكَ أنَّ الـ ـعدلَ رهنٌ للأعينِ النجلاءِ
ولـه مهجةٌ أُصيبَت بسهمٍ من هوى مرغريت في الأحشاءِ

* *

أَيْ جمال النساء أُوليتَ حُكماً فاْحتكم ما تشاءُ في الضّعفاءِ
إن تكنْ سافكاً فكنْ مستبدّاً لا تخفْ، ما هناك غير القضاءِ

*

خاطرة

أُحبُّكِ حينَ أَراكِ تنوحين والدمعُ يقطرُ من ناظريكِ
وأَهوى تقطُّعَ أوتارِ صوتِك يُصعِّدُهُ الحزنُ من مرشَفَيْكِ
أُحِبُّ العذابَ وأَهوى البُكاءَ وأَعشقُ كأسَ الضنا في يَديكِ
وعندي أَنَّ إِرتواءَ الدموعِ دموعِ المؤاساتِ من مقلَتَيكِ
لأَفضلُ من قُبُلاتِ الغرامِ يشربها الفمُ من وجنَتَيكِ

الحزن والجمال

او

مرغريت فهمي امام الضمير

وقد أزال الحزن أثر الجمال الخلّاب عن وجهها

كنتِ بالأمسِ ربّةَ العاشقينا ... تُسكرين الملا ولا تَسكرينا

ولقد كنتِ تبسمينَ بحظٍّ ... فلماذا أَمسيتِ لا تَبسمينا

ما الذي أوجبَ اكتئابك حتى ... صار رمزُ الجمالِ رمزاً حزينا

أظلمَ الحزنُ في عيونِك نوراً ... كانَ بالأمسِ فتنةَ الناظرينا

أين ذاكَ الجمالُ، أين جبينٌ ... ما أرانا من قبلُ هذي الغضونا

أَوَليست هذي الغضونُ رموزاً ... لم تزل في الفؤادِ سرّاً دفينا

خفّفي اليومَ وطءَ مشيكِ كيلا ... يصبحَ المشيُ نقلة الراقصينا

ما تعوّدتِ غير مشي دلالٍ ... كنتِ حتى الهوى به تخدعينا

خفّفي المشيَ إنّ في التربِ قلباً ... رجعَ اليوم بعد إثمك طينا

لا تصيخي للحبّ وامشي عليه ... ليس عهدُ الغرامِ إلاّ جنونا

لا تصيخي إلى الضمير إذا ما قال يوماً عبارةَ المشفقينا
«قد أهنتِ الحياةَ بعد عليٍّ فاَستحي اليومَ لا تُهيني المنونا
إن يكُ الفسقُ من عليٍّ فمنكِ الـ ـفسقُ والجورُ بئس ما تفعلينا
أَنتِ أَفسدتِه وكان غلاماً ثمَّ صيَّرتِه من الباذرينا
إنزَعي الحليَ عنكِ واَستبدليها بقيودٍ أَحقّ بالسافكينا
هذه الحليُ من دماءِ عليٍّ كيف تُبقينها ولا تخجلينا»

*   *

لا تصيخي يا مرغريتُ لصوتٍ ليس صوتُ الضمير إلّا مُجونا
واَرقصي إن وددتِ فوق ترابٍ ضمَّ قلباً لمغرمٍ وعيونا
واَطرحي الحزنَ عنكِ، فالحزنُ جبنٌ كيف يا غادة الدما، تجنينا
إيهِ ضحّي الضميرَ في كلّ حالٍ ومُري السفْك في الورى أن يكونا

في ٢ تشرين[١] سنة ١٩٢٣

دائما مرغريت

نظر النيلُ والمدامعُ تهمي   كيف يهوى القضا «منيرة **فهمي**»

* *

يا قضاةً ظلمتُمُ العدلَ مرّه   فاسمعوا اليوم في القضيَّةِ أمرَه
إن تركتمْ «منيرة» الإثم حرَّه   ترتكبْ في حياتها ألفَ إثمِ

* *

مصرُ لا اعتادَ جانبيكِ الذامُ   فلتَحِدْ عن ربوعِكِ الإجرامُ
هذه مرغريتُ ، والحكّامُ   برّأتْ جرمَها بأفظعِ حكمِ

* *

هذه مرغريت، حكّامَ مصرِ   فانظُروا في عيونها ألفُ سرٍّ
وتوقّوا جمالَ ذاكَ الشعرِ   فهو يسبي قلبَ القضاةِ ويظمي

* *

لا تخلُّوا الميراثَ يرنو إليها فتعاطيه من هوى مقلتيها
ولدى حسوتين من مرشفيها يُصبح الإرثُ عاشقاً بالرغمِ

* *

هذه مرغريتُ في أَرضِ مصرِ ما ترى أَنت يا «مريشال»[1] تجري
أُصمت اليوم، دعْ زميلك «فكري»[2] ينصر العدل ، فالعدالةُ تَدمي

في ٧ تشرين٢ سنة ١٩٢٣

(١) المحامي الانكليزي المشهور الذي دافع عن مرغريت فهمي وبرأتها المحكمة.

(٢) المحامي والكاتب المصري الشهير.

وطوى الزمان كتابه

أيعيشُ في لبنانَ حرٌّ ومعيشةُ الأحرارِ قهرُ
نفدَ اصطباري في الحيا ةِ ولم يعدْ في الصدرِ صبرُ
ما لي مقرٌّ ثابتٌ في موطني، ما لي مقرُّ
كلٌّ يطارحني الفرا رَ وليس لي منه مفرُّ
لبنانُ، والماءُ الزلا لُ مرقرقٌ لا يستقرُّ
والمرجُ أخضرُ باسمٌ للفجرِ والآكامِ خضْرُ
والبحرُ مرآة له وله من الأزهارِ ثغرُ
ومن الجبالِ الشاهقا تِ له بناءٌ مشمخِرُّ
لبنانُ كان ببأسه أسداً له الأجيالُ ظِفرُ
فإذا دَهتْهُ صواعق الـ أيامِ رُعباً تقشعِرُّ
فعليه مرَّ الأنبيا والأقدمون عليه مرّوا
فسماؤه الوحيُ الصحيـ حُ وتربُهُ مجدٌ وفخرُ
إن فاتَه بأسٌ قديـ مٌ لم يفتْهُ سناً وقدرُ
فعلى مفاخره استمرَّ وليس يبرح يستمرُّ
واليوم قد عبثت به نوبٌ، وجار عليه دهرُ

وطوى الـزمـانُ كـتـابـه هل بعد ذاك الطيّ نشرُ
قـالـوا وقـد بصروا بخدّ ي مـن دمـوعي يستدرُّ
إرحـل لمصرَ فقلت في نـفسي لهم ، لله مصرُ
سأبـيـنُ عـن وطني ففي وطني ثـعـالبُ وهي كـثرُ
والـثـعـلبُ المحتـالُ مـا بـطلت لـه حيـلٌ ومـكـرُ
أنــا لا أزالُ أُحــبُّــهُ فمحبّـة الأوطـانِ نـذرُ
لـكـنَّ لي عـذراً بهجري والضغائنُ فيه عذرُ

في ١٥ أيلول سنة ١٩٢٣

*

خاطرة

أرحْ قلبَك الخفَّاقَ من شقوةِ الهوى فكلُّ هوىً بؤسُ الحياةِ يراوحُهْ
إذا النسر لم يجثمْ ، وقد ظلَّ صاعداً يحلّق في الأجواءِ ، تَبرى جوانحُهْ

الحرّية

كعابٌ أَتتْ في الحُسنِ فخرَ الكواعبِ ... لبـانتُها نيطت بحدٍّ القواضبِ
لها كوكبٌ في كلّ عينٍ منوِّرٌ ... يفاخرُ بالأنوارِ كلّ الكواكبِ
لماذا ولم تطلب سوى الحقّ رائداً ... تحفُّ بها الأضدادُ من كلّ جانبِ
رغبتُ إلى الأقوامِ أن يحتفوا بها ... فلم تنزلِ الأقوامُ عند رغائبي
إذا ابتسمتْ فاللؤلؤُ الصِرفُ ثغرها ... وإمّا بكت فالماسُ تحت الحواجبِ
وفي طرفِ الأجفانِ سُلَّت مضاربٌ ... تقوم على أحداقِها كالمضاربِ
لقد وصمتها زمرة الجهل بالريا ... وأَلوَتْ على أفعالها بالمثالبِ
وما زمرةُ الجهّالِ إلا غياهبٌ ... سيخرقُ نورُ الفجر ليلَ الغياهبِ
بصرتُ بها والدمع فوق خدودِها ... وما دمعُها إلا رموزُ المصائبِ
وقد حملتْ من شدّة الحزن رأسها ... وألقتْ سوادَ الثغرِ فوقَ الترائبِ
فقلتُ لها خلّي الهمومَ فإنها ... لناحية المغلوب لا للغوالبِ
فليسَ نصيرُ الظلم إلا معاقباً ... سيلقى من الأيام شرّ العواقبِ
ألستِ ابنةَ «البستيل» يوم خربتِهِ ... وشيّدتِ برجَ العدلِ فوقَ الخرائبِ
وحكّمتِ سيفَ الحقِّ في عُنقِ الريا ... فسالت دماءُ الجور من كلّ خائبِ
أما أنتِ من رأس الوجود دماغه ... تجيئين أبناء الورى بالعجائبِ

جعلتِ دياناتِ الشعوبِ شقائقاً … وآخيتِ في الأكوانِ كلَّ المذاهبِ
دموعك من جفنِ الليوثِ مذابةٌ … فلا تذرفيها مورداً للثعالبِ
وكوني على رغمِ النوائبِ لبوةً … تسيرُ مع الأشبالِ فوقَ النوائبِ
وأَعطي دروساً للشعوبِ شريفةً … تعلِّمهم كيفَ ارتقاء المناصبِ
وأَنَّ حقوقَ الإجتماعِ خليقة … بأهليَّةٍ في الشخصِ لا بمآربِ
لقد أخرسوا في مرشفيكِ حقيقةً … مهدَّدةً بالويلِ من كلِّ غاضبِ
فلا تخذلي يا أخت كلَّ فضيلةٍ … فليس حسامُ المستبدِّ بقاضبِ
لديكِ من الجندِ العظامِ كتائبٌ … فسيري على جسر الولا بالكتائبِ

* *

عَشقتُكِ طفلاً يوم كنتِ نسائماً … تهزّين · مَهدي كالغلامِ المداعبِ
وقبَّلتُ منكِ الثغرَ مذ كنتِ زهرةً … تقطِّرك الأنداءُ عند المغاربِ
عَشقتُكِ بدراً في السماء منوّراً … يُطلُّ على الدنيا كعينِ مراقبِ
فينظرُ أبناءَ الوجودِ محاطةً … بأسدالِ إظلامٍ كأثوابِ راهبِ
عَشقتُكِ دون البعضِ روحاً تمرَّدت … على كلِّ غدّارٍ محابٍ وكاذبِ
لقد حَطَمَتْ دون الجميعِ قيودها … وسارت بأبطالٍ لها في المواكبِ
عَشقتُكِ دوماً أُمَّةً مستقلةً … ولا شأْنَ في آستقلالها للأجانبِ
عَشقتُكِ فوق الكلِّ شاعرةً لها … مواهبُ تسمو فوق كلِّ المواهبِ
كتبتِ على لوحِ الوجودِ بريشةٍ … لها مهبطُ الإلهامِ أكبر كاتبِ
أَلا حرّروا هذا الورى من عبودةٍ … هي الذئب كم غالَ الورى بالمخالبِ

في ١٤ تموز سنة ١٩٢٣

ابنة الاجيال

لمن يا ترى أشكو بمدمعيَ الهمْلِ وما ليَ في لبنانَ من مخلصٍ خلٍّ
لقد كان لي فضلٌ على كلِّ صاحبٍ فأنكر صحبي كلَّ ما كان من فضلي
أأشكو إلى القانون غدرَ معاشري وقد أَصبح القانونُ يوطأُ بالرِجْلِ
غداة طلبتُ النور أنكرني الملا ولمَّا ادّرعتُ الصدقَ أَنكرني أَهلي
تمّردَ فــردٌ من بلاديَ مــرَّةً وصوَّبَ نحوي نبلتين من العذلِ
لأنّي لا أَمشي على نهجِ جاهلٍ يسيرُ شَموخَ الأنفِ في ظُلمةِ الجهلِ
ولو كان ذا عقلٍ يقارنه الوفا لما حكَّم الجهلَ المغرّرَ بالعقلِ
ولـكن تعامى عن هداهُ لأنّه أُصيب من الدنيا بمسٍّ من الخبْلِ

* *

رأيتُ فتاةً أَمسِ، يربطني بها غرامٌ نما في الصدر مجتمع الشمْلِ
لها في لماها العذبِ بسمةُ طاهرٍ تنيرُ دُجى الظلماءِ من شعرها الجثْلِ
فقلت لها إنّي على الودِّ قائمٌ ولكن بُعادي سوف يخني على الوصْلِ
فإني سأَنأى عن بلادي مسافراً فلستُ أطيقُ الظلمَ في البلدِ المحْلِ
رأَيت هنا رهطاً من الناس آثروا يدَ الظلم أن تعلو وتفتك بالعدلِ

رأيتهم والقيدُ حول رقابهم وأيديهم مشدودة الربط بالغُلِّ
يقودهم من سافل الخلقِ زمرة تحاول نفثَ السمّ فيهم كالصلِّ
تبثُّ من الأَغراضِ فيهم مبادئاً أَشدَّ بجسم الإجتماعِ من السلِّ
تريدُهم عُمياً عن النور ، والدُّجى يخيّمُ فوق الحقّ سدلاً على سدْلِ
وتهزأُ بالشخصِ الذي لم يُصخْ لها ولكن سواد الهدب أبقى من الكحلِ
فقالت كن الحق المحرّرَ في الورى ودع حشراتِ الأرضِ تزحفُ في الوحلِ
فما أنت ممن يثبطُ الهمُّ سعيه وثابر على كشفِ الظلامِ بلا مطلِ
وُجودُك في الدّنيا لتخدمَ مبدءاً فلا تَبْنِهِ إن كنتَ شهماً ، على الرملِ
وأملِ تعاليمَ الحياةِ على الملا فإنَّ يدَ الأجيالِ تكتبُ ما تَملي
ولا تسترقَّ النفسَ من أجل بغيةٍ ودس حشراتِ المستبدّينَ بالنعلِ
فمَن يستبح هضمَ الحقوقِ لغايةٍ فذلك أَولى بالحقارةِ والرذلِ
وأَنشدْ مع الأَحرارِ أُغنيَّةَ العلى فما الحرُّ إلَّا بلبلُ المجدِ والنبلِ
وما الحرُّ إلا ذلك العاملُ الذي تمشّى على هامِ العبودةِ والذلِّ
هو الحرُّ رمزُ الحقّ ، رمزُ فضيلةٍ تسير مع الأجيال في الشرفِ المُعلي
أذابَ على جمرِ الحياةِ دماغَه وصيّره زيتاً ينوّر في السبلِ
تقولُ ٱبنةُ الأجيالِ وهي مطلّةٌ من الهيكلِ الأسمى على عالمِ النسلِ
تُرى مَن رأى قَبلي الوجود مهدّماً ومَن ذا رأَى الأحرارَ بانيةً قَبلي
هنا سكنتْ تلك الفتاةُ وحدَّقت إلى الملإِ الأعلى بأعينها النُجلِ
ومن ثغرها نورُ المساواة مشرقٌ يفسِّر أَنَّ الملك في خلقِهِ مثلي
وحريّة قد أشرقت من جبينها ورمزُ إخاءٍ والسلام على الكُلِّ

في ١ تموز سنة ١٩٢٣

الفتاة الغادرة

مرفوعة الى شباب هذا العصر

حاذِرِ الحُبَّ إنَّ في الحُبِّ شرًّا ... فهو نار في القلبِ تصهرُ صهْرا
إن يكن في الرجال قلبٌ غدور ... فقلوبُ النساءِ أَقربُ غدرا

* *

وفتاةٍ أعارها البدرُ نوراً ... فأضاءت بين الكواكبِ بدرا
تغمز الكُحل في غضاضة جَفْنَيْـ ... ـها دلالاً فيرجع الكحلُ سحرا
رام منها فتى مراماً شريفاً ... كلُّ ما شاءه الفتى كان طُهرا
والهوى شارد البصائر أعمى ... ليس يدري بما به العقل أَدرى
قد أَحبَّ الفتيُّ فيها جمالاً ... وأَحبَّت فيه ثراءً وقدْرا
ما مضى بعضُ أَشهُرِ الحُبِّ حتى ... مات عن ثروةٍ أبوه فأثرى
أُمُّهُ، وهي في العفافِ مثالٌ، ... ردعته عنها فظلَّ مُصرّا
نصحَته فما أراد انتصاحاً ... وغدا يبذر الدنانيرَ بَذرا
قال يا أُمِّ، أيُّ شيءٍ معيبٌ ... في غرامي، وأَيُّ شيءٍ أضرّا
أنا أهوى فيها فؤاداً أبرّاً ... وهي تهوى فيَّ الفؤاد الأبرّا

فأجابته لا ألومك يا آبني فربيع الشباب بالحُبِّ أَحرى
غير أنّ الفتاةَ لا خيرَ فيها فجمالُ الأخلاقِ منها تعرَّى
مِلْ إلى غيرِها إذا رمتَ تهوى وآختبرْ قبل أن تَهوّرَ خُبرا
فالصبياتُ قد تكنَّ عهارى وأزاهيرُ قد تكنَّ وِتبرا
قال: تلك الفتاة غرس فؤادي فدعيها في الحبِّ تُزهر زهرا
إنّها لي ولن تكونَ لغيري وعليَّ العُقبى إذا جئتُ وِزرا

* *

هذه قطعة من الماسِ يا هِنـ ـدُ وذي قطعةٌ من الماسِ أُخرى
زيِّني صدرَكِ الجميلَ وسُرّي فغداً تنظرينَ في الجيد عشرا
وآرتمى في ذراعها مستهاماً فتمنَّى هناك لو نام شهرا
فهو سكرانُ من غرامٍ شريف وهي بالجوهرِ المشعشعِ سَكرى
هندُ، إنَّ الربيعَ في الحقلِ بَسّا مُ وعَرف الزهورِ يُنشَر نَشرا
فآنشقيه، ففيه عطر زكيٌّ وآسكبيه على إهابيَ عطرا
كلّ ما في الحياة يرنو إلينا بحنوٍّ، عساه أَن يستمرّا
ففؤادي قفرٌ بغير هيامي وحياتي بغيرِ حُبِّيَ قفرا
هندُ، يا هندُ، أَنشدي ليَ أيضاً وآنظري موكبَ الدجى كيف مرّا
وأَفاقَ الفجرُ الجميلُ على صَو تكِ يُلقي على غراميَ فجرا

* *

مرّ عام والحبّ يزدادُ يوماً بعدَ يومٍ، والمالُ يزداد هدرا
وعدا الفقر في طريق هواه وأتاه الهوى فصادف فقرا

عند هذا تبدّلت حالُ هندٍ ... وٱستمرّت إليه تنظر شزرا
لو أَتاها وبين أَضلعه العَطـ ... ـفُ للاقى في صدرها الصلبِ صخرا
جاءَها في مساءِ يومٍ ، ولكنْ ... قبلَ أَن يدخلَ ٱختشى وٱقشعرا
ذاك أنّ الفتى تسرَّق أمراً ... من حديثٍ قد دار في البيت سرَّا
قالت الأُم : أنتِ وِقرٌ ثقيلٌ ... وبقاءُ الحبيب أَثقلُ وقرا
فمن الجهلِ بعد أَن سيمَ خسفاً ... أن يكونَ الفتى لأمِّكِ صِهرا
فالجنينُ الّذي دفنّاهُ بالأمسِ ... ٱجعليه في سرِّ صدرِك قبرا
فٱحذري أن يقالَ إنك عار ... واحذَري أن يقالَ إنك عُرّى
دخل الصبُّ، غيرَ أنَّ شراراً ... كان في مُقلتَيه يسعرُ سعرا
فٱعترى الأُمَّ عند مرآه ذعرٌ ... ورأَى في الفتاةِ خوفاً وذُعرا
قال عذراً يا هندُ إنّ فؤآدي ... أَخطأَ السيرَ معْكِ ، يا هندُ عذرا
أَنا لم أهوَ فيكِ عهراً لأني ... طاهرُ الذّيلِ لستُ أُدركُ عَهْرا
وٱنثنى هائماً على نفسه الثكـ ... ـلى فلم يستفقْ ولم يستقرّا
وسرى السقم بعد ذلك فيه ... ومشى في العظامِ ينخر نخرا

* *

ولدي ، ليس عندَنا اليومَ فِطْرٌ ... ومنَ الأَمسِ لم نَذُقْ قطُّ فِطْرا
فالخوابي فرغنَ من كلّ شيءٍ ... ومنَ الخبز لا نُصادفُ نـزْرا
أُتركيني يا أُمِّ... لا ترعجيني ... بحديثٍ قد شاخَ حتى ٱسبطرَّا
فـأنـا كـافِـرٌ وسوف يـراني ... كلُّ مَن مرَّ بي أُزوِّدُ كفرا
ومضى والظّلامُ يسدلُ ستراً ... فوقه ، والعذابُ يسدلُ سترا
ضعضعته ذِكرى أَمرَّت عليه ... جَنْحَها ، وٱستفاقَ ينفثُ جمرا

فرأى نفسَهُ أمام فتاةٍ أنشبَت من غرامِها فيه ظِفرا

فأنتسى ما مضى عليه وأحيا حُبّه عاملُ الجمالِ ، فخرًّا

حدّقتْ فيه فترةً فتراءى في لماهُ أمامها طيفُ ذكرى

فتناست وحوَّلت عنه جفناً كان بالأَمس ينثرُ الحُبَّ نَثرا

هندُ ، إني عطشان ، جرعةُ ماءٍ فشفاهي الصفراءُ ، يا هندُ ، حرَّى

فمشى في جبينها شبحُ الغدر وفي عينها آستوى وأكفهرَّا

وأَتتهُ بكأسِ خمرٍ وقالت : إشرَبِ الكأسَ إنّ في الكأسِ خَمرا

ثم قالت في نفسها : إنّ سُمِّي سوف يُبقي سرّي بصدرِكَ دهرا

في ١٥ شباط ١٩٢٥

في صائدة سمك حسناء

أتُرى جاءَت لكي تصطادَ في البحر السمكْ
أم أتَتْ تصطادُ قلبي بلحاظٍ كالشبَكْ

* *

إيهِ يا صائدةَ الأسماك، لستُ السمكهْ
حوّلي الأَشراكَ عن قلبي، وكفِّي الحركَهْ
إنَّ قلبي عالقٌ في غير هذي الشبكهْ

* *

عندما اصطادَتْ فؤادي غادتي، ما رحمتْهُ
بل رَمَتهُ فوق كانون هواها وشوَتْهُ
وانثنَتْ «تلحس» سنَّارتَها مذ أَكلتْهُ

* *

نحن صرنا في زمانٍ لا نرى فيه ملاذا!
سمكُ البحر كقلبي ليسَ مَن قال لماذا
مثلما تؤكل هذي تأكلُ الغاداتُ هذا

* *

إيهِ يا صائدةَ الأسماك، لستُ السمكهْ
حوِّلي الأَشراك عن قلبي وكفِّي الحرَكَهْ
إنَّ قلبي عالقٌ في غير هذي الشبكهْ

في ١٧ أيار سنة ١٩٢٣

أودّكِ ميتة

أَودُّكِ جـاحـظَـةَ المقـلـتيـنِ   وطيفُ الحِمامِ على كلِّ خَدْ
أودُّكِ غـائبـةً في ضريـحٍ   تـنـاميـنَ في تـربـهِ للأَبدْ
ولا تعذليني على ما وددتُ   ففي ذمّةِ الحُبِّ ما قد أَودّْ

* *

أودُّكِ في خاطر القبر سرّاً   يـردّدُ ذكراكِ في مسـمعي
فيهربُ منكِ العذولُ وآتي   أُبـلِّـلُ خدّيكِ مـن أدمعي
وأُنـزع مـن جانبيكِ الفؤادَ   وأُخـبـئُـهُ في دُجى أَضلُعي

* *

فأَبلغُ إذ ذاكَ قلبَ الحبيبِ   وأُنــعشُـهُ بـلَـظى زفـرتي
وأحـمـلُ قـيشارتي لـلنشيدِ   وأُلقي على الحُبِّ أُغـنيَّـتي
وما من سمير يصيخُ للحني   سوى البدر في الليل والنجمةِ

* *

أَودُّكِ مـدفـونـةً في جـنـانٍ   تُضـمِّـخُـهـا نـفحاتُ الزهورْ

فيلعبُ بالقربِ منكِ النسيمُ　　وتنشدُ بالقربِ منكِ الطيورْ
ويُلوي التراب يقبّل فاك　　فكم في الترابِ ثوى من ثغورْ

* *

ولكن، ولكن أغارُ عليكِ　　من التربِ إنْ ودَّ أَن يَلثِما
فلا أَرتضي غير لثمك وحدي　　حرامٌ لغيريَ ذاك اللمى
فمن أَجلِه قد ذرفتُ الدموعَ　　ومن أجلِه قد هرقتُ الدما

* *

لماكِ، لماكِ من الجلنّار　　وفيهِ الهوى قام بالبيِّناتْ
لعلّ الترابَ يضمُّ شفاهاً　　تمنَّت تقبّلُهُ في الحياة
فما بلغت حينذاك مراماً　　فتبلغ ما تشتهي في المماتْ

* *

لهذا أَودُّكِ فوق الوجود　　وفوق عناصرِ هذا الفلكْ
وروحُكِ هائمةٌ كالسراب　　تضمُّ ملاكاً أَتى في الحلكْ
فأغتنم اللثمَ منها لأَني　　أكونُ ولا ريبَ ذاك الملكْ

* *

أَودُّكِ في قبضةِ الموت صرعى　　لأَنَّ حياتَكِ تقضي عليّ
وموتُكِ يا ميُّ عذبٌ لديَّ　　فبالرغم يلقيكِ بين يديّ
وإذا ذاك أقضي سعيداً لأني　　أكون وصلتُ إلى قلبِ ميّ

في ٢٧ ت[1] سنة ١٩٢٢

الو! الو!

بين الحُبِّ وقلبي

الحُبّ :

رنْ رنْ ! ! أَلو ! !

مركزَ القلب ، قلب ذاكَ الوجيعِ
ألا يـزالُ مـقـيـماً ما بين تلك الضلوعِ ؟

* *

سكوت ! ...

رنْ رنْ ! ! أَلو ! !

لي حديثٌ مع الفؤادِ طويلُ
رحلتُ عنـه زمـاناً حتى بلاني الرحيلُ
وجئتُ أَشكـو إليه سقمي وذرفَ دموعي

قلبي :

رنْ رنْ ! ! أَلو ! !

«ذاك صوتٌ سمعته من قديمِ

تُرى أصوتُ عذابي تـرودُ فيـه همومي
أَم تلك أسرابُ حُبّي قد آذنت بالرجوعِ »؟

* *

ماذا تريد ومَن أَنتَ يـا أَليفَ البُكـاءِ
أَمـا آكتفيتُ شقاءً حـتى تزيدَ شقائي؟
أزعجتَ حلميَ لمَّا أفقتَني من هجوعي

* *

لـقـد شعرتُ بـأني أمسُّ ذكرى قديمهْ
ذكرى الشجون وكانت في جـانـبيَّ مقيمـهْ
في كلامِك رمـــزٌ لمحنتي وولـوعي!

الحُبّ :

أنـا سمير الـعـذارى وقد نكثت عهودي
أنا هزارٌ وقلبُ الـ شباب يهوى نشيدي
أنـا نجوم الـلـيـالي أنـا زهـور الـربيعِ

* *

أنـــا ربـابُ المحبين في يـــدَيْ داودِ
سرٌّ خفيٌّ ثوى في ضـمير هذا الوجودِ
ومـعـبدٌ للهوى أنجــــمُ الظلامِ شموعي

* *

فمنـذ تهتُ وحيداً وقـد تركتك وحدكْ
ذقتُ المرارةَ صرفـاً ومـا تحمَّلتُ بُعدكْ
والآن عـدتُ لَعلّي أرى جمال ربـوعي

* *

تـعالَ نشـدو أَمـام الهوى نشـيدَ الحياةِ
تعالَ نُشعلُ زيتَ الغرامِ بالزفراتِ
تـعالَ نسقي أزاهيـــــــيرَ حبّنا بالدموعِ ! !

* *

تعالَ أَوْ لا فدعني أمصُّ عذبَ رضابكْ
يـكادُ عـهدُ شبابي يمضي كعهدِ شبابِكْ
ولا يـزالُ رضيعـاً فيا له من رضيعِ !

* *

تـعال نفغرُ أجرا حَنـا أمـامَ السـماء
تـعالَ نشربُ كاسِ الضـنـا مع التعساءِ
إنَّ العـذابَ حيـاةُ العظيمِ ، مجدُ الرفيعِ

* *

تـعال نـعزفُ أنغا مَنا على الأَوتـارِ
ولا نـكـنْ كسوانـا خُرْساً عن الأشعارِ
فـجذوةُ الشعرِ دوماً تـعيشُ في الموجوعِ

* *

قلبي :

علامَ أَشعر بالجوع   يأكلُ اللحمَ منّي
ولمْ أَرَ العطفَ يدنو   من بعد ذاك التجنّي؟
رحماكَ يا طيف حبّي   لقد بلانيَ جوعي

* *

أسرعْ إليّ وبادرْ   بالله أَسرعْ إليّا
جارت دقائقُ نومي   وقد توالَت عليّا
فليسَ لي من شفيقٍ   وليس لي من شفيعِ

* *

أَمسيتُ بعدَكَ يا حُـ   ـبُّ بارداً كالقبورِ
تحيطُ بي حشراتٌ   تدبُّ في ديجوري
وما هنالك إلاَّ   رموزُ شيءٍ فظيعِ

* *

تعالَ يا نور ماضيَّ   يا حياة الفؤادِ
وآسكبْ ضياءَكَ صِرفاً   على شديد سوادي!...
حبّي رجعتُ إليه   وما أُحيلى رجوعي

في ٢٧ شباط سنة ١٩٢٣

بين الماسونية والاكليريكية

لا يشقُّنا أربُ نحن كلنا عصبُ
في نفوسنا خُلُقٌ للوئامِ ينتسبُ
في قلوبنا هممٌ في صدورنا رَحَبُ
في دمائنا شرَفٌ في عروقِنا حسبُ
في سيوفِنا شررٌ في يراعِنا أَدبُ
نحن أُمَّةٌ غضبت أَن يسوسَها الغضبُ
فالسلام رائدها لا الشقاقُ والعطبُ
ماؤُها يمازجُه في مروجها الضربُ
كم فوارسٍ أُسُدٍ من صفائِهِ شربوا
لا تغرَّكُم رتبٌ حقلُكم هو الرتبُ
فآنفضوا ثراه ففي ذلك الثرى ذهبُ
كم جلالةٍ رقدَتْ ملءَ عينِها لهبُ
في مدافنٍ رصدَت كنزَ مجدِها الحقبُ
إن للخلودِ هوىً في البلادِ ينسكبُ
فآحذروا انقسامَكم فالبلاد تضطربُ

في ١٠ أيار سنة ١٩٢٥

وُرب كبير بلبنانه

لقد بلغتْ بهم الحدَّهْ فمن أَيّنا نطلب النجدهْ
أَلستَ تراهم أُولي غضبةٍ يعيشون بالويلِ في البلدهْ
فكلٌّ يرى نفسَه سيِّداً وكلٌّ يرى نفسه عمدهْ
إذا ما تربَّعَ في جهلِه على مقعدٍ خالهُ سُدّهْ
كريمُهُم كاللئيمِ بهمْ فما فاضلٌ سيّدٌ عبْدَهْ
أَضاعوا الرشادَ وما نفعُ مَن أَضاعَ بثورتِهِ رُشدَهْ
يقولون نحن عمادُ البلاد وما هيأوا للوفا عُدّهْ
كأنَّ البلادَ لدى حاجةٍ إلى كذبٍ وإلى إدّهْ
ورُبَّ كبيرٍ بلبنانِهِ يعفِّرُ في حمأةٍ خدّهْ
ترى عندَهُ خَدماً وقصوراً ولست ترى شرفاً عندَهْ
يَتيه افتخاراً بأَجدادِهِ كأَنَّ الورى جهلوا جَدَّهْ
يُحاولُ إخفاءَ ما ينطوي عليه فتفضَحُهُ السجْدَهْ
ذليلٌ وفي بُرْدِهِ الكبرياءُ فيا ليتَ ما لبِسَ البُردَهْ
ويا ليتَ مَن وَلدتْ طرَحتْهُ ولمَّا تُدنِّسْ به مَهدَهْ
ولكنَّها قِردةٌ ولدَتْهُ أَلا تَلِدُ القِرَدَ القِرْدَهْ

* *

بني وطني، نحن في حاجةٍ إلى نُصَـــراءَ أُولي شدَّهْ
يضحُّونَ بالأنفُسِ الغالياتِ لأَجلِ التضامن والوُحْدَهْ
وفي سُبُلِ الحقّ يأتلفون ويعتنقون الحِجى وحْدَهْ
إذا أُشكِلَتْ عقدةٌ في البلادِ خفُّوا لحلِّ ذهِ العِقْدَهْ
إلى مَ تظلون في رقدةٍ ولا تُبْعثونَ من الرَقْدَهْ
إذا قامَ بينكُم مُصلِحٌ يقومُ جميعُكُم ضِدَّهْ
فلا تدَعوا ظُفُرَ المستبدِّ يحكُّ للبنانِكُم جِلْدَهْ
وصيحوا به رُدَّ ما قد سرقتَ لنا خُلُقاً رُدَّهْ
هدمتَ لنا صَرحَ أَخلاقِنا فأَينَ تبيتُ تُرى بَعْدَهْ
وشيَّدتَ معبدَ إفكٍ فهُدَّ أَساسَ مشيَّدِهِ هُدَّهْ
لقد رثَّ ثوبٌ خلعتَ علينا ونحن نميلُ إلى الجِدَّهْ
فعهدُ الغموضِ مضى وتصدَّى له عهدُنا ناقضاً عهْدَهْ
لقد حان أن يُصلتَ النورُ حداً كما آستلّ سيفُ الدُجى حدَّهْ
لقد كاد يصدأُ في غِمدِهِ حُسامٌ يرى قبرَهُ غمدَهْ
هديتُ رفاقي إلى موردي فضلُّوا وما طلبوا وِرْدَهْ
وما مورِدي العذبُ إلا السلامُ يُذيبُ لشارِبه كِبْدَهْ
رفاقي وإن فرَّقتنا الخطوبُ سيحفظُ قلبي لكم حَمدَهْ
سيرشقُكم بالأزاهرِ مهما نكَرتُم على وَدّه وُدَّهْ
سيذكرُكُم بالجميلِ إذا ما نأى، وأَراد القضا بُعْدَهْ
سيصفحُ عن كلِّ أَشواكِكُم فشوكَتُكم عندهُ وَردَهْ

يا سمير الأبراج

إيهِ «برناسُ» هيكلَ الشعراءِ ومصلّى الكهّان والأنبياءِ
لا دهاكَ الفناء بعد بقاءِ خالدٌ أنتَ في ضميرِ البقاءِ
لا رأى الدهرُ غارَ رأسِكَ يذوي بعد هذا النضور ، هذا البهاءِ
إنَّ غاراً على ذراكَ لمجدٌ خلّدته نوابغُ القدماءِ
حكمةٌ أنت في الوجودِ ونورٌ لعقولِ الجهّالِ والحكماءِ
سكبَ الفجرُ في مراشِفِها الـ ـخمرِ رحيقَ الخلودِ للشعراءِ
إيه برناس ، والعرائسُ تشدو فيك أُغنيَّةَ الهوى والرجاءِ
سكبَ الفجرُ في مراشِفِها الـ ـخمرِ رحيقَ الخلودِ للشعراءِ

* *

هيكلَ الفنِّ والجمالِ سلامٌ وسلام يا هيكلَ البؤساءِ
سجد المجدُ تحت قوسك سكرا نَ سجودَ الفقير للأغنياءِ
قل لأبنائكَ الذين اَستمدّوا شعلةَ الوحي منك كالكهرباءِ
إنما البؤسُ في تُرابي ثراءٌ فَرِدوا المجدَ من بحارِ ثرائي

القصيدة التي أُنشدت في الحفلة التكريميّة التي أقامتها جونيه لخليل مطران.

ودَعوا الغيرَ يبحثون طويلاً   في وحُولِ الغنى عن الإثراءِ
فلكم من لآلئُ النور كنزٌ   فآنثروهُ على طريقِ الإباءِ
إنما الشاعر الحقيقيّ قلبٌ   ذابَ حُبّاً على شُعاعِ الفِداءِ
هو روح من السماءِ آستمدَّتْ   حكمَةَ الفنّ من دماغ السَماءِ
هو بانٍ يودّ تقويض ركنٍ   شيَّدته مظالمُ الزعماءِ
وبناءُ العلى على ذلك الركـ   ـنِ وتلك الأنقاضِ أقوى بناء

* *

هو قيثارةُ الشعور تناجي   بنشيد الأوتارِ سرَّ الضياءِ
فالضياءُ الأكيد في مقلة الشا   عرِ لا في النجومِ أو في ذُكاءِ
هو نسرٌ له جناحا إلهٍ   طائرٌ في مدينةِ التعساءِ
ناثرٌ دمعة العزاء على الأر   ضِ لتشفي تعاسةَ الضعفاءِ
هو روح «الخليل» في النجمة الزه   راء تمتصّ عنصر الزهراءِ
لتروّي به الفنون وتحيي   ميّت الشعر في عروقِ الرُواءِ

* *

أَي خليلَ البلادِ وَفَّيْتَ قِسطاً   من فروضٍ عليك للعلياءِ
فآشدُدِ العزمَ للنجاء وأَكمِلْ   ذلك الشوط يا ربيبَ النجاءِ
ما ترى في البلاد بعد اغترابٍ   أَسوى البؤسِ والبلى والشقاءِ
إنَّ صدراً حنوتَ طفلاً عليه   لهو صدرٌ مهشَّمُ الأَعضاءِ
كلّ ما في البلادِ أَمسى غريباً   شوَّهته مناكلُ الغرباءِ
فبلبنان أيمُ المجدِ ثكلى   وهي تبكي مصيبةَ الأبناءِ

هي تبكي الأُلى أَبادهمُ الظلـ ـمُ ووارتْهُم يدُ البَغضاءِ

برئت منهم المظالمُ لكن أَنكرَت أنهم من الأبرياءِ

شهداءُ العلى قضت وبقينا في حياةٍ كثيرةِ الأَدواءِ

إن أَطلَّتْ من كوَّةِ الموتِ تبصرْ نزَواتِ الأرواحِ في الأحياءِ

يا قبوراً تربَّعَ الوحيُ فيها ليسَ مَنْ فيكِ صائراً للفناءِ

كلّ جيلٍ يجثو أَمامك بالمجد ويرمي عليكِ زهرَ البقاءِ

* *

يا سمير الأبراج في منتهى الأجْـ ـواءِ، ماذا في منتهى الأجواءِ

وعذارى الفضاءِ ماذا أَسرَّتْ لكَ لمَّا أَضفتَها في الفضاءِ

كلّ ليلٍ تزورها فتُناجيـ ـكَ طويلاً في خِدرِها المتنائي

كيف «فرجيل» والمعرّي و«هوميروس» في ذلك المكان الهوائي

* *

طربت بعلبكُّ بالولد البَـ ـرِّ وبشَّت له ثغورُ الظِباءِ

وأطلَّت من الهياكلِ سكرى نظراتُ الكهَّانِ والأنبياءِ

وجثا الشعرُ للصّلاةِ جثوّ الـ ـمؤمنين العُفاة والأمناءِ

يا نديم الرؤى عليك سلامٌ وسلامٌ يا سيّد الشعراءِ

في ٢٠ تموز سنة ١٩٢٤

المصدورة

وضع الكاتب الإفرنسي «جول لوماتر» هذه الرواية نثراً، فأخذ الشاعر موضوعها وتصرّف بها تصرّفاً مطلقاً. فمشاهد الفتاة المريضة أمام الرؤيا ووصفها المنطبق على حالتها لا أثر لها في الأصل الإفرنسي.

— ١ —

يَمْنَ تلك الرُّبى وذاك الوردِ　　فوق حصباءِ شاطئٍ لازوردي
تحت أفقٍ كالخدِّ أو كالفرندِ　　أملسٍ عطَّرته نفحةُ رندِ
فسرى الطيبُ في الفضاءِ زكيًّا

كـــــان داودُ دائماً يتردَّدْ　　وعلى صخرةٍ يهيّئُ مقعَدْ
فإذا مالتِ الغصونُ تنهَّدْ　　وانجلى عنه حزنهُ وتبدَّدْ
وتناسى عهد الشقاء القصيَّا

كان حلوَ الحديثِ عذبَ الطباعِ　　شاعراً مُصغياً لكلّ التياعِ
إن رأى أَدمعاً بَكَتْ لدواعِ　　ذرفَ الدمعَ من عيونِ اليراعِ
راسماً مشهدَ الحياةِ شقيًّا

كلَّما كان جالساً يتأمَّلْ　　في السواقي ذاتِ الزلالِ المسلسلْ

كيف تجري بدون أن تتمهَّلْ ثم تنصبُّ جدولاً إِثرَ جدولْ
بين وردِ الرُبى فينمو نديَّا

كـان يمضي أمـامه امرأتانِ كـرُخـامِ القبورِ صامتتانِ
تنظرانِ الربيعَ بعضَ ثوانِ ووراءَ الأدغـالِ تختـفـيـانِ
كخيالينِ من سعادٍ وميَّا

كَهْلَةٌ قد تُناهِزُ الخمسينا وفـتـاةٌ لا تبلغُ العشرينا
حملَتْ في الضلوعِ داءً دفينا فهي تسلو الآلامَ حيناً، وحينا
تُبصـرُ الموتَ دانيـاً يتهيَّا

مُقلتاها ما عادتا مُقلتَيها فـهما مَـيْـتـتـانِ في جَفنَيها
ويداها في الداءِ غيرُ يدَيها ! أيها السِلُّ لِمْ جنيتَ عليها
أَوَلا ترحم الفؤادَ الفتيَّا

— ٢ —

بعدَ شهرٍ كأنما هو عامٌ نَسَجَت فيه بُردَها الآلامُ
شاءَ داودُ أن يكونَ سلامٌ وآبتسامٌ ما بينهم وكلامُ
وحديثٌ عن الفتاةِ، فحيَّا

ودَرى بعدَ ذاك أَنَّ أباها مات بالداء نفسِهِ وأَخاها
فبكى راثياً جمالَ صِباها وآبتساماً مودِّعاً في لماها
وشباباً يموت شيئاً فشيَّا

أُمها وهي أَثكلُ الأمَّهاتِ بعدَ تلك المشاهدِ الماضياتِ

لم تكنْ تستطيعُ بالبسماتِ رَدْعَ مصدورة عن الحسراتِ
فٱبتسامُ الحزينِ كان عصيًّا

طالما ذِكْرياتُ تلك المشاهدْ عاوَدَتْها ، والليلُ سكرانُ ساهدْ
يوم كانت تبكي أَمامَ الوسائدْ حيث ماتَ الوليدُ بعد الوالِدْ
تَارِكينَ الداءَ المخيفَ الخفيًّا

ربِّ قالت ، يا ربَّ هذا الوجودِ ورجاءَ الشقيِّ والمنكودِ
قد كفاني في شقوتي وجُهودي موتُ زوجي الفتى وموت وحيدي
فٱشفِ بنتي وكنْ شفيقاً عليًّا

— ٣ —

ذاتُ حُسنٍ كالفجرِ في نيسانِ لامَسَتْهُ أَناملُ الأَحزانِ
وبياضٍ كالثلجِ في لبنانِ وحديثٍ يُذيبُ في الآذانِ
نغماً للحياةِ موسيقيًّا

مقلتاها رمزُ الفؤادِ الوجيعِ ولماها ٱستعارَ لونَ الشموعِ
هكذا هندُ ، وهي بنت الدموعِ كان يبدو شبابُها في الربيعِ
إنَّ قلبَ الربيعِ كان عتيًّا

ذاتَ يومٍ وقد تدانى الغيابُ جلست هندُ في يدَيها كتابُ
قرأَت فترةً ، وجاء الضبابُ فمضى فيه جفنها المرتابُ
تارةً ساهياً وطوراً بكيًّا

هندُ لِمْ أنت تنظرينَ الضَبابا بعيونٍ ذابَت وقلبٍ ذابا

أفهذي رؤىً تُريكِ الشبابا يتلاشى ويستحيل ترابا
قبلَ أن يبلغَ الحياةَ قويًّا

— ٤ —

جاءَ هنداً داودُ بعد الظهورِ فرآها والأمَّ بين الزهورِ
في يدَيها قماشةٌ من حريرِ طرَّزت بعضَها بفنٍّ خبيرِ
فبدا الفنُّ في يَدَي هند حيًّا
قال هذي لِمَن «ببعضِ ابتسامٍ» إنها مثلُ برنسٍ لغلامِ
فأجابَت بزفرةِ الآلامِ : لفتاةٍ تزوَّجت منذُ عامِ
فهنيئاً لها الزواج هنيًّا!
فأتاها عند الضحى فرآها وكتابٌ يهتزُّ في يمناها
فإذا عينُها تعيرُ انتباها صفحةً «ودَّ لو يعي فحواها»
وقفت عندها الفتاةُ مليًّا
فمضى خلفَ ظهرِها بتأنٍّ فرآها تتلو ببأسٍ وحزنِ
بيتَ شعرٍ قد قاله منذُ قرنِ شاعرٌ وهو: يا أبي لا تُمتْني
قبلَ أن أعرفَ الهوى العُذريَّا

— ٥ —

أَبصرتْ هندُ وهي تَفكرُ بالغدْ من خلالِ الأحلامِ قبراً أَسودْ
رقَدَتْ فيه غادةٌ ما تنهَّدْ صدرُها في الحياةِ حتى توسَّدْ
تُربةً ضمَّت الظلامَ الدجيًّا

وتـراءَتْ لها عـروسُ الـقـبـرِ تـنـحـني فـوقَ وجـهِـها المصفرِّ
في يَـديها بـاقاتُ وردٍ وزَهرٍ نُثِرتْ فـوقَ رأسِهـا والصـدرِ
وأَفـاحَت أَريـجَـهـا الـعـطـريَّا

وتـراءَت لها الـبـناتُ العذارى راقصـاتٍ بحبِّـهـنَّ سكـارى
يـتـبـارينَ مـا الشبابُ تبارى بجمالٍ يهيِّجُ الأَوتـارا
في يَدَيْ عازفٍ جميلِ المحيَّا

وفـتـىً نـاظرٌ بعطـفٍ إليها رابَه السقمُ في كلا خدَّيها
خائفٌ من دمٍ على شفتيها قـاءَهُ ما جنى على رئتَيـهـا
وسُعـالٌ بـه الـردى يـتـقـيَّا

وتَـراءى لها خـيـالٌ مخيفُ بين أَهدابِ مُقلَتَيها يطوفُ
في يـديـه مشاعلٌ وسُجوفُ مثَّلت دورَها عليها الصروفُ
فتراءى لها الـرّدى عـلـنـيَّـا

واَستفاقت لدى ارتعاشٍ عنيفِ دبَّهُ الخوفُ في صباها الضعيفِ
فتلاشَتْ كالحُلمِ رؤيا الطيوفِ وتـوارَت أَمامَ دمعٍ ذريـفِ
كـان سحـراً في عينيها بابليَّا

ربِّ، قالت أَلم تَهبْني الميولا وحديثاً عذباً ووجهاً جميلا
فـلماذا أرى الشبـابَ بخيلا لا يـرى وجنتيَّ حتى يميلا
عن جمالٍ يذوبُ في وجنتيَّا

يـا إلهي، ألستُ يوماً أُلاقي عـاشقـاً بين مـعشـرِ العشّاقِ
راحـمـاً في فـؤآدي المشتاقِ غيرَ دمعٍ يجولُ في آمـاقي
وعـذاب يُضيءُ في مـقـلـتـيَّا

— ٦ —

يا ٱبنةَ الدّاءِ يا ٱبنةَ الأَرماسِ   يا خيالاً يسيرُ في دَيماسِ
إقتصِدْ ما استطعتَ في الأَنفاسِ   إنَّ رسمَ الآلامِ والأَوجاسِ

عن قريبٍ سيمَّحي سريًّا!

أنتَ لم تدرِ كيف، شيئاً فشيًّا   يقضمُ الموتُ جسمَكَ الملكيًّا
يا ملاكاً أَضلَّكَ الدهرُ غيًّا   في زمان ما كان قطُّ وفيًّا

فٱحيَ فينا ولا تكن منسيًّا

سوف تمضي إلى ديار البقاءِ   بعد تلك الأسقام والأدواءِ
طاهراً كالزنابقِ البيضاءِ   حاملاً مشْعَلَ الأَسى والبُكاءِ

في فؤادٍ قضى الحياةَ نقيًّا

سوفَ يُغمى عليك في ذا الوجودِ   بعدَ حينٍ، إغماءَ روحِ الورودِ
تاركاً في فؤاد كلِّ وَدودِ   راءَ في وجهك ٱصفرارَ الخدودِ

ذكرياتٍ شفَّافةً كالحميَّا

— ٧ —

قالَ داودُ ذات يومٍ لنفسِهْ   وهو يجلو بالفكر غامضَ درسِهْ
أَيَّ فضلٍ يُبقي الفتى بعد رمسهْ   إنْ أَبى رحمةَ التَّعيسِ بتعسِهْ

وٱنعِطافاً على الشقيِّ سخيًّا

ليس أَنقى من زهرةِ الأحسانِ   فوقَ صدرِ المجاهد المتفاني
إن أكُن زوجَ غادةِ الأَحزانِ   أَفليسَ الإنسانُ للإنسانِ

أَفما كنتُ في الحياةِ وفيًّا

سوفَ تحيا بالحُبِّ تلك الفتاةُ   هكذا قد أَرادتِ التضحياتُ
فليُضيءُ بين مقلتيها المماتُ   فالمنايا عند الهوى هيِّناتُ
فلتذُقْ ذلك الهوى الكوثريَّا

ومضى الشاعرُ الطويلُ الأناةِ   باسطاً أَمرَهُ لأُمِّ الفتاةِ
قائلاً: إنَّ مهجتي وحياتي   وجهادي وكلّ أُمنيَّاتي
تتمنَّى لهندَ عيشاً رخيَّا

سوف تحيا هندُ السنين الطِوالا   ليس داءُ الفتاةِ داءً عضالا
فثقي بي وأنعِشي الآمالا   أنا مثرٍ فلستُ أَطلبُ مالا
بل جمالاً عذباً وخُلقاً أبيَّا

سوفَ تشفى من دائها بعدَ عامِ   سوف تحيا بغبطَةٍ وسلامِ
وثقي أَنَّ هندَ ذاتَ السقامِ   ستراني أَخاً معَ الأيامِ
لا عَشيقاً لجسمها وحشيَّا

فبكَت أُمُّها لهذا الكلامِ   بعيونٍ تشعُّ بالأحلامِ
ولدُنْ أَيقنَت بصدقِ المرامِ   شكَرَتهُ بمدمعٍ بسَّامِ
كان بالحزنِ والنُواحِ حريَّا

— ٨ —

هندُ، إني أَهواكِ، أَهوى جمالا   يرشقُ الحُبَّ من لماكِ نبالا
قال هذا، وقد رأى الآمالا   راسماتٍ في مقلتَيها خيالا
طاهراً في جماله ملكيَّا

فأَجابَتْ وقد عراها السكوتُ   بعضَ حينٍ، كأَنه هاروتُ

كيف تهوى، ألا تراني عييتُ، مقلتي تنطفي، وقلبي يموتُ
ويجولُ الترابُ في خديّا؟
قال لا بل تَحْيَيْنَ عمراً طروبا وترينَ الحياةَ عيشاً خصيبا
فأنا عاقلٌ، سألتُ الطبيبا قال لي: هندُ سوف تشفى قريبا
وترى لونَ خدِّها الورديّا

— ٩ —

مرَّ بالعاشِقَيْنِ أسبوعانِ هيّئا فيهما جهازَ القرانِ
والربيعُ الجميلُ في نيسانِ كان يزهو بالفُلِّ والريحانِ
ساكباً ذلك الندى اللؤلؤيّا
بحريرٍ مُزركَشٍ ومخرَّمْ وطِرازٍ على النوافذِ مُعلمْ
هكذا غرفةُ الزفافِ الأقتمْ برزتْ وهي تستعدُّ لمأتمْ
بجمالِ العرسِ الرهيبِ تزيّا!
وسريرٍ، أُعدَّ فيها، صغيرِ أُلقيَتْ فوقَه ستورُ الحريرِ
لعبتْ أنملُ النسيمِ الطهورِ بحنايا ردائه المنشورِ
فاستطارَ الرداءُ نشراً وطيّا
وهنا، بعد عرسِها الملكيِّ ظهرت هندُ كالصباحِ البهيِّ
بنقاءٍ ككلِّ قلبٍ نقيٍّ وبياضٍ كثوبِها الزنبقيِّ
ودلالٍ يفوح طهراً وريّا

— ١٠ —

ما لتلك الفراشةِ السوداءِ تتغنّى في الغرفةِ البيضاءِ

جَنحُها حالكٌ كقطعِ الرجاءِ وغناها الرهيبُ رمزُ البُكاءِ
خالُهُ المبتلي غناءً شجيَّا
ذاتَ يومٍ ، وقد تدانى الظلامُ خفقَت في ضلوعها الآلامُ
فترامَت وقد تراءى الحِمامُ مستفيقاً في عينِها لا ينامُ
ينتحي عالمَ الدّجى الأَبديَّا
وٱستفاقَت قبلَ المماتِ الرّهيبِ فرأَت زوجَها كثيرَ الشحوبِ
يا حبيبي ، قالت له ، يا حبيبي حان موتي وجاءَ وقتُ مَغيبي
فعذابي يثورُ في رئتيَّا
غيرَ أَني أَمضي لدارِ البقاءِ بسرورٍ وغبطةٍ وصفاءِ
فأنا رغمَ علَّتي وبلائي ذقتُ طعمَ الهوى كباقي النساءِ.
وعرفتُ التآلفَ الذهبيَّا
وٱرتمى رأسُها ارتماءَ يديها وتلاشى اللهاثُ في مرشَفَيها
فبدَت ، والدماءُ في شَفَتيها ، مثلَ شاةٍ بيضاء أَلقى عليها
شرِسُ القلبِ سهمَه الدمويَّا...
أَيُّ ذنبٍ جنَته تلك الصبيّهْ ليجازى شبابُها بالمنيَّهْ
ربِّ ! إن كانَ أَصلُ تلك الضحيَّهْ والدٌ أَورَثَ السمومَ الخفيَّهْ
فصباها لم يأتِ أَمراً فريَّا
ربِّ ! لِم أنتَ تظلمُ الأبرياءَ وتزيدُ العاني الشقيَّ شقاءَ
هم يقولون: هكذا الله شاءَ فٱحترمْ فيه حكمةً علياءَ
وٱحبُهُ الشكرَ بِكرةً وعشيًّا !

ولما كبرتُ

بلوتُ الحياةَ، فما من أَنيسٍ يؤآسي همومي وما من صديقِ
تقول ليَ انهض، وإمّا رأَتني مجدّاً تقفْ عثرةً في طريقي
فيا ربِّ أطفئْ سراجَ شعوري لأصبحَ ذا بصرٍ مستفيقِ
وأخرسْ بصدري الشبابَ، فإني أَوَدُّ اسماعَ فؤادي الحقيقي

* *

لقد طالَ عهديَ بالظُلماتِ ولم أستنرْ بسوى الظلماتْ
كأَنَّ الدجى مَشعلٌ في فؤادي تزيّتُه بالشقاءِ الحياةْ
فما الزَهراتُ أمام عيوني سوى ذكريات الهوى الماضياتْ
تمرُّ بمشهدِها المستحبِّ وتذبلُ كالأَزهر الذابلاتْ

* *

أُقضّي لياليَّ في مخدعٍ بكى والدي حظَّه فيه قبلي
فكم زارَني فيه من زائرٍ وأَبصرَني بالدموعِ أُصلّي
نشأتُ تشفّ بيَ الحسراتُ فتُضوي فؤادي الكئيبَ وَتُبلي

تمرَّد كــلُّ غــريبٍ عــليَّ ولما كبرتُ تمرَّد أَهلي

* *

أَرى الـلـيلَ يفتحُ إِيوانَهُ لـيَستَقبلَ الأَجفـنَ الـنائمهْ
ونــفسيَ هــائمةٌ في فضـاءٍ تخوَّفَ من نــفسيَ الهائمهْ
فيا مَن له الأعينُ الباسماتُ أَنــرْني بــأَعــينِكَ الـبـاسمهْ
تـعالَ وأَغمضْ ذبولَ جفوني بــأنــمُلِكَ البضَّةِ الـناعـمهْ

* *

تعالَ إليَّ فقد سكت الطيرُ والـلـيلُ منسدلٌ فوقَ عشِّهْ
وقـد نام فلّاح تلك الحقول وفي جـنـبه ما جناه برفشِهْ
فكم ملكٍ أَيها الليلُ يبكي أَمـام جلالِكَ فقـدانَ عـرشِهْ
وكـم بـائسٍ ظلمتْه الحياةُ يخالُ سوادَكَ ظـلـمةَ نعشِهْ

* *

تعالَ وأنشِدْ على مسـمعي أغـاني الهوى بلُغات الخلودْ
وخُـذْ ذكـرَياتي إلى عـالمٍ يـطيبُ لـروحيَ فيه السجودْ
فـهـذي الحياةُ ثمالةُ كـأسٍ سقـاها رجيمُ الرّدى للوجودْ
فدعني أُنلْها بقـايا جمادي لتمتصَّــهـا حشراتُ الـلـحودْ

* *

تـعالَ فإنَّ دقائقَ عمري تمرُّ على مــهــجتي راحِلَـهْ
وقـد حملتْ لـيد اللاَّنهايةِ أكــيــاسَ آمـاليَ الـزائـلـهْ

غداً، إنْ رأيتَ خيالَ الحمامِ يمرُّ على وجنتي الناحِلَهْ
تعالَ وضعْ قبلاتِ الوفاءِ على شفةِ المائتِ الذابلهْ

* *

وفي الغدِ حين تمرُّ السنونُ حيارى على خدِّكَ الناعمِ
وتنزعُ عنه سناءَ الجمالِ ويبقى سنا روحِكَ الدائمِ
ستذكُرُني ملقياً هامتي بعطفٍ على صدرِكَ النائمِ
وأُسمعُكَ الشِّعرَ عذباً طريًّا كسحرٍ بمرشفِكَ الباسمِ

* *

فيا مَنْ ظهرتَ لريّقِ قلبيَ في عالَمٍ مقفرٍ منتنِ
وأشعلتَ في ليليَ المكفهرِّ مشاعلَ حُبِّكَ في أَعيُني
وقلتَ لقلبيَ كنْ عاشقاً فكانَ وفاضَ من الأجفُنِ
تعالَ إليَّ ولامسْ فؤادي ولا تخشَ من جرحيَ المزمنِ

في ٨ آب سنة ١٩٢٤

الشبل الرابض

جثمَ الليلُ بأَحضانِ التلالْ حالكَ البردةِ منشورَ الظلالْ
كخضَمٍّ غرقَ الهمُّ به فاَعترى أمواجه صمتُ الجلالْ
وأنا في مخدعي ، لا تنثني عن جفوني مُردا الشهد الطوالْ
في فؤادي من غرامي صورةٌ وعلى عينيَّ من حُبِّي خيالْ

* *

هوذا البدرُ بأبهى رونقِ صاعدٌ خلفَ جبالِ المشرقِ
غرقت هالتُه في غيمةٍ كدموعٍ غرقَتْ في حدَقِ
أو كأَحلامٍ لياليَّ وقدْ ذُوِّبت بين بخارٍ أزرقِ
فتراءى الليلُ سكرانَ بما ذابَ في مرشفِهِ المحترقِ

* *

يا فتاةً بين جنبيَّ هواها لكِ عندي حرمةٌ رَبّي رعاها
كانَ في صدريَ آمالٌ وقد مرَّ إخفاقي عليها فمحاها

إنَّ في عينيكِ آثاري فلا تنكريها عزَّزَ الله بقاها
فيها مرآةُ قلبي في الهوى كم أَرَتني مهجتي عند رؤاها

* *

يا فتاتي ؛ تحت زهرِ الياسمينْ قد تعاهدنا على حُبٍّ أَمينْ
لا يزالُ الزهرُ بسَّاماً لنا شاهداً عدلاً على تلك اليمينْ
فاْذكُري ذلكَ والدمعَ الذي قد ذرفناهُ بشوقٍ وحنينْ
كان ذاك الدمعُ ماءً منزلاً عمَّدَ الحبَّ بدِينِ العاشقينْ

* *

يا فتاتي ، كانَ لي مسعيً وقد صفِرت منه عيوني ويدي
إن يكنْ أخفقَهُ الحظُّ فلا بدَّ من يومِ نهوضٍ في الغدِ
أنا في العشرينَ ، عفواً إنني أَمردٌ ، لا تعبثي بالأمردِ
إنَّ للأشبالِ ساعاتِ دَدٍ وكذا للصبِّ ساعاتُ دَدِ

* *

يا فتاتي ، إنْ تكوني تفخرينْ عندما أُذكرُ بينَ النابهينْ
فليكنْ فخرُكِ قلبي ، إنه ذابَ من أجلِكِ في كأسِ الأنينْ
وإذا ما اْفتخرَ الناسُ غداً فاْفتخاري بشعارِ البائسينْ
ريشةٌ من قَصَبٍ علَّقتُها فوق تاريخ الرجالِ الخالدينْ

* *

ريشةٌ من قصبٍ ناجيتُها وأنا ألثمُ هاتيكَ الخدودْ
إنْ أكُنْ ناجيتُها منذ الصِبا سوف من بعدي يناجيها الوجودْ
سوف من بعديَ تبقى أثراً يرسمُ المجدَ على لوحِ الخلودْ
ويُطلّ الدّهرُ من كوّتهِ ليراها كيف تُرمى بالورودْ

في ٣ أيار سنة ١٩٢٤

*

امام مهد سعاد

أُرقدي ! أُرقدي ! فغيرُ الرقادِ　　ليس يحلو لأعينِ الأولادِ
أنتِ في المهد مثلُ زَهرةِ فجرٍ　　أنعشَتها يدُ الندى في الوادي
يا سعاداً ، هذي عيونُ العذارى　　باسماتٌ جميعُها لسعادِ
ساكباتٌ في طُهرِ قلبكِ نوراً　　من سراجِ النفوسِ والأكبادِ
أُرقدي وآحلمي ، فحلمُك عذبٌ　　يا سعاداً ، كالسلسبيلِ البُرادِ
ودَعي أُمَّكِ الحنونَ تناغيـ　　ـكِ بصفوِ الحنينِ والإنشادِ
يا ملاكاً ، ما أنتَ في المهدِ إنسا　　ناً كذاكَ الإنسانِ عندَ الرشادِ
أَنتَ ما زلتَ في سريرِك روحاً　　كبَّلَتها يدٌ بقيدِ الجمادِ
أَنتَ لا تعرفُ العبادَ ولكن　　قذفتك السماءُ بين العبادِ
أهُناك آقترفتَ ذنباً فجوزيـ　　ـتَ بنفيٍ في عالمِ الإضطهادِ؟

* *

يا سعاداً ، غداً نراك فتاةً　　تسكبين الهوى بكلّ فؤادِ
ويصبّ الشبابُ في كأس جفنيـ　　ـكِ رحيقَ الجمالِ للورّادِ
فآحذري حينذاكَ راصدة الكأ　　سِ فعين الحياةِ بالمرصادِ

لا تخوضي الهوى فما هو إلّا نـزواتُ الأرواح في الأجسادِ
يا سعاداً، غداً ترينَ قدوداً مســكراتٍ تُبـاعُ بيـعَ المزادِ
وعيـونـاً لـلـحسنِ تنفثُ فيها حشراتُ الأقذارِ كحلَ الفَسادِ
حافظي، حافظي على طهرِ هذا الـ ـغُصنِ، غصنِ الطفولةِ الميَّادِ
ودعــيــه يـنـمـو ففـيـه ثمارٌ طيِّبـاتٌ لـكـلِّ غرشةِ صـادِ
إنما أثمارُ الـطـهـارةِ تحيـا من مهود الصبا ليوم التنادي
وإذا مـرّت الـعشيُّ عـليها فهي منثورةٌ على الألحادِ!...

* *

أرقدي يا سعادُ فالنومُ عذبٌ لـفؤادٍ ما ذاقَ طُعمَ السهادِ
وابسمي فالحياة تبسمُ في المهدِ ويغفو السلامُ تحتَ الوسادِ

في ١٣ نيسان سنة ١٩٢٤

قبل الرحيل

أذكرُه، وكيفَ لا أذكُرُ لبنانُ فيه المسكُ والعنبرُ
هواؤُه الطيّبُ روحُ الصِبا ومــاؤُه أكــدرُهُ كـوثــرُ
أَشجارُهُ ذاهبةٌ في الفضا يروع منها ذلكَ المنظرُ
كأنها المُرّاد قامت على آكــامِــهِ ساهـرةً تخفـرُ
نبعُ الصفا يقطرُ من صدرِه والروض سكرانُ، فلا يشعرُ
كـأنما أمـواهُــه خـمـرةٌ مذ يستقيها روضُه يسكرُ

* *

وزحلةٌ، شوقي إلى زحلةٍ، كـأنها في حسنِها جؤذَرُ
حـوراءُ والـعشّاقُ ترتادُها وكلّ مَـن يعشقها أَحورُ
كم قد تبارى الشعرُ في وصفِها وكـلّـنا في وصفِها قصَّرُ
سماؤُهـا وحيٌ وأَزهـارُهـا شعـرٌ وبـردونـيُّـهـا أَسطرُ
كم أَنجبت من شاعرٍ نابغٍ إذا انبرى في موقفٍ يسحرُ
كـأَنما هاروتُ في شعرِهِ بالرغمِ عن إِخفائِهِ يظهرُ

* *

والأرزُ، شدّ الخُلدُ، أَعصابَه ... فكلّ طَودٍ عندَه يصغرُ
جبابرُ الأيام في مجدِها ... مرهونةٌ لأمرِها الأَعصرُ
يا أَرزُ لا يُطوى الفخارُ الذي ... كان سليمانُ له ينشرُ
فاْصبرْ على الدّهرِ، فما غايةٌ ... ضاعَت، لمن كان لها يصبرُ
هويتُ لبنانَ، ولا أَنثني ... عن حُبِّ لبنانَ، ولا أُدبرُ

* *

لي فيه شطرٌ من حياتي ولي ... من مهجتي في صدره أَشطرُ
لي فيه بدرٌ مشرقٌ نيّرٌ ... له جمالٌ مشرقٌ نيّرُ
يبذر نوراً في رياضِ الهوى ... فأَنثني أَجمعُ ما يبذرُ
كم ليلةٍ أَحييتُها قربَه ... والحُبُّ يُعطينا ولا يخسرُ
كأنّه «رتشيلد» في عزّه ... كأنه «روكفلر» الموسرُ
والليل فيه قمرٌ كاملٌ ... كأنه عبدٌ لنا أَعورُ
يا «أولغا» مرَّ الصفا عابراً ... كلّ صفاءٍ في الورى يعبرُ

* *

وفي فؤادي أَدمعٌ كلما ... فاضت ففي آهاتِهِ تعثرُ
يا جُؤذَراً ما «ميّ» في كلّ ما ... أَنظِمُ إلّا أَنتَ يا جُؤذرُ
أَنت الذي أَوحيتَ شعري فلا ... أجحدُ ما توحي ولا أُنكرُ
في عينِكِ النجلاءِ سرُّ الهوى ... وفي لِماكَ العذبِ ما يُسكرُ
وفي ثناياكَ هوىً طاهرٌ ... وبين جنبيكَ هوىً أَطهرُ
سأذكرُ المرجةَ في الفجرِ إذ ... أبكَرْتَ كالحسُّونِ إذ يُبكِرُ

مُذ شرَّفت رجلاك أَعشابها حتى بلطفٍ ذلك الأَخضرُ
أَوْدعتَ عندي مهجةً لم تخنْ قلبي على إكرامِها يسهرُ
قطرتَ لي الودَّ ، فهل في السما صفاوةٌ مثل التي تقطرُ

* *

لي كلُّ هذا في بلادي ، ولي في البيتِ أُختٌ شعرُها أَشقرُ
ضحَّاكةٌ كالزَّهرِ في روضِهِ رقَّاصةٌ غنَّاجةٌ تخطرُ
صغيرةُ السنّ لها أَعينٌ زرقٌ وخدّ أَبيضُ أَحمرُ
وحاجبٌ كالسيفِ، إن حدّقت عن غضبٍ، يخافها «عنترُ»[1]
الأَسودُ الحالكُ في لونِهِ إذا مشى أَمامها يفخرُ
هرٌّ له في عينِها جاذب وفي حشاها جاذبٌ آخرُ
إن وفّق الحظُّ له فارةً يُسرعُ في ساعتِهِ يخبرُ
كأنه وهو على كتفِها إسكندرُ الأَكبرُ أَو قيصرُ
أَو غليمُ الثاني على عرشِهِ الله من سطوتِهِ أَكبرُ
أخت ، ويا لله ، من جورها يأتمرُ الكلُّ إذا تأمرُ
فرض على البيت ، وما فيه أن يبقى على مرضاتِها يسهرُ
إن طلبَت شيئاً ولم يؤْتِها جميع ما تصدفه يُكسَرُ
الوَيل للأَكْوُسِ من شرِّها وويلُ الكراسيّ إذا تنفرُ
والبيت ، يا لله من ذكره يحيطُه بستانُه الأخضرُ
تنظرُ للأشجارِ فيه ولا يعجبها إلا التي تثمرُ
تحبُّني حبّاً شديداً بلا حصرٍ وحبّ الأُختِ لا يُحصَرُ

---

(١) اسم لهرّ أسود.

حبّاً يُضاهي الأرضَ طرّاً وما قد حملَت في قعرِها الأبحرُ
من سمكٍ يسبحُ في مائِها ومن شخاتيرٍ بها تمخرُ
ومن رمالٍ كثُرت حولها فحبّ أختي هو لي أكثرُ
كم مرَّةٍ أَفرغَت وقتي لكي أَسمعَهَا تنشدُ ما تذكرُ
فتسكرُ الآلامُ في مهجتي وصوتُ أُختي خمرةٌ تُسكِرُ
تنظرُ في عينيّ طوراً ولا أحزر ماذا فيهما تنظرُ
وتارةً تفرجُ عن مبسمٍ يلمعُ فيه الدرُّ والجوهرُ
كم مرّةٍ جاءَت إلى مكتبي بينا أنا أَنظمُ أو أَنثرُ
فبعثَرَتْ أَوراقَهُ والهوى في مهجتي كان لها يشكرُ

* *

سأَهجرُ الأوطانَ لا كارهاً لكن لأَسبابٍ دَعَتْ أَهجرُ
رجالُها مأجورةٌ جلُّها كأَنّها الآلة تُستأجرُ
في أرض زغلولٍ سأُمسي غداً هل يا تُرى يصفو لي المعشرُ
أَنا أَسيرٌ في بلادي، فهل في مصر أَفكار الفتى تؤْسرُ
ما مصرُ إلّا زهرةٌ في العُلى والنيلُ من برعمِها يقطرُ
فالحرُّ فيها أسدٌ رابضٌ إذا دُعي للوثبِ لا يغدرُ
يحرسُها فِرعونُ في قبرِه فرعونُ حيٌّ فيه لا يُنْكَرُ
العنبرُ الفيَّاحُ في تربِهِ والمسكُ في أَرجائِهِ أذفرُ
كاللّيثِ إذْ يزأَرُ في تختِهِ عرينُهُ يعرفُه «الأُقصُرُ»
لبنانُ أَناهُ ولكن له ذكرٌ بقلبي وهوىً أَطهرُ
عسى أَراه مُرجعاً مجدَه لبنانُ فيه المسكُ والعنبرُ

في ١٥ آذار سنة ١٩٢٤

بعيدا عن هذا العالم

هذي الحياةُ كمستشفى تنامُ به مَرضى الوجودِ ولا تَشفى من الداءِ
كأنّما الداءُ مخفيٌّ بأنفسِها، سرٌّ عصى كشفُهُ علمَ الأَطبَّاءِ

* *

سأَلتُ نفسيَ يوماً وهي باكيةٌ كأَنها ضجرت ما بينَ أَعضائي
يا نفسُ إنْ كُنتِ في لبنانَ يائسةً هذي «دمشق» تناغينا بإصفاءِ
الماءُ في «بَرَدى» عذبٌ مرقرقه كأنه لؤلؤٌ في عينِ حَوْراءِ
والطقسُ معتدلٌ فيها، وصافيةٌ سماؤُها، وهي بينَ الزهرِ والماءِ
فلم تُجبْني وظلَّت وهيَ صامتةٌ ترمي عيوني بأَنظارٍ وإصغاءِ
كأَنَّ في نَفسِها سرّاً تحاول أَن تخفيهِ والعينُ تجليه بإفشاءِ
فقلتُ هذي «فروقٌ» إن سكنتِ بها سكنتِ يا نَفسُ أَرضاً للأَشدَّاءِ
«فروقُ» يحرسُها «البوسفورُ» منظره يفيقُ في كلّ صدرٍ مجدَ آباءِ
إذا تأمّل «قرنُ التبر» شاطئه تأمّل المجد في أَحضانِ علياءِ
والشمسُ تسكب في الأَمواهِ مهجتَها بسَّامةً عن حلىً في ثغرِ عذراءِ

وهذه مصرُ، والأهرامُ ترمقُها بعينِ فِرعونَ عن أَلحاظِ حسناءِ
كـأنها وهـديـرُ النيلِ يُطربُها، عشَّاقةُ الفنّ بين الشعر والنائي

* *

فلم تجبنيَ، هل خرساءُ نفسيَ أَم جيئت بجنّيَّةٍ شمطاءَ خرساءِ
فقلتُ يا نَفسُ إن تهوي السكون فما في الكونِ غيرُ حزازاتٍ وشحناءِ
فلنسكنِ القطبَ حيث النجمُ ساطعةٌ تُصبي النفوسَ بأنوارٍ وأَضواءِ
هناك لا حقدَ ترتاعُ النفوسُ لهُ ولا لهاثٌ من القومِ الأَرقّاءِ

* *

إذ ذاك نادت بصدري النفسُ قائلةً: «أَيًّا سكنتَ تجدْ حكماً لإرضائي
بشرطِ أَن تنثني من عالَمٍ كثرت فيه الحزازاتُ من ظلمٍ وبَغضاءِ!»

في ٢٠ شباط سنة ١٩٢٤

الفضيلة

بكَت وهي صرعى من هموم ٍتَحيقُها   كبائسةٍ في الناسِ ضاعَتْ حقوقُها
وصارت توالي بالشهيقِ أنينَها   فأَسمعني لحنَ الحياةِ شهيقُها
وألقَت على صدري من الحزنِ رأسها   غريبةُ دارٍ قد نآها صديقُها
وأدمعُها كانت رحيقاً مذوَّباً   فأسكرَ قلبي المستهامَ رحيقُها
ولمَّا اَستتبَّ النومُ في غُلْفِ عينِها   ونام «كما نامَ الجريح» خفوقُها
سكتُّ فلم أَلهث حذار تنهّدي   يمرُّ على أَجفانِها فيفيقُها
وكان ظلامُ الليل يرخي سدولَه   وأَنجمهُ يذوي النفوسَ بريقُها
كأنَّ شُعاعَ الزُهر في شاسعِ الفضا   سهامٌ على قلبِ الوجودِ مروقُها
فقلتُ ، وفي صدري من الدمعِ بركةٌ   تحمَّلَ أَقذار الحياةِ عميقُها
إذا كانتِ الظّلماءُ فينا منيرةً   فأَحرى بها ألاَّ يزولَ غسوقُها
أَحقٌّ بنا الظلماءُ من كلّ وجهةٍ   ففينا وجوهٌ يستبدُّ صفيقُها
وفينا حزازاتٌ إلى البغي تنتمي   وفينا شفاهٌ من طِلى الحقدِ ريقُهَا

* *

نظَرتُ إلى مَن خدَّدَ الدمعُ خدَّها   فألفيتُ شمساً لا يغيبُ شروقُها
كَأنَّ نثارَ الدمعِ تبرٌ بعينِها   يذوِّبه فوق العقيق مريقُها

فقلتُ عزيزٌ يا بني الشرق أَن نرى الفضيلةَ يمشي في المكاسِدِ سوقُها
تهيم ولا تدري طريقَ نجاتها كأنَّ ضلالَ العالمينَ طريقُها
هي الزهرةُ البيضاءُ في عوسجِ الورى يحفّ بها شوكُ الخنا ويُحيقُها
وقد عصفَت ريحٌ عليها شديدةٌ فنشَّرها مثل الدّموعِ خريقُها
هي النجمةُ الزهراءُ في حَدَقِ الدجى يسامرُها بدرُ العفافِ شقيقُها
ولكنَّ غيمَ الجهلِ لاصقَ نورَها فحجَّبها عن كلّ عينٍ لصيقُها
هي ابنةُ آمالي ولكن سجينةٌ تناسى هواها الكلُّ حتى عشيقُها
يشوق فؤادي أَن يراها طليقةً ولكنْ قيودُ الظلمِ ليس يشوقُها

* *

غَفَت ملءَ عينيها ، ولكنَّ روحَها تردَّدَ في صدرِ الحياةِ زُهوقُها
كأنَّ الذي أَخنى عليها بجورِه إلى هوَّةِ الإِعدامِ جاءَ يسوقُها
أَشاحَ خيالُ الحُبِّ عنها بوجهِهِ وأَعرضَ عنها في الحياةِ رفيقُها
فما وجدَتْ إلا المدامعَ مؤنساً لذلك في كلّ الظروفِ تُريقُها

في ٢٩ آذار سنة ١٩٢٤

إلى شاعر القطرين

أَلا تبصرُ الأَغصانَ بلَّلها القطرُ   فمالت سكارى لا رحيقَ ولا خمرُ
أَطلَّت عذارى الشعر من فُرَجاتها   لها من بنانِ العشبِ أقلامُها الخضرُ
أَطلَّت وكانت هاجعاتٍ عيونُها   يُذوِّبُ في أَحلامِها ذلك السحرُ
كأَنَّ نداءً من صديقٍ أَفاقَها   فهبَّت وفي سيمائِها يبسمُ البشرُ
ولـمَّا رأَته حدَّقت في جبينه   فأَبصرتِ التـذكارَ آلمهُ الهجرُ
ولم تقوَ عن مسكِ الدموعِ فأسبلَت   على خدّها الورديِّ أَدمعُها الحمرُ
خليلُ، وفي تُرب البلادِ شهادة   هي المجدُ باقٍ في بلادِك والفخرُ
أَجِلْ مقلةَ الإلهامِ في عَرَصاتها   تجدْ أَثَرَ الأَفراخِ يا أَيها النسرُ
هي الأُسدُ حال الصمتُ دون زئيرها   فَسَالَتْ مآقيها وليس لها زأْرُ
لئن جنحت أَرواحها عن لبانةٍ   فما جنح المجدُ المخلَّدُ والذكرُ

* *

بلادُك هـذي يا خليلُ فإنها   حليلتُك الأُولى إذا فخرت مصرُ

القصيدة التي وُجّهت الى خليل بك مطران في الحفلة التكريمية التي أَقامتها له زحله.

فمن مائها روَّيْتَ شعرَك ريِّقاً — وفي روضِها شبَّت قصيدتُك البكرُ
هنا ، تحت هذا الأرز ، تحت جلالِه — وتحت غصونٍ ، قد تفيَّأها الدهرُ
سجدت خشوع القلب في ريِّق الصبا — تناجي لهاثَ الأَنبياءِ وقد مرّوا
فكم وقفةٍ في بعلبكَّ وقفتَها — تراقب مسرى البدر تتبعُه الزُهرُ
كموكب جنٍّ قد أطلَّ من الفضا — ليشهدَ أَطلالَ الردى وبه ذُعرُ
أَما بعلبكُّ اليومَ كالأَمسِ زِخرها — يكلِّلُها في كلّ دارسةٍ زخرُ
أَما برحت في لُبَّةِ المجدِ زهرةً — يقبِّلُها التاريخ وهي له فجرُ
فما تلكمُ الأَنقاضُ إلّا حوادثٌ — على جبهةِ الأيامِ سَطَّرَها السرُّ
وما الهبواتُ السودُ في جنباتِها — سوى عبر الأَزمانِ تلفظها الجُدُرُ
أَلا فانفضِ الأَيامَ عنها بفكرةٍ — هي النورُ من زيتِ النبوَّةِ والشعرُ
لتُطلعَ «جوبيتارَها» فهو رابضٌ — «كنيرون» لكن ليس في صدره غدرُ

* *

وكم وقفةٍ في ربْعِ زحلةَ أَطلعتْ — عليك قريضاً دونهُ الماسُ والتبرُ
فتنثرُهُ في الكرمِ طوراً ، وتارةً — على هضَبِ الوادي ، يُشتِّتُه النثرُ
وفي قُطر مصرٍ ، كم تذكَّرتَ زحلةً — فأبكاك «بردونيُّها» ذلك القُطرُ
لَدُنْ كنتَ مع صنوٍ صغيرٍ مغنجٍ — له طلعةٌ حسناءُ يغبطُها البدرُ
لَدُنْ كنتَ طفلاً ، والحبيبةُ طفلةً — حواليكما حبٌّ ، وبينكما إصرُ
ونكهة عودِ المندليِّ شذيّة — على ضفَّةِ النهرِ الجميلِ لها نشرُ
فزحلة ما زالت ، وما زال نهرُها — فذاك هو الوادي ، وذاك هو النهرُ
فأنشدْ كما أَنشدت في سُحرة الهوى — فمن ذكرياتِ الأَمسِ في زحلة شطرُ

في ٥ حزيران سنة ١٩٢٤

لي عاشق

لي عاشقٌ جلَّ قدرا في العاشقينْ
يَبينُ في الليلِ بدرا للساهرينْ
وفي النهارِ شمس الوقارِ تحت إزارِ
من ياسمينْ

يُدمي له الحبُّ خَدَّهْ من نَظرَتَيْنْ
وما الهيامُ فيه حرامُ له قوامُ
كالحربتَينْ

فكم سقاني رُضابا مِن مِرشَفَيهْ
وما دفعتُ حسابا ولا جنيَهْ
وما لبثتُ حتى سكرتُ ثم أَفقتُ
بين يَديهْ

في ٢٥ تموز سنة ١٩٢٥

ضيّع القالب

ومليحٍ أَخذتُهُ صاحبْ   رغمَ سعيِ العذولِ والعاتِبْ
هو لصٌّ أَسكنتُهُ قلبي   معَ أَني عرفته سالبْ
وجهه معبدٌ للعذارى   ومصلّى ، وشعرُه راهبْ
كتب الحسنُ آيةً عنه   باركَ الله ذلكَ الكاتبْ
أَتقنَ الله فنَّه فيه   وأَجاد التنسيقَ في الحاجبْ
فكأني لمَّا انتهى منه   مبدعُ الخلقِ ضيَّع القالبْ

في ٥ آب سنة ١٩٢٢

دعيني أموت

دَعيـنيَ أَنـدبُ كـالـثـاكِـلِ   فـلستُ سوى عـاشقٍ راحـلِ
حملتُ الهوى في فؤادي الضعيفِ   فأثـقـلَ حـمـلُ الهوى كـاهلي
دعـيني أَمـوتُ فـإنَّ الزمـان   تـردَّدَ في قـلـبيَ الـنـاحـلِ
وإنَّ الـدقـائـقَ قـد أَسرَعَت   بصـدريَ في سيرِهـا العاجلِ
دعـيني أَمـوتُ فـإني فـتـىً   تحمَّـلتُ فوق قـوى الحـامـلِ
قـطعتُ هضابَ الحياةِ صغيراً   وصرتُ قـريبـاً مـن الساحلِ
دعـيني أَمـوتُ ولا تـنثري   دمـوعـاً على هـيكـلٍ خـامـلِ
فدمعُ الهوى من بناتِ الخلودِ   فلا تهرقـيـهِ على زائـلِ
دعيني أَموتُ فحظّي التعيسُ   هـوى مـع كـوكـبِـهِ الآفـلِ
دعيني أَمـوتُ فصخر رجائي   تحطّـمُـه مـوجـةُ الـبـاطلِ!
ومـا كـنتُ أؤمـلُـهُ سابـقـاً   خُـدعتُ بـه خـدعـةَ الجـاهـلِ

في ١٧ تشرين الأول سنة ١٩٢٠

ذكرى الآلام

يا مَن ترى الدنيا بثغرِ فتاةِ إِيَّاكَ أَن تمشي على خطواتي

* *

في الثغرِ شهدٌ، حلوُه مرٌّ ولكم سقاني ذلك الثغرُ
في مِرشفيه ينطوي سرٌّ يخفي الدموعَ ويظهرُ البسماتِ

* *

لا تَجتهِدْ في الأرضِ كي ترتاحا الأرضُ ليلٌ لا يُريكَ صباحا
خذْ في يمينكَ دائماً مصباحا كيما يقيك غوائل العثراتِ

* *

كم قد رقبتُ مطالعَ الأقمارِ ما من سميرٍ لي سوى أَشعاري
حتى إذا حطم الهوى قيثاري أَوتارُه ٱنقَطَعَتْ عن النغماتِ

* *

لـمَّـا شعـرتُ بـأنَّ للحُبِّ قبراً جوانـبُـه مـن الـتُـربِ
واريتُ في أَعماقِـــه قـــلبي وخلوتُ بعـدئـذٍ لـتـذكـاراتي

* *

جسدي أنضنى لم يبقَ إلاَّ نصفُه والـنصـفُ مـقـتربٌ إليه حتفُه
ومن الهوى لم يبقَ إلا عَرفُه يسري إليَّ ضحىً معَ النسماتِ

* *

بالأَمسِ كنتُ وفي يدي كاسي أَرعى الهوى في قلبِها القاسي
واليومَ صرتُ وفي يدي راسي أَذري الدموعَ وأُطلقُ الزَفراتِ

* *

بـالأَمسِ كـنتُ وكـلُّ آمـالي مـطـروحـةٌ في صـدرِها الغالي
والـيـومَ ، واأسفي على حـالي أَمست ، وقد بليت مع الأمواتِ

* *

يا مَن ترى الدنيا بثغرِ فتاةِ إِيَّاكَ أَن تمشي على خطواتي

* *

إِيَّاكَ ، أَسيافَ الرّدى مسلولهْ وقلوب أَصحابِ الهوى مقتولهْ
أُنـظُـرْ إلى حالي وخذْ أمثولهْ أَوَما ضللتُ على طريقِ حياتي

في ١ تشرين[٢] سنة ١٩٢٢

أجد الشباب يلوح منتعشا

ضيَّعتُ في هِضَبِ الهوى رُشدي — وفقدتُ ما أَبقى الحجى عندي
وسعـــــيتُ نحوَ المجدِ مجتهداً — فـهـويتُ دون مـداركِ المجدِ
أجدُ الشبابَ يـلوحُ منتعشاً — وأنـا نحيلٌ ، أَصفرُ الخدِّ
في كـلِّ ليـلٍ جار أسودُه — يبني الرّدى حَجَرين من لحدي
بَعُدَ الكرى عن مقلتيَّ كما — بَعُدَ الفتى الصادي عن الوِردِ
فكأَنَّ أهدابي ظبىً برزتْ — لتحولَ دون النومِ بالسهدِ
لو كنتَ تعلمُ، يا أبي، وأنا — طفلٌ، مصيري العادمَ السعدِ
لبَكيتَ عندَ ولادتي نَدَماً — وخنقتَني، وأَنا على مَهدي
يتهامسونَ عليَّ من أَسفٍ — هو سيف عقلٍ مرهفُ الحدِّ
إِن كنت سيفاً للحجى، فأَنا — لم يمتشِقْني الدهرُ من غمدي
أَردتـنيَ الأَيـامُ طـاعـنـةً — صـدري بأَسيافٍ لها تُردي
وأَنا فتىً ما زلتُ أَجمعُ من — روضِ الصبابةِ والهوى عقدي
عاثت صروف الدهر في جسدي — بمخالبٍ كمخالبِ الأُسدِ
ويلاه! أَشباح الردى قربت — ماذا، سعاد، تصير من بَعدي

أُمَّـاه! أيـنَ أَبي، فـإنَّ لـه عـندي شؤوناً ضيَّعت رشدي
أَأَبي، رعاكَ الله، كيف ترى خـلَّـفـتَني وتـركـتَني وحـدي
هل كـنتَ مـثلي يائساً تعِباً فَعثيتَ في الدنيا على جَدّي؟
لا بأسَ نَمْ، والروحُ طاهرةٌ فاليكَ وجدي لم يزلْ وجدي

في ١٥ تشرين[١] سنة ١٩٢٢

*

خاطرة

هـذه الـكائناتُ بادَت سراعاً قصفتها المنون قصفَ الغصونِ
سائـلِ الكتبَ والتواريخَ عنها واَقرإِ الخبَرَ في سجلِّ القرونِ
ليسَ عمرُ الإنسانِ غير منامٍ تتمشّى أَشباحُه في العيونِ

رثاء سليمان البستاني

لا تَنوحي على ذهابِ العميدِ فسليمانُ في ضميرِ الخلودِ
إنْ قضَى قائد اليراعِ شهيداً فلقدْ دبَّ روحُه في الجنودِ
يا ٱبنةَ الضادِ لا تنوحي عليه فهو أَبقى من ركنكِ المهدودِ
لا تخافي ألّا توفّيه حقاً ستوفّي الدهور حقّ الفقيدِ
نحن لم نخشَ أَن يبيدَ ولكن نحن نخشى من بعدِه أَن تبيدي
فسليمانُ غابَ عنا ليُحيي في مواتِ الأَجداثِ روحَ الجدودِ
يا أَميرَ الكلامِ أَيّ ضريحٍ أنت تختارُ في الترابِ البعيدِ
عُدْ للبنانَ فهو أَرحبُ صدراً في ذراعيهِ حرمة للشهيدِ
عدْ إليه ميتاً فيمسي ثراه ببقاياكَ ذا فؤادٍ ودودِ
رُبَّ خلقٍ في جانبيكَ كريمٍ يتمشّى جلاله في الدودِ
لم تُضاهِ الأَعمى الإلهيَّ[1] إلّا ورماكَ الأَعمى بعينِ الحسودِ
ففقدتَ العينَ البصيرةَ حفظاً لمراعاةِ حرمة في اللحودِ

* *

(١) هوميروس

يا رسولَ الفكرِ الجديد سلامٌ كم هديتَ العُلى بفكرٍ جديدِ
إنما الـفـكـرُ عـالم مـا لـه حـدّ ، علا فوق عـالمٍ محدودِ

* *

وعمادٌ هي العقولُ ، مقيمٌ فوق أَطوادِها ، جلالُ الوجودِ
إن تنوء بالحملِ الثقيلِ فتهوي يسقطِ الكونُ بالضجيجِ الشديدِ
والنفوسُ الكبارُ تشقى طويلاً بين جدران صدرها المفئودِ
هي مثل الطيور تخفقُ حيناً ثم تقضي في سجنِها الموصودِ

* *

يا سليمان ، أيُّ نعشٍ مجيد حلَّ فيه جلال صدر مجيدِ
ذلك النعشُ يا أُولي العلمِ قدسٌ فـخـذوه ذخـائـراً لـلـجيـدِ

* *

لامس الموتُ قلبَه فهنيئاً لأصـابـيـعِ قبضتَيه السودِ
وهنيئاً للتُّرب يلثم جَفنَيـ ـهِ ويهوي على جمالِ الخدودِ
كتبَ الله في مصاحف خَدّيْـ ـهِ سطوراً شريفة من نشيدِ
فاقرأُوهاواجثوا لديها خشوعاً كـجـثـوّ العـبيـدِ للـمعبـودِ
حجّة العلمِ والسياسة في الما ضي وركنٌ من الكرامِ الصيدِ
شبَّ طفلاً على محبّة لبنا نَ فكان الإخلاصُ فرضَ العميدِ

أَوفـدَتـهُ الـبلادُ لـلـذودِ عنها في فروق، فكان فخرَ الوفودِ
واَصطفاهُ عبد الحميد، ولكن لم يكن من رجال عبد الحميدِ
يا أَميرَ الحجى أفاق العذارى من سُبات بجفـنِـها معـقـودِ
وأَعـدّتْ ولائم الـعـرسِ في الخلـدِ وزفَّت إلـيك بـنت الخلـودِ

في ١٥ حزيران سنة ١٩٢٥

*

خاطرة

سعادُ كلانـا في المحبَّةِ شاعرٌ إذا ما هوينا فالشواعرُ ثابتهْ
ولـكـنَّ فـرقاً بيننا وهو أنني أُعَبِّرُ عنها بينما أَنتِ ساكتهْ
فـدمـعيَ شعرٌ يقرأونَ سطورَه ودمعُك أبياتٌ من الشعرِ صامتهْ

في ٦ حزيران سنة ١٩٢٣

دمعة على عذراء

حلم صاحب الديوان أنه دخل قصراً فخماً في وسط غابة فشاهد فتاةً مائتة ممدَّدة على مرتبة في وسط قاعة كبيرة ، والنور ينبعث من خدّها الأيمن ، فقال يرثيها وهو في الحلم :

قضتْ وهي بعد اليوم ، ترقد وحدَها   فمَن تركت في الأَرضِ للنوحِ بعدَها
أَوالدةً تُفني عليها الدموع ، أَم   حبيباً سقَتهُ قبل ذلك ودَّها
كأَني بربّي حين أكملَ صنعَها   تملَّكه حبٌّ ، فقبَّل خدَّها
وأَدهشه منها جمالٌ متيّمٌ   أَثارَ به نارَ الهوى فأسترَدَّها

في ١٧ آذار سنة ١٩٢٣

ليس في كسروان سلاح

نحن بتنا مستعبدين ولكن مستقلين في بلاد المرضى
مستقلين بالخمول وبالذلّ، سكارى، يعضّنا الجهلُ عضّا
أَيها الفارض السلاحَ علينا كيف، بالله، تستحلُّ الفرضا
ليس في كسروان قطّ سلاح ليس في كسروان سيفٌ يُنضى
ليس في كسروان إلّا لحاظٌ هي أَقوى من السلاحِ وأَمضى

في ١٤ ت[١] سنة ١٩٢٣

«نظمت بمناسبة جمع السلاح من كسروان».

مات حسونها

أَلفيتُها ومن التحسُّر لا تعي تذري الدموعَ وحيدةً في المخدعِ
فكأَنها والدمعُ يخطفُ صوتها رمزُ التعاسةِ في الزمانِ الموجعِ
فسألتها عما يثيرُ شجونَها وعلامَ تُطلقُ زفرةَ المتفجّعِ
فإذا بها رفَعت لطافةَ رأسِها بتخشُّعٍ أَوحى إليَّ تخشّعي
ورَنَت إلى قفصٍ هناك معلّقٍ بمحاجرٍ غرقَت بماءِ الأَدمعِ
فحزرتُ أَنَّ الدهرَ سلَّم طيرها ليدِ الحِمامِ ، فطيرُها لم يرجعِ

* *

قالَت فقدتُ من الحياةِ مؤاسياً يا طالما أَوحى الهيامَ لأضلعي
فإذا تغنّى بالزهورِ وبالندى كيف الهوى لغناهُ لم يتسمَّعِ
وآلهفَ قلبي أينَ منه قصائدٌ لم يروِها حتى بيانُ الأصمعي
بل أينَ منه الموصليّ وصوته ولسانُ معبدِ بالغناء المبدعِ
وآلهفَ قلبي كيف واراهُ الثرى وأنا هنا أحيا بعيشٍ أمرعِ
أَوَلم يكن لي في حياتي مؤنساً يلهو به قلبي ويطربُ مسمعي؟

ماذا جنى الحسونُ في جنحِ الدُجى حتى أُصيبَ بسهمِ ذاك الأسفعِ
ألأنّه هجرَ الحقولَ وبردَها وأتى يغرّدُ في زوايا مخدعي
فأجبتُها كفّي البكا وتصبّري فالطيرُ مات ولم يعدْ من مطمعِ
لكنّما أَصغي لما سأقولُه فبموته عظةٌ لكلٍّ ملوَّعِ
كم ردَّدت في مسمعيكِ مراشني حرّيتي يا ميُّ أثمنُ ما معي
فنبذتِها وجحدتِ ما ردَّدته وصنعتِ بالحسّونِ أفظعَ مصنعِ
ما جاءَ حتى تسجنيهِ وإنما حتى تقيهِ شرّ فقرٍ مدقعِ
فجعلتِه بين الحديدِ مقيَّداً ، يا حرّةً قيّدتِ حراً ، فانزعي

* *

لو يفقهُ الإنسانُ معنى شرِّه لبكى طويلاً بالدموعِ الهمَّعِ

في ٤ كانون[٢] سنة ١٩٢٣

نرجيلتي

قضيتُ هزيعين من ليلتي ... وحيداً أسامرُ نرجيلتي
وكانون في خارج الدار يبكي ... فيشتدّ فيه دجى الظلمةِ
وضعتُ على ركبتيَّ «حراماً» ... وصرتُ أُنغِّمُ في فرشتي
إذا برياحٍ من البابِ هبَّتْ ... وأطفأَتِ النورَ من شمعتي
فلما أحاطَتْ بي الدامسات ... وبطَّن أَسوَدُها حجرتي
تبسَّم ثغرٌ لنرجيلتي ... كعبدٍ تبسَّمَ في العتمةِ
فما كانَ أجملَ من ثغرِها ... وما كانَ أَعجبَ من حيرتي
تحفّ بتنبكِها زرقةٌ ... تحاكي مراشفَ نوريةِ
ولكن رأيتُ بها جاذباً ... يحرّك في داخلي صبوتي
فقرّبتُ من نارِها مرشفي ... وأسمعتها «تقسة» القبلةِ
ولو لم يكن ثغرُها محرقاً ... لكنتُ امتصصْتُ من الجمرةِ
لأنّي لم أدرِ ماذا بها ... من العذبِ يشبهُ محبوبتي
فقلتُ لها إنَّ بي لوعةً ... وأطلقتُ في جوفِها زفرتي
فأسمعني صدرُها زفراتٍ ... أَثارَتْ شجونيَ في مهجتي

أَإِبنةَ طهازَ لمْ تزفرينَ وأَنتِ أَنيسيَ في وحشتي
رأيتُك رمزاً لكلِّ شقيٍّ رماه الهوى في لظَى الشقوةِ
أجابت أنا الآنَ في نعمةٍ لأنَّ حبيبيَ في نعمةِ
ولكنني بعد وقتٍ قصيرٍ أُغادِرُ وحديَ في خلوتي
فيبعدُ عنّيَ ثغرُ مُحبّي ويسلو الذي كانَ من لوعتي
لذاك تراني أَبكي زماناً سأصبحُ فيه بلا زهوةِ
فإنَّ الهوى صدقُه كاذبٌ يُشبِّهُهُ العقلُ بالنجمةِ
فلا يقبل الفجرُ حتى تراها أمامَ عساكرهِ وَلَّتِ

* *

وإذ ذاكَ راود جفني النعاسُ فأَطبقَ أنمُلُهُ مقلتي
ولمَّا استتبَّ الكرَى في جفوني شاهدتُ في الحلمِ نرجيلتي

في ٥ شباط سنة ١٩٢٣

انزعوا قلبي فاستريح

إنــــزعوا مِنّيَ قـــلبي رحمةً ، كي أَستريحْ
فـأنـا ، مـا زال حُبّي نامياً ، أَبقى جريحْ

* *

أيها الهائمُ في هـذي الفلاةْ أينَ تنوي أينْ
دائماً أَلـفاكَ تـذري الـعبراتْ كـاسرَ الطرفينْ
إمسحِ الدمعَ فلا تُروي الحياةْ دمعةَ العينينْ !
أهجرِ الكونَ فمصباحُ الوجودْ ليسَ فيه زيتْ
واطلُبِ الأنوارَ في مأوى الخلودْ في قصور الموتْ

* *

إنــــزعوا مِنّيَ قــلبي رحمةً ، كي أستريحْ
فـأنـا ، مـا زالَ حُبّي نامياً ، أَبقى جريحْ

* *

أيها الحاملُ قيثارَ الشبابْ قطِّعِ الأَوتارْ
لم تعدْ ترشفُ ذيَّاكَ الرضابْ بسوى التذكارْ
أصبَحَت تلك الأُويقاتُ العِذابْ مثلَ حُلمٍ سارْ
سئمت نفسيَ أَنوارَ الصباحْ في حمى الحَدَثانْ
كلَّ ما فيه بُكاءٌ ونواحْ تشهدُ الأجفانْ

* *

إنزعوا مِنيَّ قلبي رحمةً ، كي أَستريحْ
فأنا ما زال حُبِّي نامياً أَبقى جريحْ

* *

أنتِ يا روحَ المماتِ الهائمةْ يا عروسَ النورْ
لامسي عين غرامي النائمةْ في مغاني الحورْ
واجثُمي فوقَ فؤادي لائمةْ ظلمةَ الديجورْ
علَّه إنْ يستفِقْ من سكرَتِهْ يهجر الأيامْ
ويرى الحُبَّ الذي في خمرتِهْ كلَّه أَوهامْ

* *

إنزعوا مِنيَّ قلبي رحمةً ، كي أَستريحْ
فأنا ، ما زالَ حُبِّي نامياً ، أَبقى جريحْ

في ١٦ شباط سنة ١٩٢٣

ما أنتِ من تراب

— ١ —

ألجفنُ أم الخدُّ القاني لا أَعلمُ أَيَّهما الجاني
فعلى الحالَينِ، الإِثنانِ هدما في صدري بنياني
وشرعتِ عليهِ تبنينا

— ٢ —

بنيانُكِ راسخُ آساسِ يا سلمى في صدرِ الياسِ
شدَّته الجنُّ بأَمراسِ فغدا بنيانُ الأَتعاسِ
جبلاً قد ضارعَ صنّينا

— ٣ —

لكِ خدٌّ مثلُ الوردِ ندي ما مرَّ عليه غيرُ يدي

لكن لا أَعلمُ بعدَ غدِ	إن كانَ سيأتي من جُدَدِ
ليقولوا لي: «شرفتونا»

— ٤ —

فهواكِ لقد نالَ السبقا	بسواه لساني ما ٱنطلَقَا
وفؤادي قبلاً ما عشقا	لكن مذّ مرّ به علقا
فكأنَّ هواكِ «كرنتينا»

— ٥ —

لا أَبرحُ أذكرُ ما قلتِ	من حفنةِ تربٍ ما أَنتِ
أَنصفتِ بقولكِ أَنصَفْتِ	فمنَ الأَزهارِ لقد جئتِ
وإلى الأَزهارِ تعودينا

في ٢٠ شباط سنة ١٩٢٣

وإني فتى حر

أَبى الحظُّ إلا أَنْ يُصارِعَني دهري   وما زلتُ حتى اليومَ في ميعةِ العمرِ
حملتُ على ظهري صليبَ تعاستي   ولم أَحسُ من كأسي سوى الخلِّ والمرِّ

* *

يـقـولـون عنّي إنني مـتـطـرِّفٌ   ولي مبدأٌ أَعمى جعلتُ به فخري
ولا أَنظمُ الأَشعارَ إلّا لأَنني   أؤَمِّلُ بالأَشعارِ أن يرتقي قَدري
ألا أين ما يدعون منّي تطرّفاً   ورائدُ فكري الصدقُ في السرّ والجهرِ
وماذا تريدُ الناسُ منّي فإنني   أَرى البعضَ منهم قد رمانيَ بالسحرِ
أأُلجِمُ عن حقي لسانيَ أَم تُرى   أُقيّدُ نفسي أَم أَبيعُهُمُ فكري
وإني فتى حرٌّ أسيرُ على هُدى   ضميري ولا أَهوى سوى الرجُلِ الحرِّ
بنيتُ مع الأحرارِ جسراً ممَنَّعاً   دعوني بحقّ الله أَمشي على جسري

أنشدها صاحب الديوان في الحفلة التكريـمية التي أَحيَتها نقابة العمَّال في زحله للريحاني والرصافي.

فما حاقرٌ قولَ الحكيمِ ورأيهُ وما تاركٌ نُصحَ النَّصوحِ ورا ظهري

ولا أَنظمُ الأَشعارَ للمجدِ والعُلى ولكِن شجون النفس تمرح في صدري

تمرّ على قيثارتي نفحةُ الأَسى فتصعدُ من أَوتارِها نغمةُ الشعرِ

رأَت عينيَ الدّنيا فأَذرَت دموعَها وكيف ترى الأَهوالَ عيني ولا تذري

إذا ما حكيتُ الصدق، وهو فضيلةٌ فتنعتني بنتُ الجهالةِ بالكفرِ

ولم أَرَ في الدّنيا عذيراً مدافعاً عن الحقِّ إلّا راكبَ المركبِ الوعرِ

تجنَّبُه كلُّ الشعوبِ لأنه فضيلٌ، وما للفضلِ في الكونِ من ذكرِ

* *

تعالَي فتاةَ الحبِّ نجتنبُ الريا فقد ساد في الدنيا ريا الظلمِ والمكرِ

تعالي، ففي عينيك طيفُ سعادتي يرافق سيري في حياتي إلى القبرِ

وهاتِ ليَ القيثارَ، مؤنس وحشتي لتسبحَ روحي فوقَ أَوتارِهِ الحمرِ

فنقطع ليلَ العمرِ بالأُنسِ والغنا ونصعدُ أبراجَ الكواكبِ في الفجرِ

دعي الغيرَ نشواناً بخمرةِ جهلِه يفتّشُ في الأَقدارِ عن موضعِ التبرِ

دعيه، دعيه وأتبعيني بعزّةٍ نحلّقُ في جوِّ الخيالِ مع النسرِ

هنالك حيثُ الصفوُ يؤنسُ حبَّنا ونصبو لرنّاتِ العناصرِ والزُهرِ

ولا نطيُّ الحقَّ الصريحَ برجلِنا ولا نكسبُ الأموالَ بالجورِ والغدرِ

هناك ترينَ الصدقَ يُزهرُ روضُه فتجنينَ منه للهوى أجملَ الزَهرِ

وإذ ذاكَ أُلقي في ذراعيك هامتي وأَرمي فؤادي في أَناملِكِ العشرِ

تعالَي، تعالي فالملائكُ كلُّها تقطِّرُ في جَفنيكِ قارورةَ السحرِ

وإِنْ داهمَتنا في المحبَّةِ ظلمةٌ فنأخذُ نبراساً لنا مهجةَ البَدرِ

* *

فتى الشرقِ والريحانُ في الشرق نابتٌ يفرّقُ من أَوراقِهِ أَرجَ العطرِ
لقد طالما كنتَ الأمينَ وطالما نَذرتَ له حُباً وقد قمتَ بالنذرِ
رأَيتك في بغدادَ روحاً حزينة تُطلّ على لبنانَ من كوَّةِ الدّهرِ
وتذرفُ دمعَ الحزنِ في قُطرٍ يعربٍ فتأتي به الأرواحُ من ذلكَ القُطرِ
أَمعروفُ شطرٌ من فؤادي أَذبتَه وكم مرّةً ذوَّبتَ قلبيَ في شطرِ
أَلم ترَ لبناناً يئنُّ ويشتكي ويحيا بلا صبرٍ على لهَبِ الجمرِ
لقد كانَ ليثاً في المهمَّاتِ أَظفراً وها إنه ليثٌ ولكن بلا ظفرِ
لذلك أَبكيهِ بدونِ تصبُّرٍ أما كنتَ تبكي في العراقِ بلا صبرِ

في ٢٠ حزيران سنة ١٩٢٣

فوق المقبرة

العمرُ قصرٌ نحنُ بينَ رِحابِهِ ... والموتُ منتصبٌ على أَبوابِهِ
والمرءُ إن يفخرْ بأنسابٍ له ... فالتُربُ والديدانُ من أَنسابِهِ
ما الجسمُ في هذا الوجودِ سوى بلىً ... تمشي العصورُ على أَديمِ ترابِهِ
من عهدِ آدمَ، والضريحُ مهيّأً ... وجميعُ هذا الخلقِ رهنُ طِلابِهِ
كلٌّ يغيّبه الزمانُ إلى الهبا ... وكذا الزمانُ يحينُ يومُ غِيابِهِ
والكائناتُ لدى الردى أُلعوبةٌ ... حتى الخلودُ يصيرُ من أَلعابِهِ
ما مذهبُ الدهريّ ذا لكنّما ... هو مذهب العقل الحكيمِ النابِهِ
كم من عصور قبل آدم أَدبرَت ... ومضى بها النسيانُ عند إيابِهِ
وعقيدةُ الإنسانِ راسخةٌ به ... حتى يحجّبَه الرّدى بحجابِهِ
لو كانَ يقرأُ في الأثيرِ كتابَه ... لرأى الحقيقةَ في سطورِ كتابِهِ
كم من دياناتٍ تمشَّت في الوَرى ... ذهبَ الزمانُ بها قُبيلَ ذَهابِهِ
ولسوفَ أَديانٌ تخرّب دينَنا ... وتقومُ للأيّامِ فوقَ خَرابِهِ
ما هذه الدّنيا سوى بحر طمى ... صدفُ الحياةِ تعوم فوقَ عبابِهِ

هذا يحفُّ به الغنى في راحةٍ ويعمُّ ذا فقرٌ جزا أتعابِهِ
إن كانَ جبَّارُ الطّبيعةِ عادلاً أينَ المساواةُ التي بحسابِـــهِ
أتراهُ قد خلقَ العوالمَ واكتفى بصنيعِهِ فارتاحَ فوقَ وِثابِهِ

في ٢٠ أيار سنة ١٩٢٣

*

خاطرة

لا أرى في الهوى عليكِ رقيبا فاخدعي الحبَّ واسترقِّي القلوبا
سيبينُ الخداعُ في الحُبِّ يوماً إنَّ في مقلتَيكِ سراً رهيبا
منذ عهدٍ مضى بقربِكِ عَذْباً كنتُ في شرعِكِ الغزالَ الربيبا
صرتُ أَخشى منكِ انقلاباً وأَخشى أَن يصيرَ الغزالُ، يا ميُّ، ذيبا

في ١٥ تشرين[١] سنة ١٩٢٣

إلى لورانس

— عن لامرتين بتصرّف —

يا ملاكَ الماضي ورمزَ فؤادي كيف أَمسيتَ مسكناً للفسادِ
طالما قد بحثت عن شطر نفسي باكياً فيكَ مهجتي ووِدادي
أَنتَ تحيا، أوَّاه أيَّ حياةٍ لم يكنْ ما نظرتُه باعتقادي
سكب الطهرُ في فؤادِك نفساً ليس حتى تبيعَها بالمزادِ
أَتُرى أَنت ذاكِرٌ يوم كنَّا نتلهَّى بنغمةِ الأَعوادِ
ونشيد الغدير في الليل شعرٌ مزج الحبُّ وحيَه بمدادي
عُد إلى الله يا مسبّبَ تعسي لا تخضِّب مستقبلي بالسوادِ
رَبِّ! ما كنتُ حافظاً غيرَ رسمٍ لا تكدّر ألوانه في فؤادي
عُد إلى الحبِّ لا تظلَّ بعيداً كيف يُهني لك الحياة بُعادي
وإن آخترتَ أَن تعمَّدَ أيضاً فدموعي وقفٌ لهذا العمادِ
آهِ لورانس كم رأيتك في حلم ليالِيَّ مثل زهرِ الوادي
قربك الزوج باسماً بهناءٍ وحواليك أَجملُ الأولادِ

إلى الشبح الباكي

— صاحب الكوخ الأحمر —

شبحَ الدموع تمضّك الأَتراحُ ... هوِّنْ عليكَ فكلُّنا أَشباحُ

ماذا تؤَملُ من رحيقٍ فاسدٍ ... قد زخرفَت ألوانَهُ الأَقداحُ

هذا الوجودُ جنينةٌ مرغوبةٌ ... قد غرَّ فيها آدمَ، التفّاحُ

هذا الوجودُ مشانقٌ نُصبت لنا ... والظلمُ في ساحاتِها السفَّاحُ

أَوَ ما ترى الفلاَّحَ بعدَ جهادِهِ ... يلقى الشقاءَ لأنه فلاَّحُ

فكأَنَّ إكرامَ الفقيرِ محرَّمٌ ... وكأنَّ إكرامَ الغنيِّ مُباحُ

تلكَ الجفونُ وقد ذرفت دموعها ... أيرودُ خلف سجوفها الإصلاحُ؟

إن كانَ ذرفُ الدمع يُصلحُ أمةً ... فمدامـــــعٌ في أُمتي ونُواحُ

* *

في دمعةِ التُعساءِ سرٌّ كامنٌ ... هو خلفَ ليلِ الظالمينَ صباحُ

تلك المباني سوف تهدم ركنها ... من عاصفاتِ حياتنا الأَرواحُ

أَذرِ الدموعَ فما الدموعُ سوى ندى ... هذي الحياة ، وعرفُه فيَّاحُ

ما الدمعُ إلا الراح في كأسِ الورى ... وستسكر الأكوانَ هذي الراحُ

يا مَن طلى بدمِ الفقيرِ عروشَه ونراه يجلس فوقها يرتاحُ
هذي العروضُ جماجمٌ مرصوفةٌ في جوفِها تتمرَّدُ الأرواحُ

* *

رأيتك يا شبحَ الحزنِ تبكي وما في الوجود سوى المفتري
إذا كنتَ تنشد تلك العدا لةَ فاْذهب إلى كوخِك الأحمرِ

* *

كم قد رأَيتك، والظلامُ مخيّمٌ تنسلّ تحت سدولِه الآثامُ
تشدو على القيثارِ أَنغامَ الأَسى فتجيبُك الأَوجاعُ والآلامُ
إذهب لكوخِك، فالسلامُ مجسَّمٌ فيه، وما في ذا الوجودِ سلامُ
إذهب إليه فسوف تأتي ساعةٌ فيها تعضُّ بنانها الظلاَّمُ
إسهر على تقويضِ أَركانِ الريا واْتركْ عيونَ الأَغنياءِ تنامُ
أَرواحهم بالمالِ تحلمُ، طالما قد أَزعجتهم هذه الأحلامُ

* *

رأَيتك يا شبحَ الحزنِ تبكي وما في الوجودِ سوى المفتري
إذا كنتَ تنشد تلك العدا لةَ فاْذهب إلى كوخِكَ الأحمرِ

في ٤ آب سنة ١٩٢٣

إلى مصر

خففتُ إلى أَوجِ العُلى بمقاصدي   فأَرجعني صفرَ اليدينِ حواسدي
وكم في رُبى لبنان من ذي مكيدةٍ   وما رائدُ الحسَّادِ غير المكائدِ
يقولون عنّي عند أوَّلِ نظرةٍ   هو الحزنُ في جسمٍ من السقمِ واردِ
أُصيبَ بمسٍّ من جنون مزاولٍ   يُرأرئُ بالعينين نحو الفراقدِ
كأنَّ العُلى في مضربِ النجمِ رابضٌ   يُخال إليه هابطاً بقلائدِ
فينظمُ فيه للوجودِ قصائداً   ألسنا نراه ذائباً في القصائدِ

* *

أجل، إنني للمجد أَسعى وموطني   يقصِّرُ عن إدراكِ مجديَ ساعدي
وفيه رجال كالأَساودِ شيمةً   وماذا أُرجّي من سمومِ الأَساودِ

* *

رأتني خَريدٌ، عندها من جمالها   طلائعُ، ليست في الحسانِ الخرائدِ
منهَّدةُ الثديينِ، باسمةُ اللمى   وليست على ضعفِ الثديّ النواهدِ
فقالت: لماذا لا نرى لك بسمةً   تعوّدك الدنيا على ذي العوائدِ
كأنّك مولود لتلبثَ شارداً   وما راقتِ الأَكوانُ يوماً لشاردِ

فقلتُ لها : لا أعرفُ الخبثَ والريا　　لأسلكَ مع رهطٍ بلبنان ، فاسِدِ

وُلدتُ وفي صدري مزيجٌ من العُلى　　وما رائدي إلّا كرائدِ والدي

إلى مصرَ رَحلي يا ٱبنةَ الجارِ إنني　　سأَتركُ أَهلي في الحِمى غير واجِدِ

ففي أَبطحِ الأهرامِ يبسمُ لي غدٌ　　وإنَّ هنا يومي يجورُ على غدي

لقد حانَ بُعدي عن بلادٍ خبرتها　　وكم راق عيشٌ للفتى المتباعدِ

فيا حبّذا تلك الكنانة مورداً　　تحدَّر فيها النيلُ عذبَ المواردِ

هناك أبو الخيراتِ فيه فوائدٌ　　تفيضُ على مَن جاءَه للفوائدِ

وليس يضيعُ السعيُ فيه لجاهدٍ　　وكَم ضاعَ في لبنانَ سعيٌ لجاهدِ

غدا وطنُ الأَحرارِ سلعةَ تاجرٍ　　تُباعُ وتُشرى خلسةً في المعابدِ

وللحرِّ آمالٌ يراها مشاهداً　　تريه بأمّ العين أنكى المشاهدِ

هو الحرُّ في لبنانَ أصبحَ جانياً　　يجور عليه ظلمُ تلك العقائدِ

تبيدُ مبادي الكلِّ مع كلّ بائدٍ　　ولكنَّ مبدا الحرّ ليس ببائدِ

زهدتُ بلادي ، فٱتركي لي لبانةً　　أمدُّ إليها في شسوعِ المدى يدي

لعلَّ بلادي إنْ رأَتنِيَ نائياً　　تحنُّ إلى مرأَى الهوى في نشائدي

في ٢٧ آب سنة ١٩٢٣

الفقير

كم سهرتُ الساعاتِ في الظلماءِ أرصدُ النُّجمَ في فسيحِ الفضاءِ
وزفيرُ الفؤادِ يعلو تباعاً فتوافيهِ مُقلتي بالبُكاءِ
شاعر الحُبِّ قيل عنّيَ قبلاً لكن اليوم شاعرُ البؤساءِ

* *

بسمَ المرجُ للربيعِ وجفَّت أَدمعُ الغيثِ في عيونِ الشتاءِ
وتعالى عَرفُ الأَزاهرِ لمَّا انفرجت عن مباسمِ العذراءِ
قرب ذاك الغدير في المرجِ طيفٌ شاحبُ الوجهِ بارزُ الأَعضاءِ
نسجَ الجوعُ فوقَ عينيه ستراً لا نراه في أَعينِ الأَحياءِ
يتخطَّى إلى الأَمامِ قليلاً ثم يعدو بسرعةٍ للوراءِ
فكأنَّ الحِمامَ يبحث عنه وهو يرجو النجاةَ بالالتجاءِ
بائسٌ، والحياةُ تأنفُ منه كبقايا الحطامِ في الدأماءِ
إنّه بدعةٌ من الله، لكن أَنكرَته جماعةُ الأغنياءِ
لا عزاء ينسيه بعضَ عذابٍ في ليالي شقائِهِ السوداءِ
غيرُ نُجمِ الفضا تطلُّ عليه كعيونِ السما، من العلياءِ

حـاملاتٍ سرَّ الحياةِ غـريبـاً فيرى فيـه روح سرّ الضياءِ
يـتـعزّى إذ ذاك بعض عزاءٍ مـا تـراهُ يـفـيـدُ بعض العزاءِ
تـارةً يـسـمـعُ الـغـديـرَ يـغـنّي فـيـوافـيـه صـوتُـه بـالـغـنـاءِ
وغـنـاءُ الـغـديرِ مـاءٌ قـراحٌ وغـنـاءُ الـفـقـيـرِ رَجـوٌ غـذاءِ
تتراءى لـه الـكـواكـبُ طَـوراً كـدنـانـيـرَ أُلـقـيَـت في الهواءِ
فـيـمـدُّ الـيـديـن لهفاً إليها غير أنَّ الـفـضـا من البخلاءِ
طردتـه مدينة الفحشِ والظُلـ ـمِ فـآواهُ مـهـبـط الـفـقـراءِ
ذلك المهبط الذي عاش فيه هـومـيروسُ الـكبيرُ في الشعراءِ

* *

حَشرَجتْ روحه صباحَ نهارٍ بـعـذابٍ فـقـاءَهـا في المساءِ
وعلى الزهرِ أَدمعٌ من عيونِ الـ ـفَجرِ ما جُفِّفَتْ بنورِ ذُكاءِ
فـكـأنَّ الـدمـوعَ ، مـضـطـربـاتٍ في الليالي ، مراشفُ الضعفاءِ
تصرخ الله في الأعالي انتقاماً من أُولي الجور من أُولي الإثراءِ

* *

أَغربي يا مدينةَ العارِ إنَّ الـ ـمـرجَ مـهـدٌ لـدولـةِ الأَنـبياءِ
هو مأوى الزهورِ ، والزهرُ طهرٌ نثرَته في المرج ، روحُ السماءِ
أَغربي يا جهنَّماً فوقَ أَرضٍ ما رأينا فيها سوى الفحشاءِ
فالشياطينُ من بني الأرضِ أقوا مٌ هـمُ سادةٌ مـن الـزعـمـاءِ
كثُرَ الإثمُ في الوجودِ فيـا ربّ تـرحَّمْ واَعطُف على التُعساءِ
هـل خـلـقـتَ الـغـنـيَّ لـلـمجدِ؟ والبائسَ أَوجدتَهُ ، تُرى ، للشقاءِ

في ٢٧ أيلول سنة ١٩٢٣

المجدلية والمسيح

غسلَ البدرُ بالضياءِ الظلاما ... وبكى ، والدموعُ كانت هياما
ومشى النُّجمُ خلفَه بخشوعٍ ... فكأَنَّ النجومَ صارت يتامى
وحشةُ الليلِ ، والسكينةُ والصمـ ... ـتُ ، ومرُّ النسيمِ ، كان كلاما
فكأَنَّ الوجودَ أَنطقَه الحز ... نُ فجاءَت أَلفاظُه آلاما
والفضا شاخصٌ إلى الجبلِ العا ... لي يناجي الربوعَ والآكاما
فتُجيبُ الربوعُ بالصمتِ والدمـ ... ـعِ ولا تنبسُ الشفاهُ احتراما
ماتَ فَوقَ الصليبِ مَن كان يهوى ... ويرى الحُبَّ للنفوسِ سلاما
فصليبُ الآثامِ ما زال حيّاً ... وصليبُ السلامِ صار رُغاما

* *

ما وراءَ الأدغالِ مرَّ خيال ... حمَّلَ القلبَ أَدمعاً وكلاما
كان يمشي الطريق مهلاً ولكن ... عندما قاربَ الصليبَ ترامى
هـذه مجدلـيّة الحزن جاءَت ... تطرحُ الحُبَّ للمسيحِ طعاما
طالما في الحياةِ غذَّته بالحُـ ... ـبِّ وروّته من هواها مداما
إِنَّ للموتِ مهجةً وفؤاداً ... يَنشدانِ الحياةَ عاماً فعاما

لا تموتُ القلوبُ إن سكَبت في	جوفها أنملُ السماءِ غراما
نَظَرَتْ نظرةَ الوداعِ إليه	فبكَت أَدمع الهيامِ سجاما
ورأَت من جبينِه، الجرحَ يُدمي	ورأَت فوق وجنَتَيه الحِماما
ورأَت، يا لَهولِ ما قد رأَته،	شبح الروح دامعاً بسَّاما
شبح الحُبِّ حاملاً في يديه	قلبَ حسناءَ خافقاً مستهاما
هو رمز لقلب مريم، رمز	لغرامٍ، رأَى الحياةَ سآما
فتوارى ينامُ في الموتِ لكن	قد أعدَّ الخلودَ فيه مناما
صرخَت مريمٌ بقلبٍ جريحٍ	أَبظلمٍ قد نفَّذوا الإعداما
جئتَ توحي روحَ السلام إليهم	ما لهم عزَّزوا بك الآثاما
يا حبيبي، إجعل جروحَ فؤادي	أَن تبُلّ الدماءُ منها أُواما
فأُروّيكَ من دمائي بكأسٍ	حملت في شعاعِها الأياما
يا حبيبي، ما للزهور حزانى	مُطبقاتٍ على الجمالِ الكماما
والغديرُ المنسابُ يجري رهيباً	مُنشداً في نحيبه الأنغاما
ما لعينيَّ تغشيانِ رويداً	ورويداً تطاردانِ الأَناما
آه، إنَّ العيونَ بالحُبِّ تحيا	فإذا فورقت تصيرُ أيامى
سأُوافيكَ عن قريبٍ فهيّئ	خيمةَ الحبِّ بين زهرِ الخُزامى
فتعيد الزهورُ ذكرَ حياةٍ	سنَّ فيها لنا الغرامُ نظاما

* *

عند هذا رأس المسيح ٱستقاما	فإذا الشوك قد تخطَّى العِظاما
والجبينُ المشوكُ ينسجُ للوَجْـ	ـهِ من المصل والدماء لثاما
وبجنحِ الدُجى أَفاقَ من المو	تِ بكيّاً، والدمع كان هياما

ولَدُن أبصر الحبيبةَ تبكي   أَطبقَ الجفنَ في الخلودِ وناما ! !

بعد عشرين جيلاً :

في سماءِ الخلودِ خيمةُ زهرٍ   حيث عيسى ومريمٌ قد أَقاما
خيمةٌ للهوى يبطِّنُها الحُـ   ـبُّ ويأبى وجودُها الإِنصراما
نعِمَ العاشقانِ فيها طويلاً   وتناسى قلباهُما الأَسقاما
فعذابُ الساعاتِ كانت خلوداً   أبديّاً ؛ ولم تكن أحلاما
وآستفاقَ المسيحُ من سكرةِ الحُـ   ـبِّ يخالُ السماءَ أَمست ضراما
فرأَى الكونَ باضطرابٍ عظيمٍ   ورأَى في شعوبِهِ الإجراما
سنَّةُ الظلمِ سار كلٌّ عليها   وغدا العدلُ شِرّةً وغُراما
وآستمرَّ اللئيمُ في حوبةِ اللؤ   مِ فأَمنست كلّ الشعوب لئاما
فرَّقَ الناسَ دينُهم ، لا سلامٌ   يجعلُ الرفقَ بينهم ، والوئاما
فسلامُ الوفاقِ صار حروباً   وصليبُ الوئامِ صار حساما
فبكى اليوم للسلام ، ولكنْ   ما بكاهُ بالأمسِ كان خِصاما

في ١١ تشرين٢ سنة ١٩٢٣

إلى فيلكس فارس

عرفتُ فيك النبل يا شاعري فهل لإخوانِك أَن يعرفوكْ
جاهدتَ جهد البطل الصابرِ فهل لعشاقك أَن يعضدوكْ

* *

كتبتَ بالدمع نشيدَ الإخاء وبالدمِ الطاهرِ ما سجلا
فإن هُمُ خانوك خانوا الإباء وإن أَجابوك أَجابوا العلى

* *

أنت سليلُ الصدق نبت الشرف في قلبك الخافق قلب البلادْ
كم خُلق في موطني من خزف تحطمه الغاي وكم من فؤادْ

* *

يا منصلاً أَغمدت عهداً طويل عار على الأُمة أن تغمدَكْ
إخرج فقد آن أَوانُ الصليل وحقّ للإخلاصِ أَن يعضُدَكْ

إلى بدوية جميلة

«كانت تدخن النارجيلة في حديقة شرقية».

— عن لامرتين بتصرّف —

مَن أَنتِ؟ يا بنتَ الأُلى وجَدوكِ … في روضةِ الدّنيا بغيرِ شريكِ
أَنتِ ٱبنةُ الشرقِ المكلَّلِ رأسه … بورودِ أُمكِ أو سيوفِ أَبيكِ
تـدْعين قيثاري، وقد حطَّمتِهِ … لـيحرِّكَ الأَوتارَ في ناديكِ
يا زهرةَ الشرقِ المضمَّخِ عرفُها … يلهو النسيمُ بخصرِكِ المفكوكِ
والبلبلُ الغرِّيدُ، يسكبُ لحنَه … في كمِّكِ المفتوحِ، للساقيكِ
الشعرُ في ألحاظِ عينِك نائمٌ … وإِذا وَددتِ يُفيقُ بالتحريكِ
لكن إذا ما شاءَ لحظُك أَن يرى … في الشعرِ أجملَ منظرٍ يسبيكِ
فتأَملي في الحوضِ حسنَكِ مشرقاً … فبدائع الأَشعارِ لا تحكيكِ
قد أَفرغَ البدرُ المنيرُ ضياءَهُ … في خيمةِ الزهرِ التي تأويكِ
وإلى الوسادِ مذ ٱستندتِ لراحةٍ … بالنارجيلةِ كلُّهم جاؤُوكِ
أَدنت يداكِ من اللمى نربيجها … متبطّناً بالزنبقِ المحبوكِ
لـمَّا نشقتِ أَريجَها بتدلّلٍ … خفقت عواطف صدرِها «المنهوكِ»

إنّي اَستعدتُ لَدُن رأَيْتُكِ صبوتي　　　فوجدتها أَشهى وأعذبَ فيكِ
لكن شبابي والغرامُ تلاشيا　　　فهما كنفخةِ دُخنةٍ من فيكِ
لم أَنسَ يومَ علوتِ متنَ مطهَّمٍ　　　وكبحتِهِ بشكيمةِ المملوكِ
هو في جيادِ أبيكِ سيّد قومِه　　　ويسيرُ بين يديكِ كالصعلوكِ
لم أَنسَ زندَكِ مثل حَلْقةِ قربةٍ　　　ولمى شفاهكِ مثلُ عُرفِ الديكِ
وأَشعَّةً من بدرِ ليلكِ نوَّرَت　　　ياقوتَ خنجرِ خصرِكِ المشكوكِ
إنّي قطعتُ من الحياةِ ورودَها　　　ورميتُها في الشاطئ المتروكِ
فأَتت غضابُ البحر تجرفُها إلى　　　اللجج العميقةِ بالرياحِ النوكِ
كانت ورودُ الصدر تنفح مهجتي　　　بأَريجِ حبٍّ باسمٍ وضحوكِ
كم كنتُ أَنشدتُ القريضَ مسلسلاً　　　لو كان في العشرين عمر أَخيكِ
لعبارةٍ أو نظرةٍ من أَجلها　　　عبدَ الرجالُ الطهرَ مذ عبدوكِ

في ٣ كانون أول سنة ١٩٢٤

الحسون السجين

— ١ —

مـاذا تُسـرُّ إلى الـقـمرْ يـا أيها الـطيـرُ السجينْ
هل أَنتَ مثلي في السهرْ تشـكـو عـذابَكَ لـلسنينْ
أَم تشتكي ظلمَ البَشَرْ؟

— ٢ —

في قلبكِ العاني الكسيرْ سرٌّ تـوارى في الـدّجى
وحـواجـزُ القفصِ الصغيرْ قـد أطـفـأَتْ نورَ الرجا
لمَّا غدوتَ به أَسيرْ

— ٣ —

قـد كـنتَ حرّاً مـطـلقا في جوِّكَ الصافي الوسيعْ
تشـدو هـيـامَك شيِّقـا لأَريجِ زهرِكَ في الربيعْ
وتؤمُّ غصناً مورقا

— ٤ —

قل ما تُسرُّ إلى الظلامْ والزّهرُ فيه سامعهْ
والقومُ كلّهم نيامْ حتى الطبيعةُ هاجعهْ
حتى فؤادي المستهامْ؟

— ٥ —

أَسألتهُ ماذا يرى في ذلك الغاب الكثيفْ
وعلى الهضابِ وفي الذّرى وهناك في الحقلِ اللطيفْ
حيثُ النسيمُ تكوثرا؟

— ٦ —

أَسأَلتهُ هل باقيهْ تلك النضارةُ في الحقولْ
ومياه تلك الساقيهْ ورسوم هاتيك الطلولْ
وزهور تلك الرابيهْ؟

— ٧ —

ورفاق ساعاتي العِذابْ سمَّار قلبي الشيِّقِ
هل أصبَحتْ قيدَ العذابْ في مثلِ سجني الضيِّقِ
أم لا تزالُ على الهِضابْ؟

— ٨ —

أَسأَلتـهُ عـن طـائـرِ في كُلِّ ليلٍ أو صباحْ
فـوقَ الـنسـيمِ السائرِ حملَ الطعامَ على الجناحْ
وأَتى به لأَصاغرِ؟

— ٩ —

تـلك الصـغار شقـائـقُ لك يا شبيهي في المحنْ
أنتَ الأسيـــرُ الخافـقُ كخفوقِ قلبي في البَدَنْ
والفرق أَني عاشقُ!

— ١٠ —

يـا طيرُ إنك في الأَلَمْ رمــزٌ لهذا المرقـــمِ
يبـكي ويـنـحبُ بـالنَغَمْ وبمدمـعٍ مـن عَنـدمِ
وفؤاد ظالمِه أَصمْ!

كنتُ أكتب هذه الأبيات وأنا أمام قفصِ الطائرِ السجين، ولما انتهيت إلى هذا المقطع قرأتها على الحاضرين، فنهضت سيدة المنزل في الحال وأتت بالحسون ليشكرَني على عاطفتي نحوه، غير أنها ما كادت تقرّبه مني حتى أفلت من يدها وطار تاركاً في أناملها وعلى الأَرضِ نُثاراً من ريشه الملوَّنِ، فعدت كتبت ما يلي:

— ١١ —

يـا طـيرُ أين المقصـدُ والـلـيـلُ منسـدلُ الجناحْ

فطيور عشِّكَ ترقدُ حتى يفاجئَها الصباحْ
ولَدُنْ تفيقُ تغرّدُ...

— ١٢ —

يا طيرُ ما تستنظرُ في الحقلِ، واليوم الشتاءْ
أَتُراكَ لا تستأسرُ ولو أنَّ عندَك ما تشاءْ
وتحبُّ مَن يتحرّرُ؟

— ١٣ —

ولما ترى أَبقى لنا من ريش حُسنِك جانحاكْ
أَلكي يذكِّرنا الغنا ءَ لعلَّنا نبكي غناكْ
ولعلَّنا ولعلّنا؟

— ١٤ —

يا طيرُ إنك صادقُ والمرءُ غدّارٌ كذوبْ
فإذا عشقتَ فعاشقُ تضع الصداقةَ في القلوبْ
والمرءُ باغٍ فاسقُ!!

في ٦ كانون[٢] سنة ١٩٢٤

جرس الحزن

أَيا جرساً في هوّةِ الدمعِ ناحباً　　نحيبُك ألحانُ الطبيعةِ والعمرِ
سمعتك جهراً تسكب الدمع في الورى　　ولكنَّ هذا الجهرَ روحٌ من السرِّ
أَصخْ، عندما الحفَّارُ بعد تهدّمي　　يعيد بقايا العفر مِنّيَ للعفرِ
بقايا هي الآلامُ والدمعُ والأسى　　هي ابنةُ ليلٍ تنتحي عالمَ الفجرِ
ترحَّمْ ولا تجعلْ رنينَكَ محزناً　　ودقَّ بألحانِ الحبورِ على قبري
وشابِهْ دويّ القيدِ حين رمى به　　على سُدّةِ السجنِ، الطليقُ من الأسرِ

في ١٥ كانون[٢] سنة ١٩٢٤

حديث الزهرة الذابلة

لقد مرّ بي أمسِ بالصدفةِ فتاةٌ لها الحسنُ في الوجنةِ
فلم تتردّدْ بأنْ قطفتني فشعَّت على شعرِها نجمتي
ولم يمضِ يومانِ حتى ذبلتُ فأُسقطتُ صفراءَ كالميتةِ
وصِرتُ أُداسُ بأقدامِها إلى أنْ رمَتني من الشرفةِ

* *

وفي الصبحِ أَبصرَني عابرٌ وقد شمَّ بي أَرَجَ النكهةِ
فحنَّ عليّ، وقرّب منّي عيونَ التساؤلِ عن حالتي
وقد لمَّني بخشوعٍ وقال: تعالَيْ أُروِّكِ من دمعتي
تعالي فإنَّكِ رمزٌ لقلبي ورمزٌ لعمريَ في شقوَتي
تعالي فإنَّ ذبولكِ يحكي ذبولَ الفضيلةِ والنعمةِ
يعفِّرُكِ الناسُ تحت النعالِ وأَنتِ تجودينَ بالنفحةِ
فكلّ الذين أَساؤوا إليكِ أَجدتِ عليهم بالرحمةِ
تعاليْ فبستانُكِ الصدر، والقلب يروِّيكِ، من منهلِ المهجةِ

في ٢٦ كانون[1] سنة ١٩٢٣

إلى شاعر حزين

نظم الشاعر الرقيق شفيق أفندي معلوف أبياتاً في فتاة بكت لقصيدة من الشعر فأجابه صاحب الديوان بهذه الأبيات عن لسان الفتاة .

شاعرَ الدمع ، ما جنيتُ بشيءٍ　　فدموعي الخرساءُ أَطيبُ لحنِ
أنا قيثارةٌ، ضربتَ عليها　　فبكى لحنُها ، وأَنت المغنّي
فكلانا نشدو على مسمعِ الحُـ　　ـبِّ ونتلو آياته بتأَنِّ
ودموعي رسَّامةٌ في خدودي　　نغَماتِ الهوى بأتقنِ فنِّ

في ٢١ ك٢ سنة ١٩٢٣

لا تعطِ الحب

مدام مرسلين ده بورد قلمور شاعرة إفرنسية وُلدت في دوى سنة ١٧٨٦ من عائلة شريفة وغنيَّة ، غير أن الثورة الإفرنسية أخنت على تلك العائلة ، فرحلت بها أمها وكانت في الرابعة عشرة من عمرها ، الى الغوادلوب حيث لجأتا إلى قريب أثرى هناك ، ولكنَّ النحس ظلَّ تابعهما إذ أن القريب مات بعد أن احترق محلّه وانكسر إسمه ، وبعد أسبوع ماتت الأم بالحمى ، وهكذا ظلّت مرسلين شقيّة إلى أن قيّض الله لها امرأةً غنيّة أعادتها معها إلى فرنسا ، وكانت ذات صوت شجي فغنَّت في الأوبرا ومثَّلت مع جوقات عديدة الى أن صادفت الرجل الذي تقدَّم له قلبها نقياً طاهراً وهو الممثل قلمور ، ولكن حبها وعطفها لهذا الممثل ماجوزيا بغير الخيانة فهجرها ، عند هذا أخذت تكتب قصائده بدموع قلبها ، ومنها هذه القصيدة :

ما أَرى ؟ إنَّ ما أَراهُ وجيعُ ووجيعٌ ما تحتويهِ الضلوعُ
أَوَمَا حُبُّه الذي أَقتفيه بعيونٍ تبكي وقلبٍ يجوعُ
أَوَمَا صوتُه الذي حملته نسماتٌ مع الأَثيرِ تضوعُ
فانتهى في الدّجى إليَّ لطيفاً ولطيفٌ صوت الحبيبِ المطيعُ
أَينَ مَن كانَ ساكناً في عيوني أَينَ حُبّي وأَينَ ذاكَ الهجوعُ
كلُّ شيءٍ إلا النفوسُ تلاشى ذائباً مثلما تذوبُ الشموعُ
إنَّ للنفسِ في الحياةِ خلوداً ليس للنفسِ ميتةٌ أَو نزوعُ
فكأنَّ الخلودَ يُثقلُ نفسي وقعُه المرُّ في فؤادي فظيعُ

لم يعدْ سهدُ أعيني لحبيبي   لم يعدْ للهوى إليَّ رجوعُ
فبكتني عروسةُ الشعر لكن   لا تروّي الفؤادَ تلك الدموعُ
أيّها الحُبُّ قد وهبتك قلبي   يوم كان الهوى وكان الربيعُ
قيلَ لي قد أَضعتَهُ يا ظلوماً   كلّ شيءٍ يُعطى إليكَ يضيعُ

في ٢٥ تشرين[٢] سنة ١٩٢٣

يا ارغن الوادي

هل إنَّ فكرَك من يراعِك أَسرعُ ... أَم إنَّ نثرَك من نظيمِكَ أَبدعُ

لله مـوهبـةٌ يحارُ بها الحجى ... أَرجُ الشـعورِ بروضِها يتضوَّعُ

يا ٱبنَ الربيعِ ، وفي الربيعِ أَزاهرٌ ... مثل الكواكبِ في سمائكِ تلمعُ

كيف ٱنثنيتَ عن النظيمِ مخيّراً ... وتركتَ شعركَ في دماغِكَ يهجعُ

يا ٱبنَ الخيالِ ، وفي الخيالِ حقيقةٌ ... بصرُ الـوجودِ أمامها يتخشَّعُ

كم مرَّةٍ وقَّعتَ شِعرَكَ نغمةً ... والـليلُ أَنصتَ مُصغياً يتسمَّعُ

يا أرغنَ «الوادي» وفي الوادي هوى ... يصبـو إلـيك فؤادُهُ والأضلعُ

لـقَّـنتَـهُ شدوَ الهيـامِ مـودِّعـاً ... ورحـلتَ عنه ، والعيونُ تودّعُ

أَشفيق ، لا «برَدى» ولا «فيحاؤه» ... إن كان «برَدَونيُّ» وحيك يدمعُ

إسمعْ أنـيناً صادراً من غورِهِ ... فـإذا سمعتَ أَنيـنَـهُ تـتـوجَّـعُ

يا شاعرَ الآلامِ ، لا تكُ يائساً ... فكواكبُ الإلهامِ فوقَكَ تسطعُ

لا تقطعِ الأَوتارَ من قيثارةٍ ... نـغماتُـهـا في الشعرِ لا تتقطَّعُ

في ٣ أيار سنة ١٩٢٣

قصيدة بعث بها إلى صديقه الشاعر الرقيق شفيق أفندي معلوف بدمشق

أنشودة العمال

بينما كان فتى المستقبلِ سائراً بين غياضِ الجبلِ
بَدَرَتْ من مُقلتَيهِ لفتةٌ فرأى وجهَ غزالٍ مُقبلِ
هو ظبيٌ يتثنّى باسماً بين زهرٍ باسمٍ للطلَلِ
ذاك ظبيُ العزِّ في المستقبلِ يتراءى قادماً في عَجَلِ
سكب الفجرُ عليه كأسَه وسقاهُ من رحيقٍ سلسلِ
بين عينيه تراءى هيكلٌ سجد الحسنُ بذاكَ الهيكلِ
أرسلَ الشعرُ إليهِ راهباً فغدا محتفلاً بالمرسَلِ
ثغرُهُ قارورةٌ من عسلٍ مزجت مرشفَه بالعسَلِ
وله في وجنتيه آيةٌ هبط السحرُ عليها من عَلِ
عندها هاروتُ أَلقى طرفَه صاح من وهلتِهِ وآخجلي
وانثنى من وجهه مستعجلاً راغباً في مشيةِ المستعجلِ
أَقبلَ الظبيُ على ذاكَ الفتى مسترقّاً فيه قلبَ الرجلِ
وأراهُ منجلاً في يدِهِ قائلاً : سرُّ الهوى في المنجَلِ
إن تَرُمْ تقرن بالمجدِ الهوى فتجنَّبْ عادياتِ الكسلِ

هوذا المنجلُ فاْطلبْ عملاً   إنما المنـجلُ رمزُ العملِ
شارِكِ العمَّالَ في مهنتِهِم   واْجتهِدْ في كُلِّ أَمرٍ تَصِلِ
إنما العمّالُ أَركانٌ إذا   هبطَت يهبِطُ مجدُ الدوَلِ
حينذا هبَّت نسيماتُ الصَبا   مُنشِداتٍ معَ لحنِ البلبلِ
وتوارى الظبيُ عنه عندما   حرَّكَت لطفاً مياه الجدولِ
شعر الصبُّ بحُبٍّ لم يكن   غير سهمٍ من فؤاد المبتلي
غلبَ الحزنُ عليه إنما   لم يكنْ يقطع حبلَ الأَمَلِ
قال لا بدَّ لجفني مرةً   أَن يراهُ راتعاً في منزلي
سأُضحِّي كلَّ ما عندي فلا   بدَّ لي من قلبِهِ، لا بدَّ لي
حينذا أَصغى لصوتٍ قائلٍ:   لن تنالَ الغايَ فوقَ المخملِ
إن ترمْ تهوى غزالاً فاْقتَرِنْ   قبل هذا بعروسِ العملِ

في ٢١ نيسان سنة ٩٢٣

ماذا أودّ لكِ

أَوَدُّ لعينيكِ نورَ الهلالِ يُنارُ به الحلكُ الأدهمُ
وللشعرِ منكِ سوادَ الظلامِ يضلُّ به العاشقُ المغرَمُ
أَودُّ لقلبكِ حبّاً شريفاً فيرحم حُبّي ولا يظلمُ
وللنفسِ منكِ إباءً وحلماً إذا ما رأَتْ مُذنباً تحملُ
أَودُّ لرجلِكِ ليلَ الوجودِ حذاءً، مساميرُهُ الأَنجمُ
لكيما إذا دستِ صدريَ يوماً تنارُ بداخلهِ الأَعظُمُ

في ١٣ آذار سنة ١٩٢٣

لا ترحم

اللّيلُ في صدري بدا يُظلمُ   لا كوكبٌ فيه ولا أنجُمُ
يعثرُ قلبي، هائماً في الدّجى،   بأعظُمِ الصدرِ، فلا يسلمُ
إن يَكُ ظمآناً فما من دمٍ   جفَّت عروقي ليس فيها دمُ
وإن يكُن جاعَ فلا مأكلٌ   يغذوهُ إلاَّ ذلكَ العلقمُ
يشقى ولا يعلمُ ماذا به   يذوبُ كالشمعِ، ولا يعلمُ
ورغمَ هذا عند مرأى الهوى   يُقدم كالنمرِ ولا يُحجمُ
طوائفُ الجنِّ تراءت له   فخافَ منها الحلكُ الأدهمُ
واتّخذت في جنبه مسكناً   تُفشي إليه الويلَ، لا تكتمُ
لمّا رآهُ حبُّه، قال لي   هذا عظيمٌ، قلتُ بل أعظمُ
قال: وأين الله؟ قلتُ اقتضى   في الشرعِ ألاَّ يُرحمَ المغرمُ
قالَ: وأين العدل؟ قلتُ انثنى   من هذه الدنيا فلا يقدُمُ
قال عجيبٌ، ليس من راحمٍ   وأين سلمى؟ قلتُ لا ترحمُ!

في ١٧ آذار سنة ١٩٢٢

مناجاة بلبل

ثملتُ بشدوِكَ يا بلبلُ ... وكيف بشدوِكَ لا أثملُ
أَعَدتَ إلى القلبِ ذكرى الجمالِ ... فأَنتَ بتذكارِهِ أجملُ
نقَلتَ إلى مسمعي صوتَ حُبّي ... نعمتَ ونِعمَ الذي تنقلُ
كأنّكَ أُرسلتَ تلعبُ دوراً ... جميلاً بقلبيَ يا مُرسَلُ
تنقَّلْ، تنقَّلْ على الغصنِ وآرفل ... فشدوُكَ في مهجتي يرفلُ
فعمَّا قريبٍ ستارُ حياتي ... على كلِّ ما مرَّ بي يُسدَلُ
ولكن غداً حين أُمسي رفاتاً ... ويحجبُني قبريَ المقفَلُ
تعالَ فتلفي فؤاديَ حيّاً ... كزهرة «توتنخَ» لا يذبلُ
تعالَ وأَنشد قليلاً، فإني ... على رغمِ ما حلَّ بي أَجزلُ
فصوتُكَ شعرٌ يجولُ بفكريَ ... موحى من الله أو مُنزَلُ
تعالَ تجِدْ فوقَ قبريَ صخراً ... كهمِّي الثقيلِ الذي أَحملُ
وصفصافةً تنحني تارةً ... وطوراً تلاعبها الشمألُ
وبالقربِ من ذلك القبرِ وادٍ ... رهيبٌ تخلَّله جدولُ
تمرُّ عليه السنونو عجالى ... ومَن مرَّ كالطيرِ يستعجلُ

فهذي الطيورُ، كأفراح قلبي   تطيرُ سراعاً ولا تمهلُ
ويخلفها الألمُ المستزيدُ   فيفعلُ في الصدرِ ما يفعلُ
تعالَ غداً حين أمسي وحيداً   وزرنيَ زورةَ مَن يسألُ
وأَسمع فؤاديَ لحناً شجيًّا   فيحيا به حبُّهُ الأوَّلُ

في ٢٣ شباط سنة ١٩٢٣

ما لي جَلَد

قـالـوا لها ماذا فعلتِ بجفنِ ذيَّـــاكَ الأَسَدْ
فتراه يـنـشـرُ دمـعَـه في كـلّ يومٍ كـالـبَرَدْ
قالت ، وقد بسمت لهم وَقـعَ المتـيَّـمُ في فَنَدْ
أنــزلــتُـه في وهــدةٍ منهـا هـواهُ مـا صَعَدْ
قـالوا لها أَوَمـا حرامٌ أَن يُلازِمَــهُ الـنَـكَـدْ
عـبثَ الـغـرامُ بـه ولم يُبقِ السقـامُ له جسَدْ
قــالت دعـوه وشأنــه مَنْ خالَ أَنَّ الحُبَّ دَدْ
عـهدي بـه رجلاً ، إذا هـو في مصـائـبِـه وَلَـدْ
قـالـوا لها أَضــنـيـتِـهِ فـهـواكِ من دمِه ٱستمَدْ
دمُـهُ لـديكِ وقـد بـدا أثـرٌ لـه في كـلّ خَـدْ
فـتـمـلـملت لـيلى وقـد فقدت من الغيظِ الرشدْ
حسنـاً أَجـابَت فـٱرجعوا عـن محنتي ما لي جَلَدْ

في ١٢ آذار سنة ١٩٢٣

إنتسيه، فهو مذنب

رفينا[1] ، تعالَيْ ، كأسَ خمرٍ ونارةً   لنرجيلتي ، ثم اَغلقي البابَ واَذهبي
ولا تَدَعي أُمي تفيقُ من الكَرى   فإني سأقضي الليلَ داخلَ مكتبي

* *

هو الليل ، لا حسّ هناك ، وليس من   سميرٍ يؤسّي شقوتي غيرُ كوكبِ
سرى في فضاءِ اللانهايةِ هائماً   نظيرَ فؤادِ العاشقِ المتعذّبِ
سعادُ ، لقد مرّت شهورٌ عديدةٌ   وقلبيَ يمشي في دُجُنَّةِ غيهَبِ
تحفُّ به الأَشواكُ من كلّ جانبٍ   كأَني بها قد خبَّأتْ أَلفَ عقرَبِ
ألا ذوّبي إن شئتِ جورَكِ في الهوى   وهذا فؤادي يشهدُ اللهُ فاَسكُبي
إذا كان أبلاني من الدهرِ مخلَبٌ   فلا بُدَّ أن يقوى على الدهر مخلبي

* *

سعادُ، أرى الأسقامَ تنخرُ هيكلي   وفوقي غرابُ الموتِ يشدو ، فطبِّبي
ألم تنظري الشبَّانَ كيف تواردت؟   ولكن لكلٍّ مأربٌ غيرُ مأربي

---

(١) خادمة صاحب القيثارة.

دعيني، دعيني واتّبعي غيرَ عاشقٍ يكون كبيرَ القلبِ حلوَ التحبُّبِ
أنا لم أَزَلْ والعمرُ في أوَّلِ الصِبا أتنتظرينَ السعدَ من شاعرٍ صبي؟

* *

سعادُ، غداً تلقينَ عنقَكِ طاهراً على صدرِ ذاكَ الطالب المتصبِّبِ
وتنسينَ مَن كانت تذوبُ دموعُه على إثمدٍ في مُقلتَيكِ مذوَّبِ
نعم فأنتسيه فهو ولهانُ مذنبٌ وأجدرُ بالنسيانِ من كلّ مُذنبِ
أليسَ الهوى ذنباً كما قالَ بعضُهم، إذن أنا جانٍ فالهوى فوق منكبي
ولكن غداً لا تذكري الزهر والرُّبى ولا ياسمين الحقلِ ما بعدَ مغربِ
فتذكارُ هاتيكَ الرسومِ مقدّسٌ فلا تلمسيهِ باذّكارٍ مكذَّبِ!!

في ٢٠ شباط سنة ١٩٢٣

إبنِ لنفسك مقرا شريفا

إنْ ترمْ مجداً وفخرا　　واَقتداراً مستمرّا
وإذا ما شئتَ تحيا　　مُطلقَ الأجنُحِ حرَّا
فوقَ أطباقِ الأثيرِ
جنبَ أبراجِ البدورِ
وعلى مَرأى الضميرِ
إبنِ للنفسِ مقرّا

* *

إتبَعيني يا فتاتي　　واَنجلي بالعبراتِ
فمراراً قد بكينا　　تحت أقدامِ الحياةِ
إنَّ منْ دمعِ العذارى
ملَكُ الطهرِ اَستعارا
فحرامٌ أَن يُوارى
في ترابِ الكائناتِ

* *

نحن في عمرِ الشبابِ   نحن في عهدِ التصابي
وأرى آمـــالَ قــلبي   تـتلاشى كـالضـبـابِ

إتـبـعـيني ، إتـبـعـيني
فــدموعي وجــفوني
شيَّـدت قصرَ السكونِ
فوقَ أَطباقِ السحابِ

* *

مذ رأى الناسُ هُزالي   وجـــمـودي المتـوالي
ضـحـكـوا مني وقـالوا   هوَ يحيـا في الخيـالِ

لو درَوا معنى نشيدي
لــرأَوني اَبـنَ الخلودِ
ورأَوا جسمَ الـوجـودِ
يــتـمشَّى لــلـزوالِ

* *

إتـبـعـيني ، إتـبـعـيني
فــدموعي وجــفوني
شيَّـدت قصرَ السكونِ
فوق أَطباقِ السحابِ

في ٢ آذار سنة ١٩٢٣

الدمعات الثلاث

الدمعة الأولى

ألدمعُ من عينيَّ لم يذرُفِ إلّا على وَردِ الهوى الأَشرَفِ
تلك دموعُ القلبِ ذوّبتها وفي دموعِ القلبِ سرٌّ خفي
كم ليلةٍ أحييتُها ساهراً ما من سميرٍ لي سوى مصحَفي
طوراً أُناجي نار سيكارتي وتارةً أَرنو إلى الأَحرُفِ
وفي فؤادي من شجونِ الهوى ما في فؤادِ الشاعرِ الأَحنَفِ
يا ميُّ ما للأهلِ من مدخلٍ بين كسيرِ الجفنِ والمدنفِ
نحن لنا في حُبِّنا شيمةٌ بغيرِ هذا الحُبِّ لم نكلفِ
فليتركونا في مناجاتنا وليحفظوا حرمةَ حُبٍّ وفي
فليتركونا نجتني حلمنا بين زُهور الفلِّ والمضعفِ
يا دهرُ إني لم أَزَل أَمرداً أمتَّ لي حظّي ولم تكتَفِ
ما فتحت أَزهاره في الضّحى حتى أَحالتْها يدُ الحرجفِ
لي نَفَسٌ يعسر تردادُه كنورِ مصباحٍ بدا ينطفي

وجسدٌ أبلى به سقمه ... يكادُ لولا ثوبه يختفي
ولي حياةٌ حظّها أَسودٌ ... نظير ليلي المظلمِ المسدفِ
أَمسيتُ من يأسي أُحِبُّ الدُجى ... في الدُجى رسمُ الحِمام الخفي
حتى إذا ألفيتُه راحلاً ... أَقولُ للظلمةِ فيه قفي
رَبّاه ! لمْ تخلقني تاعِساً ... أَشكو وما من سامعٍ منصفِ
كأَنني في الكونِ جانٍ أَتى ... بحادثٍ أَعيبَ مستنكفِ
وليسَ ذنبي غير أَني فتىً ... أَحببتُ فيها حُسنها اليوسفي
أَحببتُ فيها روحها ساقياً ... وردتها من أَدمعي الذرَّفِ
إِن كانَ عاراً ما دعوه الهوى ... فإِنَّ هذا العار ما أَصطفي

في ٥ أيار سنة ١٩٢٢

الدمعة الثانية

— ١ —

كيف لا أندبُ أمسي ومماتي في غـــــدي
فأنـا مـذ حلَّ تعسي فـرَّ حظّي من يدي

— ٢ —

ضعفت روحي بصدري وتلاشت في الـــفـؤادْ
فأنطفت جذوةُ عمري وأستــحـالت لـرمـادْ

— ٣ —

منيتي هل تذكرينا وقـفـةً قربَ الغديرْ
حيثُ ألفينا الغصونا هـامسـاتٍ في الأثـيـرْ

— ٤ —

والســـنونـو راحلاتُ تـلـمس الماءَ الـركـودْ
مـثـلـهـا تلك الحياةُ مخَرت بحر الـوجـودْ

— ٥ —

يا لـه وقتـاً تَـقَضَّـى بين لهوٍ وَدَدِ
يومَ كانَ الحُبُّ فرضا صـافـيـاً كـالـعسجَـدِ

— ٦ —

أيها المنشــدُ رِفـقـاً فـلـقـد ولّـى الشبـابْ
مَن قضى في الكونِ عشقاً لا يـؤاسيــهِ الـربـابْ

— ٧ —

إنما قـبـلَ المماتِ ذَكِّـر الصبَّ بميّ
غَـنِّ لي لحنَ الحيـاةِ ظـبـيـةَ الأُنسِ إِلـيّ

في ٣ أيلول سنة ١٩٢٢

الدمعة الأخيرة

ما لسلمى التي ٱستبدّتْ، وما لي ... أنا في الحُبِّ ميّتُ الآمالِ
كُنتُ أَمشي معَ الهيامِ ولكنْ ... كنتُ أَمشي على طريقِ الضلالِ
ذلك الحُبُّ كان بالأَمسِ بدراً ... فغدا اليومَ ناقصاً كالهلالِ
ذلك الحُبُّ كان رسماً شريفاً ... فغدا اليومَ سلعةَ الدلّالِ
يا لَسلمى، كيف ٱستبدّت وأذرَت ... بحياتي ومدمعي الهطّالِ
ما كفاها أني هزيلٌ، ولكن ... سمَّرت نعلَها وداست هزالي
بنتَ حوّاءَ، إنَّ قلبَكِ صخرٌ ... كيف عدُّوكِ من ذواتِ الدلالِ
لو حباكِ السُلطانَ ربُّكِ يوماً ... لاستحلَّيتِ مصرعاً للرجالِ

* *

يا صديقي خُذ الربابَ وأنشدْ ... «كلُّ حيٍّ مصيرُه للزوالِ»
فأنا راحلٌ عن الكونِ علّي ... أجد المكر نائياً في ارتحالي
لا أَرى في المرآةِ وجهيَ حتى ... يعتريني خوفٌ لفرطِ اعتلالي
آه! وآسوءَ حاليَ اليوم، إني ... أطلبُ الموتَ، آه! وآسوءَ حالي
يا صديقي ماضيّ كان جميلاً ... فٱستبدَّ الهوى بذاك الجمالِ
أطرب الحُبَّ كي يكفَّن ماضيه، بثوبٍ من جنسِهِ غير بالِ

في ١٩ ك[١] سنة ١٩٢٢

أيها القلب

أيها القلبُ مُتْ فخيرٌ وأَبقى لكَ موتٌ يقيكَ شرَّ العبادِ

إِنْ تكنْ طاهراً فحسبُكَ ما لا قيتَ في الكونِ من عظيمِ الفسادِ

ما ترجّي ، وقد شعرت بأنَّ الـ ـمكرَ يثويْ حتى بقلبِ سعادِ

يا فؤادي خيرٌ لجسمي حياةٌ في شقاها تبقى بدون فؤادِ

في ١٩ ك[١] سنة ١٩٢٢

قلب الملاك حجر

بــروحيَ مَـن مضَّني ونـفـرْ　　　لــه مقلـةٌ علَّـمتني السهرْ
إذا ما نظرتُ إلى وجـهِـه　　　رأيتُ على كــلّ خَـدٍّ قمرْ
غزالٌ من الأنسِ قد هدَّ حَيلي　　　وما تابَ عن فعلِهِ واْعتَذَرْ
فقلتُ له يا ظلومُ كفاك　　　أما أنت تعلم ماذا صَدَرْ
فـقـالَ وفي جـفـنِـهِ غـمزةٌ　　　ولـلـهـزءِ في مِـرشفيـه أثرْ
إذا لم أكـن عـارفـاً كـلـهُ　　　فعندي من ذاك نصف الخبرْ
ففي كبدي علَّةٌ من جفاهُ　　　رآهــا طبيبــيَ تحت الخطرْ
ملاكٌ، وهل بعد ذلك ريبٌ　　　بــأنَّ فؤادَ الملاكِ حــجـرْ؟

في ٢٧ ك[١] سنة ١٩٢٢

أغنية الموت

أسمعيني لحنَ الرّدى أسمعيني فحياتي على شفارِ المنونِ
وآذرُفي دمعةً عليَّ فبعد الـ ـموتِ لا أستحلُّ أَن تبكيني
يا سُليمى، وقد أثار نحولي كامناتِ الرّدى على العشرينِ
ما تقولين عندما تنظرين القومَ جاءوا إليَّ كي يحملوني
وأنا جثّةٌ بدون حراك وخيال الحِمام فوق جبيني
يا سُليمى، أنا أموت ضحوكاً ليس هذا الوجودُ غيرَ مجونِ
إنَّ مَن عاشَ فيه عمراً قصيراً كالذي عاش فيه بعض قرونِ
يا سُليمى، وكم أُنادي سليمى فآسمُها بلسمٌ لقلبي الحزينِ
لكِ عندي وصيَّةٌ فآحفظيها هي بعد المماتِ أن تنسيني
وإذا هزَّكِ التذكّرُ بالرُّغـ ـمِ وشاءَ الودادُ أن تذكريني
فَخُذي في الظلامِ قيثارَ وحيي وآقصدي القبرَ في ظلالِ السكونِ
وآنقري نقرةً عليه يُسمِّعـ ـكِ أنيناً كزفرتي وأنيني
ذاك قيثار صبوتي وشبابي وآحنيني إليه، إيْ وآحنيني
يا سُليمى، أُغنيَّةُ الموتِ هذي ومراراً أنشدتها في جنوني
فآسمعيني أُعيدُها عن قريبٍ فقريباً يحينُ يومُ الدينِ

في ٢٥ ت[1] سنة ١٩٢٢

يا ليل العمر متى غده

حتى مَ أُحاوِلُ أَرقدُهُ لـيـلٌ يـتـمـرَّدُ أسودُهُ
وعـيـونُ غـزالي نـائمةٌ تضني جـفني وتسـهِّـدُهُ
حلَّتْ معقودَ ضفائرِها أبـكـارُ الشـعرِ وخـرَّدُهُ
وتـغنَّتْ ترقصُ مُنشِدةً يا ليلُ العمرُ متى غدُهُ
مولاي ، ومَن ضلَّت عيناه هـواك فـلحظُك يـرشدُهُ
فعلامَ وعبدُكَ في سَقَمٍ تُـدنـيـه منك وتُـبعِـدُهُ
فكأنَّ البدرَ رآكَ تميس فـهـامَ بـقـدِّكَ يُـنشـدُهُ
وهوى يسترشفُ شهدَ لماك فـذابَ بـثغـرِكَ عسجدُهُ
مولاي ، إذا أحببتَ فتىً فملوكُ الـعـالـمِ تحسدُهُ
أنسيتَ العبدَ ديانته فاْغتـاظَ المولى سيّـدُهُ
ديني قد رقّ فوا تَلَفي هـل باقٍ غيرك أعـبـدُهُ
أبـداً يشتاقُ إليكَ فتىً تـتـأوّهُ يـأساً عوَّدُهُ
فـإذا مـا شئتَ تزوّده تَـعبَ الـدنـيـا يـتزوّدُهُ

في ٨ أيار سنة ١٩٢٠

ميروبا في الصيف

وقـفـاً بميروبـا على أَطلالهـا   وانـظـر إلى وديـانها وتلالِـهـا
تجري مياه النبعِ بين رياضها   حتى تخالَ الماءَ من أصلالها
كيف التفتَّ سعت إليكَ جَداولٌ   ضحكَت على قيلِ الطيور وقالِها
فهناك نهرٌ قد تسلسلَ ماؤه   مثل اللُجين يسيل بين جبالِها
تمايـلُ الأشجـارُ حولَ ضِفافِهِ   فيخطُّ فيه الماءُ رسمَ خيالِها
شجرٌ لها أرجٌ يفوحُ معنبراً   فـيـجـدّد الأرواحَ في عـمّالِها
وخمائلُ الصفصافِ ظلّلتِ الثّرى   فتربّعَ المصطافُ تحتَ ظلالِها
«صنين» يرمقُ أرضَها وسماءَها   بلِـحـاظِ صـبٍّ هـائمٍ بجمالِها
فـكـأنّـهـا تحيـا لأجـلِ وِصالِهِ   وكـأنـه يحيـا لأجـل وصـالِـهـا

* *

هي غادةٌ في كسروانَ مقيمةٌ   تصـطـادُ أربابَ الهوى بحبالِها
أَخذَت من التفاحِ أحمرَ خدّها   ومن اخضرارِ الجوزِ أخضرَ خالِها
سحرَت بأطرافِ اللحاظِ رِفاقَها   فحسدنَ في الألحاظِ سحرَ حلالِها
أنـى «لـفـاريّا» جمالُ مروجِها   ومناظر ضحكت لدى شلّالِها

في ١٥ آب ١٩٢١

تذكّري

— عن ألفرد ده موسه بتصرّف—

تذكّري حين يزفُّ الضُّحى على جفونِ البشرِ الراقدهْ
مروَّعاً يفتحُ قصرَ الضيا أمام شمس النُهُرِ العائدهْ
تذكّري والليلُ في حُلمِهِ مستجمعاً أفكارَهُ الشارِدَهْ
منثنياً خلفَ رداءٍ له قد فضّضَتْهُ الأنجمُ الساهِدَهْ
وإنْ تَرَيْ صدرَكِ في خلجةٍ لدى نداءِ اللذّةِ الواجدهْ
والظِلُّ يدعوكِ إلى لذّةِ الأَحلامِ في ليلتِهِ الهاجدهْ
أَصغي إلى أنغامِ صوتِ الهوى من غابةِ الحُبِّ سمَتْ صاعِدَهْ
هامسةً فيكِ: أذكري حُبَّه في كلّ ليلٍ مرّةً واحدهْ

* *

تذكّري حينَ صروفُ القضا تفرقُني عنكِ السنينَ الطوالْ
وعندما حزني وأعراضُهُ تدِبُّ في قلبي ذبولَ الهزالْ
تذكّري حُبّي، وآلامَهُ تذكّري وحيي أمامَ الخيالْ

وموقِفَ التّوديعِ في ساعةٍ كان لها صمتٌ مُهيبُ الجلالْ
لا البعدُ في أَوصابِهِ والأسى ولا الثواني في طريقِ الزوالْ
تُنسيكِ تذكاراتِ حُبٍّ مضى مُضيَّ أشبــــاحٍ بماءٍ زُلالْ
ما زالَ قلبي خافقاً في الهوى وقد تمشَّى فيه داءٌ عُضالْ
لا ينثني يهمس فيكِ ٱذكُري فالذكرُ جزءٌ من لذيذ الوصالْ

* *

تـذكَّـري يـومَ أُلاقي الـفـنـا في ذي الحيـاةِ الـرثَّةِ البائدهْ
يـومَ فـؤادي مُـثـقَلاً بـالأَسى يـنـامُ في حفـرتـهِ الـبـارِدَهْ !
تـذكَّـري إمَّا تَـرَي فُتِّحَتْ على ضريحي الـزهـرةُ الـزاهِدهْ
ففي زهورِ الحقلِ طهرُ الهوى مـا لامَسَتْه نـفـحةٌ فـاسِدَهْ
لن تنظريني بعدُ في موضعٍ فـهـذه الـدّنـيا غَدَتْ جاحِدَهْ
سوفَ «كأُختٍ صادِقٍ حبُّها» تـرعـاكِ دومـاً نـفـسيَ الخالدهْ
أَصغي إلى صوتٍ دوى في الدّجى أنـيـنُـهُ في الـظـلـمـةِ الـسـائدهْ
حفـيـفُهُ قال : ٱذكُري دمعَهُ في كـلّ لـيـلٍ مـرّةً واحـدَهْ

في ١٠ كانون الأول سنة ١٩٢٤

والعين بحيرة أحلام

أَسرعتُ لبابكِ أقرعُهُ في ليلٍ أظلمَ برقعُهُ
وقصيدة شبلي[1] مُصغيةٌ لنشيدِ فؤادي تسمعُهُ
فأفاقَ أبوكِ وفي يدِهِ مصباحُ الغرفةِ يرفعُهُ
وأجابَ «رشيدٌ» لم يرجع و«جميل» أواه مضجعُهُ
فكتمت السرَّ وفي كَبِدي قيثارُ الحظِّ أُقطِّعُهُ
ورجعتُ وفي حُبّي خرقٌ ثوبٌ ما كنتُ أُرقِّعُهُ

* *

مولاي وفي يدِهِ ولد ما شاءَ هواه يلوِّعُهُ
فإذا أدناه بتبسمةٍ منه، فبعنفٍ يدفعُهُ
ثمراتُ الطُهرِ مراشفه وغصونُ الزنبقِ أذرعُهُ
والعينُ بحيرةُ أحلامٍ تتموَّجُ فيها أدمعُهُ

---

(١) للشاعر شبلي ملّاط قصيدة على هذا الرويّ.

لا أَنسى لـيـلـةَ أنشدَني لحنـــاً والحبُّ يـوقِّــعُــهُ
والأُفقُ سريرٌ قد فُرِشَت فــيــه الأزهــارُ تُضوِّعُـهُ
يا هندُ، فؤادي ذو عِلَلٍ فـأقـلُّ جـفـاءٍ يـوجـعُـهُ
فـأهـديهِ إلى عينيكِ ففي عـيــنـيكِ دواءٌ يـنـفـعُـهُ
يا هندُ، كفى قلبي حِججٌ سيـثورُ عـلـيكِ تـرفُّعُـهُ
فـأرشيـهِ بـعـاطفةٍ يقنعْ فـالحجَّـةُ لـيستْ تـقـنعُهُ

رسالة

إلى الأستاذ فيلكس فارس.

أَشكو إلى قلبِكَ يا سيِّدي قلباً ثوى في حظِّيَ الأسودِ
أطلقتُه طفلاً، ولما نمى أصبحَ محتاجاً إلى مُرشدِ
أهكذا كنتَ وكانَ الهوى في عهدِ سلطانِ الصبا الأيِّدِ
تنهجُ نهجَ الطيرِ في مَرجِهِ لا تنتمي يوماً لغيرِ الدَدِ
والمرجُ بسَّامٌ بأَزهارِهِ لنشوةٍ في طَرفِكَ الأَغيَدِ
يُريك ساعاتِكَ هزَّاجةً ويكتمُ اليأسَ مصيرُ الغدِ

* *

فيلكسُ، ما للحرّ من راحةٍ في وَطَنٍ يرتاحُ للأَعبُدِ
بناتُه مستعبداتٌ بهِ تؤثر أن تُعزى لمستعبَدِ
بناتُه !! يا ويحَها من دمىً جرَّدَها الظلمُ من الأَكبُدِ
ذوّبَتِ الدّنيا بأجفانِها رحيقَ جهلٍ أكدرٍ مُفسِدِ
وغادةٍ أَحببتُها ضلةً ولم يكن قلبي الفتى في يدي

أحببتُ فيها ما يحبّ الندى   في خَطراتِ النُّسَمِ الشُرَّدِ
ما ٱستحكمَ القلبانِ حتى مَضَتْ   تـلقي بـأحلاميَ في موقـدِ
وٱنفجرَ البركانُ حتى ٱنثَنَتْ   تدبُّ نارُ اليأسِ في مَرقَدي
فخفتُ أن يُقضى على عزّتي   وأن يعيثَ العارُ في محتدي
فقلتُ للقلبِ ٱنتبه إنّ لي   مجداً ثياب الخزي لا يرتدي
والمرأةُ الحسنـاءُ صيّـادةٌ   تصطادُ قلبَ الباسِلِ الأَصيَدِ
ثائرةٌ كالموجِ إن تلعب   الأرواحُ في طيّاتِهِ يُزبِدِ

* *

لما رأَتني مُلقياً عهدَها   على ضحايا حُبّها الأربَدِ
واليأسُ في عينيَّ مُستحكِماً   لا يَرِدُ الآمالَ من مورِدِ
أَلقَت بواهي رأسِها المجهَدِ   على بقايا جسدي الأَملَدِ
كأَنّها ، واليأسُ يعتادها ،   تلقي بأشلاءٍ على جلمَدِ
أَوصدتُ دونَ الحُبِّ قلبي ، فما   يرجو الهوى من قلبيَ الموصَدِ
بين ضلوعي حجرٌ باردٌ   رميته في ظلمةٍ أبردِ
خمسةُ أَعوامٍ تقضَّتْ بنا   بين عذابٍ مجحفٍ مُلحدِ
حسبتُها من فَرطِ أثقالِها   خمسةَ أجيالٍ بصدريَ النَدي
أَقعَدَني عن نيلِ مستقبلي   همٌّ ، ولولا الهمُّ لم أقعدِ
ويلُ الشبابِ الغضِّ من قلبهِ   إذا أَضلوهُ ولم يهتدِ
القلبُ جرمٌ في حياةِ الفتى   وصانع القلبِ هو المعتدي
من واجب الأيامِ تحطيمُهُ   على حِفافِ المهدِ في المولدِ

* *

يا سيّدي فيلكسُ، ذي حالتي، ذي حالةُ الشاعر، يا سيّدي
إمَّا رآهُ الحُبُّ مستنزفاً أدمعهُ قال له غرِّدِ
بئستْ حياتي في بلادٍ غَدَتْ ترتاحُ للأنذالِ من حُسَّدي
تؤثِرُ صوتَ البومِ في نَحسِهِ على أغاني البلبلِ المُنشدِ
يا شاعرَ الآلامِ هذا دمي ذوبتهُ شمعاً على مَعبدي
هذي عباراتُ الأسى سُطِّرَتْ بالدّمعِ من أجفاني الزهَّدِ
هذي شكاتي يا خطيبَ العُلى أرفعُها للرجُلِ الأَوحَدِ
أَرفعُها للمجدِ في أَوجِهِ لأنها جذوةُ قلبٍ صدي
وجدتُ في نفسِك ما لم أجد في أَنفسٍ مُخمدةٍ هُجَّدِ
لامستُ في أَنَّاتِها ثورةً أَخمَدَت النارَ ولم تَخمُدِ

أمام جثة البستاني

ختمتَ بالصمتِ آياتٍ وعرفانا ... لـمَّا نزلتَ جوارَ الله سبحانا

آثرتَ جيرةَ إبراهيمَ فاْفتخرَت ... بأَن تكونَ لكَ الأَفلاكُ جيرانا

مَضيتَ حيث المعرّي قبل ذاك مضى ... والبحتريُّ وأَعشى واْبنُ سفيانا

فأقبلَتْ للقاكَ العربُ قاطبةً ... مـهلِّلاتٍ زَرافاتٍ ووِحدانا

وخفَّ هومير بالإلياذِ محرقها ... أمام عينيكَ بخوراً وقربانا

فصافحتك أَثينا وهي باسمةٌ ... حُبّاً وعانقتِ اليونانُ لبنانا

يا اْبنَ الأُلى رفعوا للضادِ منزلةً ... وشيَّدوا لجلالِ العلمِ بنيانا

ناداكَ مجدُك والأجيالُ مصغيةٌ ... ترمي إليكَ أزاهيراً وريحانا

نلتَ الإمارةَ في الدّارينِ عن ثقةٍ ... فكنتَ فخراً لموتانا وأَحيانا

كنتَ الأميرَ على جنَّاتنا فغدَت ... لك الإمارة في جنَّاتِ رضوانا

جلست عهداً على عرشِ الجمال فطرْ ... واْجلسْ على سدَّةِ الأنوارِ أزمانا

تركتَ يا نسرُ إيوانَ الفناءِ وقد ... حلَّقتَ كي تنتحي للخلدِ إيوانا

ما زالَ طيفُكَ والأبصارُ مضجعهُ ... يرودُ حولَ قصورِ العلمِ يقظانا

والعُرب تجمع من أنفاسِهِ نسماً ... وتستعيدُ بها للفضلِ ما كانا

يا واضعاً نفسَه في تُربِ بلدتِهِ رِفقاً وضع نفسه في قلبِ غسَّانا

عظامه كنزُ غسَّانٍ ومفخرةٌ إذا هززتَ بلاها عاد مرجانا

فرجيل قبَّل عينيه وجبهتَه وقام يلثمه موسى بن عمرانا

وأَنشدتْه بناتُ الشعرِ أُغنيةً ووقَّعتها على القيثارِ ألحانا

وجاءَ دانتي وهوغو يسجدانِ له والماجنُ بنُ نواسٍ جاءَ سكرانا

والفارضُ الزاهد الصوفيُّ خفَّ إلى تقبيلِهِ وأتاهُ المجدُ ظمآنا

مَن للجهادِ وللأقلامِ في وطني بعد الفقيدِ فقيدِ العلمِ سلمانا

من للسياساتِ تأتيهِ فيصدقها ويستعيدُ بها مجداً وسلطانا

هل الفقيدُ سوى ركنٍ نعزّ به هوى فأسقط للآدابِ أركانا

لا العينُ تنفعُ في منعاه إن دمعتْ ولا النواحُ يُعيدُ اليُبسَ ريَّانا

عرائس الشعر في برناس باكيةٌ تضمّ من حزنِها صخراً وصوَّانا

كأَنَّ أرجاءَه بعد الأُلى ذهبوا أمسَت عليهم دياجيراً وأكفانا

في تموز سنة ١٩٢٥

رقاد القلم

جثا الليلُ ملتفّاً ببُردِ السرائرِ ... وفي صدرِهِ المفؤودِ رِعشةُ جائرِ
كأني بهِ— والصمتُ في جَنباتِهِ— ... مواكبُ كفَّارٍ أمامَ الضمائرِ
وفي القبّةِ السوداءِ لحفٌ كثيفةٌ ... على مهدِها نامت عيونُ الزواهرِ
كأني بهذي اللحفِ جبَّةُ سارقٍ ... وقد أُخفيت فيها عقودُ الجواهرِ
هفا شبحُ الأحلامِ من غورِ كهفِهِ ... وقد علقت أذيالُهُ بالمحاجرِ
كأنَّ غطيطَ النائمينَ نواسمٌ ... يحرّكها الصفصافُ فوقَ المقابرِ
لَدُن فتحت أُمي نوافذَ مخدعي ... تمشَّى إلى قلبي أَريجُ الأَزاهرِ
كأنَّ مصاريعَ الكوى وهي شُرَّعٌ ... جفونُ يتيمٍ موجَعِ القلبِ حائرِ
أنا في سريرٍ من قماشٍ مطرَّزٍ ... تدلَّت على جنبيهِ بيضُ الستائرِ
كأني ميّتٌ في رخامِ ضريحِهِ ... تكفِّنُه شفَّافةٌ من حرائرِ
أَرى قلَمي المظلومَ في هدأَةِ الدّجى ... ينامُ معَ الأَوراقِ قربَ المحابرِ
بماذا تُراهُ يحلمُ الآن؟ إنني ... لأسمعُ منه مثلَ زفرةِ شاعرِ؟

* *

أَيا قلمي ما ضرَّ لو كنتَ سكَّةً ... تطوفُ شريفاً في الحقولِ النواضرِ

تحيِّيكَ أَسرابُ الطيورِ وتنحني　　أمامك أَعناقُ الزهورِ السواحرِ

* *

أَيا قلمي ما ضَرَّ لو كنتَ سكَّةً　　تخلِّدُ لي بين الجبالِ مآثري
فأَرفعُ نفسي عالياً بعد خفضةٍ　　وتظهرُ أَسمى في السهولِ مفاخري
ويا صُحُفاً يجري مدادُ عواطفي　　عليها ويلقيها الريا في المساخرِ
فقدتُكِ ، هلّا كُنتِ أَرضاً خصيبةً　　يسيلُ عليها من جباهِ الجبابرِ
يُذيبُ عليها الفجرُ كوثرَ طُهرِهِ　　أَرقَّ وأَصفى منهلاً من كواثري
فكوثرُهُ يُحيي الفقيرَ ، وكوثري　　يُشيرُ حياةً في جمادِ الدفاترِ

* *

أَيا قَلَمي ، نمْ في الخمولِ ولا تُفِقْ　　ويا صُحُفي ، نامي فقد نامَ خاطري
ويا فجرُ لا تطلع عليَّ ، ففي الدّجى　　مدافنُ فيها تستكنُّ شواعري

في ٧ تشرين الثاني سنة ١٩٢٥

معارضة قصيدة شوقي

أَميرَ الشعرِ لا نورٌ وحقٌّ ولكنْ سوءُ منقَلَبٍ وخرقُ
إذا أَيَّدتَهم أَيَّدتَ حقّاً أبى تأييدَهُ شرفٌ وخُلقُ

* *

أَميرَ الشعرِ والثوراتُ ترقى على نُظُمٍ يمهِّدُها الحقُ
ولا ترقى على مُهَجِ الأيامى فإنَّ دمَ الأيامى لا يحقُّ
أَباحوا في القتالِ دمَ النصارى وفي أَجفانِهم للبغضِ وَدْقُ
وما رفقوا بأيتامٍ صغارٍ فجازوهم بما لم يستحقوا
وقالوا نهضة الأوطانِ تقضي وعاثوا في بلادِهِم وشقُّوا
وقِدْرُ الدّينِ في الجهّالِ تغلي ولم يُسمع لطبل الدينِ طَرقُ
أتحترمُ الحقوقَ وفي فضاها من الأَحقادِ زوبعةٌ وبرقُ
وفي راياتِها لَهفُ اليتامى له في كلِّ ثانيتين خفقُ
أَلإستقلالُ ينمو بالتآخي ويَضمر بالشقاقِ ويستدقُّ
وبالحُبِّ الصحيحِ يشيدُ صرحاً أَساسُ خلودِهِ شرفٌ وصِدقُ

* *

أَلسنا في الهمومِ أُولي اتفاقٍ ... فلِمْ لا ينتحينا اليومَ وِفقُ
ولِمْ يسعى إلى التفريقِ قومٌ ... يوحّدُ بينهم وطنٌ ونُطقُ
أَعادوا سوءَةَ الماضي بنزقٍ ... ولم ينبض لهم في الحبِّ عِرقُ
كأنّهم أرادوا نفيَ رقٍّ ... بجهلٍ فيه للأوطانِ رِقُ
كلانا شاعرٌ بالظلمِ يرثي ... بلاداً بالمظالمِ تسترقُ
ونحن نؤيّدُ الثوراتِ لكنْ ... نخطِّئُها إذا هيَ لا ترُقُ

* *

أَميرَ الشعرِ حسبُ دمشقَ حزنٌ ... بأنَّ جنانها يبسٌ وطرقُ
فأَزهرُها من الأرزاءِ صفرٌ ... وأنهرُها من الأَهوالِ بلقُ
وما في الغوطتين سوى زفيرٍ ... يصعِّدُهُ من الآلامِ عُمقُ
وما في الجامعِ الأمويِّ إلّا ... صُراخٌ من تفجُّعِهِ وشهقُ
كأَنَّ الجنَّ تخطرُ في دُجاه ... وفي جنباتِهِ للبومِ نعقُ
وأَجفانُ السُموأَلِ فيه تبكي ... وأدمعُها شكاياتٌ وعشقُ

* *

ألا أَينَ الخرائبُ من قصورٍ ... لها بمذاهبِ الآفاقِ سبقُ
وأَينَ من السموّ جلالُ نسقٍ ... هوى رِضماً، فما بدمشقَ نسقُ
وأَينَ معاهدُ الآثارِ فيها ... وأَينَ الحُسنُ والفنُّ الأَدقُ
جلائلُ كنّ في الماضي مزاراً ... جموع حجيجِهِ خلقٌ فخلقُ
مطهَّرة العصور بغى عليها ... حزازاتٌ من التدنيسِ حُمقُ
على مَن تبعة الآثامِ تُلقى ... وكلُّ هوىً يقولُ أنا المحقُ

غـمـزَت إباءَهم فمضى حَقوداً وضـجَّت من صَغارَتِهِ دمشقُ
ولـو عـقـلـوا لحَرَّرهـم نـظامٌ على أَبـوابِ حـقِّـهـمِ يـدقُ
تخذتَ الشعرَ للإصلاحِ مرقىً فهل أَصلحتَ خُلقَهم ليشقوا
وهـل عـلّـمتهم رميَ القوافي ليرمـوا بـالـيـتـيـمِ وليسَ رِفقُ

* *

سَلِ الأَهرامَ يا اَبنَ المجدِ عنَّا يُجبْكَ الدمعُ والنَفَسُ الأَرقُ
ففي الأهرامِ يا «شوقي» بقايا مـنَ الـنسبِ المؤثَّـلِ لا تَعُقُ
وفي الـنـيـلِ المرَقرَقِ عاطفاتٌ مشى منها إلى لـبـنانَ رزقُ
يعـزُّ عـلـيـه أن تشقى بلادٌ بها مـن شيمةِ الأجيالِ عتقُ
أَلستَ ترى أُميَّة كيف ترنو إلى لـبـنـانَ عـن مُقلٍ تُشقُ
وَكـلٌّ منهما يهوي بـنـزعٍ وفي دمِهِ من الأَهوالِ حرقُ
ولـلـمستقبـلِ الآتي عجيجٌ على قـدمـيـهِ للأَوطـانِ زَهـقُ

* *

أَميرَ الشعرِ حسبُ الشعرِ فخرٌ بـأَنَّ لماكَ للإيحـاءِ فـتـقُ
أَنا مُصغٍ إلى قطراتِ سحرٍ لها مـن شعـرِك العلويِّ دَفقُ
أَلا هذِّبْ شبابَ الشرقِ هذِّبْ ليرقى مـوطـنٌ لهمُ ويَـرقـوا
وقُل لهم: أَخاكُم فاَعضدُوهُ تـنـالوا المقصدَ السامي وتَبقوا

المَرِيضُ الصَّامِتُ

الطبعة الأولى

١٩٢٨



مقدّمة المريض الصامت

أيها القارئ

إن ما تقرأ في هذه الصفحات لهو حقيقة أليمة نطقت بها الروحُ المتألمة في ليلة من ليالي الأرَق، وألبسَها القلم رداءً شفّافاً من أرديته الحمر. في كلّ شطر من أشطارها نقاط من الدّم ما تزال نديّة، وفي كلّ مقطع من مقاطعها مشهد من مشاهد الألم ما يبرح نصب العين. ليس عهد «المريض الصامت» ببعيد، فتراب القبر لمّا يجفّ بعد على جسده الطاهر، وتذكاره الموجع ما فتئ يرود في مخيلة عارفيه.

الياس أبو شبكة

أيتها الفتاة

إن الروح التي تلامسين خلال هذه السطور إنما هي صورة مكبّرة لروحك الحساسة ؛ والخيال الصادق الذي تستشفين، إنما هو رمز ناطق لخيالك السامي الشريف. فتقبّلي هذه القطعة الدامية تذكاراً لحبّنا المدمّى ، فأنتِ أحقّ بها من سواك لأنك أوحيتها بلفظة ملؤها الشعور ، خرجت من بين شفتيكِ في ساعة من ساعات حُبّ جريح. أسألُ الله أن يختم عليه بلطفه ورحمته ، إنه أرحم الراحمين.

— ق —

الملك الصامت

شاعرُ القلبِ ضاقَ عنه البيانُ　　والقوافي واللفظُ والأوزانُ
صامتٌ يُرسلُ التنهُّدَ شعراً　　كلَّما هزَّ قلبَه خفقانُ
تقرأُ الوحيَ في عذوبةِ عَينيـ　　ـهِ فآياتُ عينِهِ قرآنُ
نفسُهُ جذوةٌ من الله لم تَد　　نَسْ فتمحو نقاءَها الأضغانُ
فهو في موكبِ الحياةِ حكيمٌ　　وهو في مركبِ الدُجى ربّانُ
يجد التائهونَ فيه عزاءً　　وأَماناً إذا تلاشى الأمانُ
لقّنته الأيامُ موعظة النا　　رِ فثارت في صدره النيرانُ
غيرَ أنّ السماءَ قالتْ له «اًصمتْ»　　إنظروا كيفَ يصمتُ البركانُ
شيّدت قصرَ وحيِه الأشجانُ　　وطلاه من الدموعِ دهانُ
زاهد في الحياة، في بردتيه　　جسد شفّه الضنى جوعانُ
ملك، عرشه المصائب والهـَ　　ـمُّ وياقوت تاجه الأحزانُ
صولجانُ الآلامِ في قبضَتَيه　　ويحَ ملكٍ آلامهُ الصولجانُ
لجريرٍ في روحِه شهقاتٌ　　ولقيسٍ في قلبه تحنانُ
وبقايا من المعرّي تمشّت　　في دماه لم تمحُها الأزمانُ

المريض العاشق

في ربيع الحياة، حلوُ الخصالِ   طيّبُ الخُلقِ، واسعُ الآمالِ
أوشكت صورةُ الألوهة أن تكـ   ـمَلَ فيه لولا اعتراض الزوالِ
قلبُه قلبُ ربِه، حينَ يقرى   يُطعمُ اليتمَ قلبُه ، لا يبالي
في حناياهُ للفقيرِ حنوٌّ   وحنينٌ لآيةٍ في الجمالِ
لفتاةٍ تبكي على شاطئ النيـ   ـلِ، وراءَ النخيلِ، فوقَ الرمالِ
لفتاةٍ عذراءَ لم تدرِ لولا   هُ معاني العذابِ والأهوالِ
لفتاةٍ أحبها وأحبّتْـ   ـهُ فعاش القلبانِ بعضَ ليالِ
في ربيع الحياة يقضمه الدا   ءُ وللداءِ قسمةٌ في الرجالِ
صامتٌ يسأل الرؤى في سريرٍ   يتخطّى به إلى الآجالِ
عرفَ الموتَ قبل أن ينتحيه   فإذا الموتُ منفذٌ للكمالِ
فاْصطفاهُ خلاًّ له، وكثيراً   ما تمنّاه، في الليالي الخوالي
صامتٌ، إنما المحدِّقُ فيه   يتراءى له وميضُ خيالِ
فكرةٌ من خلالِ عينيه تبدو   غلّفتها شفافةٌ من جلالِ
يا جلالَ النفوسِ، أنتَ من الخُلـ   ـدِ ولو كنتَ في غلافٍ بالِ

أم المريض

أيُّ داءٍ يشــفُّــهُ، أَيُّ داءٍ ... يا إلهي، يا مُنقذَ الأبرياءِ
أيُّ داءٍ يشفُّهُ، فعلى عَينيـ ... ـهِ طـيـفٌ ذو جبهـةٍ سوداءِ
كلَّ ليـلٍ، يمرُّ يسلبُ منه ... زهــراتٍ تــعــهّــدتها دمــائي
قيلَ لي: إنه سيشفى، ولكنْ ... مـقـلـتـاهُ تـوارتـا في غِشـاءِ
في غشاءٍ يشفُّ عن بعضِ روحٍ ... ليس فيهِ للأُمِّ بعضُ رجاءِ
لونُه أمسِ غيره اليومَ، إنَّ الـ ... ـداءَ يمحو عـنه جمالَ الفتاءِ
ربِّ رُحماكَ! لا تُذلَّ فؤادي ... بحـبـيبي، ولا تجهّـم مســائي
ربِّ، لا تضرب الحزينةَ بالثكـ ... ـلِ ولا تـبـلِني بهذا البلاءِ
لا تدعني — يا ربُّ — أحملُ أوجا ... عي أمامَ الباقينَ من أبنائي
لا تلطِّخ باليأسِ بيض شعوري ... يــا عــزاءَ الأمـومـةِ البـيـضـاءِ
وأصاخَت حيناً لتسمعَ صوت اللّـ ... ـهِ واللهُ معـرضٌ في السماءِ
فــكــأنَّ السما بــنــاءُ نحاسٍ ... وكــأنَّ الـظـلامَ عـرشُ قضـاءِ
وكـأنَّ النجومَ في شرفةِ الليـ ... ـلِ شمـوعُ الأكـفـانِ للأحياءِ
وعـيـونُ المريضِ تزدادُ نزعـاً ... كلما ازداد روحه في الضياءِ

أخت المريض

تسألُ الغيبَ أن يُريها المَصيرا ... وتُوالي بـكـاءهـا والـزفيرا
تستغيثُ الإلٰهَ حيناً، فلا تَسـ ... ـمعُ صوتاً، فتستغيثُ النذورا
وإذا خـيَّـمَ الـدُجى سألـتـه ... بعضَ نور، فلا ترى فيه نورا
تستعين الرجا، فيبدو لها اليأ ... سُ كَأَنَّ الرجاءَ باعَ الضميرا
أيبسَ الليلُ في نقاوةِ خدّيـ ... ـها بحرِّ الأَنينِ، تلك الزهورا
كـلَّما أَطـلـقَ المريضُ زفيراً ... خشيتْ منه أن يكون الأخيرا
حَجبَت حزنَها وراءَ ابتساما ... تٍ لتُخفي عن أُمِّها المقدورا
وكـذا الأمُّ بـالـتبسُّمِ كانَتْ ... تحجبُ الحزنَ عن بنيها شهورا
غيـرَ أن الـفتى تجاهل إيها ... ماً فأعطى الآلامَ قلباً كبيرا
أنكرَ النومُ مقلةَ الأُختِ حتى ... آلفَتْ رهبةَ الدُجى والسريرا
لم تحوّلْ عـنـه الـنواظرَ إلا ... عندما أوشكَ الأسى أن يثورا
أيّ قلبٍ أشدَّ من قلبِ أُختٍ ... في أَشدِّ الآلامِ ظلَّ صبورا؟
أيّ روحٍ أرقَّ من روحِ أُختٍ ... تَهبُ الجهدَ، لا تبالي العسيرا؟
أيّ صدرٍ أحنَّ من صدرِ أُختٍ ... في ليالي الأَسى، وأسمى شعورا؟

رؤيا في حلم

حملَ الداءَ من شواطئ مِصرا ... وأتى زحلةً فصادفَ قبرا
لم تُرِعْهُ طيوفُ بلواه لو لم ... تختلجْ في هواهُ أطهر ذكرى
حينَ يهوي الدُجى يمرُّ به الأمـ ... ـسُ على جانحيه يحملُ جمرا
أيّ جمرٍ أحرّ من جمرِ حبٍّ ... صادفَ القلبَ موقداً فآستقرّا
إن غفا مرّتِ الفتاةُ برؤيا ... هُ تنادي ربّاً، وتلطمُ صدرا
تارةً تفجر الدموع، وطوراً ... تمسك الدمع في المحاجر قسرا
تتخطّى أمام قبرٍ جديدٍ ... نشَرت فوقه دموعاً وزَهرا
بدَّل الحزنُ وجهها، فهو لم يبق ... كما كانَ، يهرق الحسن سحرا
وإذا ما استفاقَ حدّق في الظلمةِ حيناً كمَن توقّع أمرا

* *

وأجالَ العيونَ، في الغرفةِ السو ... داءِ، علَّ الظلامَ يكشف سرّا
ثمّ أصغى لنغمةٍ في حنايا ... هُ تلوّى لذِكرِها وآقشعرّا
وهو يدري أنّ الرؤى أيقظَته ... من شجونٍ إلى شجونٍ أُخرى
ذات ليلٍ أحسّ في رئتيه ... خلجةً مرّةً، فخفقاً أمرّا
وتراءت له فتاة هواه ... شبحاً دامياً، فأوجس ذعرا

هذيان في الظلام

عند ذا هبَّ جالساً وتهيّا ... ليناجي غرامه العذريّا
وحفيفُ الصفصاف يهمس في النَّهـ ... ـرِ كلاماً عن الحياةِ خفيّا !
قال : «أصغي إليّ، إنّي فانٍ ... فالقوى لن تعودَ بعد إليّا
أنا أَمشي إلى الضريحِ حثيثاً ... فعذابي يثورُ في رئتيّا
أيّ نفعٍ ترجينه يا عروسي ... من بُكاءٍ ما عاد ينفعُ شيّا؟
أيّ نفعٍ ، والموتُ ينسجُ ثوبي ... بخيوطِ الظلامِ من مقلتيّا
إرجعي ، إرجعي فتذكار حُبّي ... ولياليّ، بات ثقلاً عليّا
إرجعي ، إنني بليتُ وما أَصـ ... ـبَحَ غير الديدان يرغب فيّا !
في شواطي النيلِ السعيدِ مياهٌ ... فاسأليها غداً زلالاً شهيّا
وٱستعيدي به هوًى وشباباً ... «نيلك» العذب غير «بردونيّا»
وإذا ما مررتِ تحت نخيلِ النهر يوماً حيث ٱبتسمنا مليّا
حيث كنا نبني قصورَ الأماني ... حيث كنا نجني الشبابَ النديّا
حيث كنا نلقِّنُ القلبَ درساً ... فيعيه النخيلُ من شفتيّا
فٱحذري وقفةً هناك لئلاّ ... تسمعي من فم النخيلِ نعيّا

أمام الفجر

وأستفاقَ المريضُ من هَذَيانِهْ وهيبُ النيرانِ في أجفانِهْ
وحُماتُ الأوجاعِ تنزعُ منهُ ما تبقّى من عمرِه في جنانِهْ
وأَمرَّ البنانَ — يسترجعُ الرُشـ ـدَ على أصغرٍ نبا عن مكانهْ
إنما الأصغرُ الذي نهكتهُ حُمةُ الداءِ ضلَّ في خفقانهْ

* *

وأتى الفجرُ فوق عرشٍ من النو رِ تسيرُ الكرومُ في ركبانهْ
وخيوطُ الضبابِ تنسجُ أعلا ماً لَوَتْها الصبَا على صولجانهْ
فأطلَّ المريضُ من شرفةِ البَيـ ـتِ يناجي الصباحَ في مِهرجانهْ
فإذا بالصباحِ يحملُ رمزاً أسودَ الوجهِ جاءَ قبل أَوانهْ
وطفت مقلتاه فوق مياه الـ ـنهرِ، والنهرُ سائرٌ في أمانِهْ
فتراءى له المصيرُ قريباً شفَّ عنه الزلالُ في جَرَيانهْ
وتراءى له ضريحُ رُخامٍ رقدتْ زهرةٌ على جدرانهْ
زهرةٌ حين ضلَّ عنها نداها ضلّ عنها الشبابُ في ريعانهْ
وتراءى له على صفحةِ الما ءِ سطورٌ مسودَّةٌ ، كزمانهْ
أَفصَحَتْ عن نبوءَةٍ تمَّمتها نزواتُ المساءِ في إبّانهْ

رعشة في الظلمة

أيتها الفتاة

«كيف حالُ المريض، ماذا جرى له كيف أمسى تُرى، وفي أيّ حالهْ؟
إنَّ قلبي لدى سؤالك هذا يقفُ اليومَ، قاطعاً آمالَهْ!
ما يُفيدُ النواحُ يا أخت نفسي إنني قسمة الردى، لا محالهْ
كلَّ ليلٍ أرى خيالَ ضريحي وأرى الموتَ يستعدُّ خِلالهْ
كنتُ قبلاً أُعلِّلُ النفسَ لكنْ علةُ الصدرِ لا تبقّي عُلالهْ
أمحقي ذكرياتِ أمس، فخيرٌ لكِ ألّا يبقى لأمسٍ سُلالهْ
أمحقيها بحقّ روحي وحُبّي أمحقيها، فالذكرياتُ ضلالهْ
واَعلمي أن دمعةً فوق مَن تهوين، تحت الترابِ تؤذي خيالهْ»

— المريض —

قرأتها فأمسكت عبراتٍ لو أُريقَت في النيلِ هالت جلالهْ!
عبرات من ذوبِ قلبٍ مُدمّى لو أُريقَت في القفرِ أدمَتْ رمالهْ!
أمسكتها عن الرسالة حتى لا تُهين الدموعُ تلك الرسالهْ
وكأنّ الدُجى مريضٌ يوالي في الشواطي مع النخيلِ سُعالهْ
وإذا رعشةٌ أمرّت عليها جانحيها، والليلُ يطوي ظلالهْ
وأتى الفجرُ شاحباً فوق موجاتٍ كأنّ السُعالَ أشغل بالهْ!

ليلة عصيبة

ذات ليلٍ كتربة القبرِ باردْ ... أو كصدرٍ، خلا من العطفِ، حاقدْ
عرّجَتْ غادةٌ ملثّمةُ الوَجـ ... ـهِ على فندقٍ بزحلة حائدْ
وأطلّتْ ترى المدينة في الليـ ... ـلِ بجفنٍ ساهٍ، وقلبٍ واجدْ
فإذا زحلةٌ كمقلةِ ثكلى ... وإذا النهر، ساكن الماءِ، جامدْ
فأحسّت برعشةٍ عقبتها ... خلجةٌ في صميم فكرٍ شاردْ
وأمالتْ عن المدينة وجهاً ... جهّمته أشباحُ تلك المشاهدْ
وأتاها الغلامُ يحملُ فِنجا ... ناً من الشاي في السكونِ السائدْ
نَظَرَتْ نظرةً إليه بجفنٍ ... هو للسهد والشجون مواردْ
ثم قالت: «كيف المريض؟» وأدنَت ... من حِفافِ الفنجانِ فاها الخامدْ
فأجاب الفتى ببعضِ ارتيابٍ: ... وحفيفُ الصفصافِ في النهرِ هاجدْ
«رحمَ الله من تُسمّين، أمسى ... القبر مأواهُ، منذ يومٍ واحدْ!»

* *

لم يكد يلفظ العبارة حتى ... جمدت جمدة الدُّمى في المساجدْ
وارتمت لا تفيق من شدة اليأس— ... فخاف الغلام— واليأسُ جاحدْ
أيها الليلُ ما ظلمتَ قلوباً ... لو عرفت القلوبَ ماذا تكابدْ!

على القبر

وترامى الصباحُ فوق الهضابِ   بخيوطٍ شفّافةٍ من ضَبابِ
وبياضُ الثلوجِ تحت ضياء الـ   ـفجرِ يبني بين الكرومِ روابي
وأطلَّ الرهبانُ من شرفةِ الدَيـ   ـرِ عزاءُ النفوسِ في الأتعابِ
فرأوا نقطةً على القبرِ سودا   ءَ كرؤيا تبينُ خلفَ السحابِ
قال صوتٌ: «هذي عروسٌ من الجـ   ـنِّ تزورُ الضريحَ للإرهابِ»
قال ثانٍ: «لا بل ذهِ روحُ ميتٍ   تستغيثُ الإله تحتَ العذابِ»
ومضى ثالثٌ يقول: «هي الرمزُ ليومِ الدينونةِ الغلّابِ»
وأخيراً مضوا إلى القبرِ حتى   يطمئنوا للمشهد العُجّابِ
فرأوا جثةً مبعثرةَ الشَعـ   ـرِ تناجي وعينها في الترابِ
لم يُبقِّ السقامُ والحزنُ منها   غير رؤيا بقيةٍ من شبابِ

* *

ما جرى للفتاةِ بعد فتاها   أيها الحُبُّ، يا سليلَ الخرابِ؟
ما جرى للفتاةِ؟ أينَ هي اليو   مَ؟ أجبني يا باعثَ الأوصابِ
هل طواها الذي طوى مَن أحبّتْ   أم تُراها عادت لذاك التصابي؟
عشْ طويلاً، وضحِّ ما شئتَ، يا حبُّ، إلى أن يثنيك يومُ حسابِ

٢٠ كانون ثانٍ ١٩٢٨

أفاعي الفردوس

الطبعة الأولى

١٩٣٨

في حديث الشِعر

لا أكتب هذه المقدّمة لأحدِّد الشعر، أو لأعلِّم الشاعر كيف ينبغي له أن يشعر، وأيّ طريق يجب عليه أن يسلك ليصل الى هيكل النور الأسمى، أو لأجيء بنظرية أتعصّب لها وأعلن لأجلها حرباً. فالشعر كائن حيّ تحتشد فيه الطبيعة والحياة، فلا يقاس ولا يوزن، والنظريات مذاهب وأغراض لا تعيش إلّا على هامش الأدب، كما يعيش العَرَض على هامش الجوهر أو كما يعيش الديكتاتور الزائل على هامش الأمة الأزلية.

وقد تصحُّ النظريات أو المذاهب في كتاب سياسي، أو وصية سياسية موجّهة الى شعب له أوضاعه الخاصة، وحدوده المقرّرة، وثقافته، وجنسيته، ولا تصحّ في شِعر يعبّر عن الحياة. فالحياة لا جنسية لها ولا أوضاع ولا حدود، وهي أوسع من أن نضع لها حدوداً ومقاييس، والدائرة غير المحدودة لا تنحصر في الحدقة الضيقة.

ليس للفكر حدّ ولا تخوم، فكيف نضع للحياة حدّاً وهي هدف الفكر؟ كيف نحدّد هذه القوة المتحوّلة في اللانهاية، هذه القوة المجهولة؟

وربّ قائلٍ إنَّ الإنسان دائم الشوق الى معرفة المجهول. وهذا صحيح. على أنَّ الشوق الى معرفة المجهول لا يَلزم العقل البشري، إلّا عندما يقتنع الإنسان بأن إدراكه الحسّي للعالم الخارجي لا يَكشف له حقائق الأشياء التي يراها ويلمسها، ويضطر الى

الاعتراف بأنّ إدراكاته الذاتية ليست سوى تأثيرات لسبب خارجي يجهل حقيقته. ولكن الجاهل لا تمرّ في خاطره أية شبهة بشهادة حواسّه الذاتية، ويعتقد كل الاعتقاد أنّ الأشياء التي يراها ويلمسها، هي الحقائق بعينها. ولا يمكن تحويله عن هذا الاعتقاد، لأن نظريته في مبحث المعرفة تمثّل أحطّ دركة من المادية التافهة، ولأنه يصرّ على إدراكه ما لا يُدرَك بل يُحسّ، يصرّ على إدراكه الحقيقة المطلقة ورؤيته إياها من وراء المظهر المتحوّل في الحياة.

كيف نستطيع إدراك ما لا يُدرَك بل يُحسّ، لنقيّده في دائرة ضيقة من اصطلاحاتنا البيانية، ثم نوزّعه مذاهبَ وطبقات هي سياسة الشِعر لا طبيعته؟ أليس من الخرق أن نحاول بلغةٍ وضعية تحديد لغة المجاز والكناية، لغة الروح، لغة الحس الوجداني العميق؟

وقد يعمد بعض هواة النظريات الى تحديد الشِعر بالطريقة الفلسفية، وفي هذا دليل على شكّ هذا البعض في الشِعر نفسه: في جوهر الحياة. فالمرء لا يَلزم جانب التفلسف إلّا عندما يخالجه الشكّ، مزعزع الاعتقاد بمطابقة المدارك الحسيّة لحقيقة الأشياء المدرَكة. وهذا الشك الفلسفي ينمّ في حدّ ذاته عن الاعتراف بعجز الوسائل العلمية وقصورها. وهذا الاعتراف يرغمنا، في نهاية الأمر، على التسليم بأننا لن نتمكّن من معرفة حقائق الأشياء بوسائلنا المحدودة، وأنَّ ضعف وسائلنا ناجم عن طبيعة تكويننا الناقص... وعندئذٍ يصبح المجهول في نظرنا، السرّ الغامض، أي الحدّ الأخير الذي يقف عنده الذكاء البشري.

هذا هو الشوط الذي تجتازه الفكرة الفلسفية، عندما تصدر عن الشك لتخلص الى الشوق لمعرفة المجهول. وإذا أضفنا الى هذه البيّنات، التأثير المخيّب لتقلّب الحياة في هذا العالم، ندرك في الحال أنّ من العبث والجهد الضائع التشبّثَ في البحث عن الحقيقة المطلقة الثابتة وراء مظهر الوجود المتقلّب، وعندئذٍ يغمرنا هذا الإدراك بكآبة عميقة، فنفهم السبب الحقيقي لذلك التشاؤم العميق الذي يستولي عادةً على الشعراء.

إذاً ، ثمة حقيقة غامضة ، من العبث البحث عنها لتحديدها. وقد قال الأب بريمون : «إن كلّ قصيدة مدينة بطابعها الشعري لتألّق هذه الحقيقة الغامضة». وربما أراد الأب بريمون أن يعني ، بهذه «الحقيقة الغامضة» ، الوحي. وهو في ذلك لم يجيء بنظرية ، بل عبّر عن شيء يجهله ولكنه يشعر به ، خلافاً لبول فاليري الذي تعمّد الإتيان بنظرية ، عندما قال : «إذا آمن الشاعر بالوحي قتل الإبداع». فإذا كان الوحي حالة من حالات النفس عند تأثّرها المباشر بقدرة خارقة ، وشئنا أن ننكر هذه الحالة ، أنكرنا جوهر النفس ذاته : أنكرنا مبدأ الحياة. وأيّة غضاضة على الشاعر أن يكون وسيطاً لهذه القدرة الخارقة؟ فالأنبياء كانوا يتسقّطون كلام الله. والقدرة الخارقة ليست منفصلة عن الإنسان ، فهي جوهر نفسه. فإذا أرسل الشاعر نظره في معرض الطبيعة ، واجترّت عيناه مشهداً من مشاهد هذا المعرض ، ثم خبزه على نار هذا الجوهر ، فيكون قد أعطاك من نفسه. والنفس هي المصهر الداخلي الخفيّ لكلّ ما يحيط بالإنسان. فإذا كانت النفس مفطورة على الصفاء ، وتهيأت لها العوامل الثقافية المكمّلة ، فإنها تنقّي الشعور من أدرانه ، وتقوم بهذا العمل من تلقائها ، فلا تكلّفك إجهاداً ولا تعمُّلاً... شأن المعدة الصحيحة تهضم الطعام وتتولى توزيع الدم النقيّ في الجسد وإخراج الفاسد منه.

قلت إن القدرة الخارقة ليست منفصلة عن الإنسان ، فهي جوهر نفسه. فعلى هذا الجوهر تنصهر المرئيات وتشترك في هذا العمل جميع الحواس. إذاً ، فالقدرة الخارقة التي يتأثر بها الشاعر ، هي نفسه. والنفس قوة لم يُدرك كنهها لتُحدّ ، فكيف ننفي الوحي الشعري ما دامت النفس مصهر الشعور؟ ويقول فاليري أيضاً إنّ الشاعر مَن يستطيع النظم ساعة يشاء ، وليس الشاعر وقفاً للمصادفة ، وإنه لمن الخطَل القول بأنّ الشاعر منفعِل لا فاعل ، ومتسقّط ما يُلقى عليه.

كأني ببول فاليري ، يريد أن يُنزل الشاعر منزلة النجّار أو الحدّاد يُقبل على عمله ساعة يحين موعد العمل أو ساعة يريد العمل ، فيكون فاعلاً لا منفعلاً. وهذا أبعد

حدود الخطَل ، وامتهان فاضح لجوهر الشعر. وأيان هو هذا الشاعر الذي يصطنع العاطفة اصطناعاً ، ليعطيك كلّ ساعة إنتاجاً كالنجّار يعطيك الخزانة في الوقت المتفق عليه؟

أيان هو هذا الشاعر الذي لا يتأثر بما حوله ومَن حوله ، فلا هجر حبيب يؤثّر فيه فيحرّك شعوره ، ولا موت صديق أو صديقة ، ولا نكبة عزيز ، ولا كارثة أمة ولا فرح شعب ، لا الظفر ولا الانكسار ، لا الذلّ ولا الكرامة ، لا ربيع الطبيعة ولا شتاؤها ، لا صيفها ولا خريفها؟

وأية غضاضة على قريحة الشاعر إذا هي مرّت بساعات خدر؟ أفيكون الشاعر ملتزم أشغال ، في يده مقياس الزمن لإنجاز عمله؟ أفلا يتفق للقريحة أن تمرّ في ساعات خدر فلا ترى ما تراه في ساعات اليقظة الروحية ، ولا تحسّ ما تحسه في ساعات التأثر والانفعال؟ وإلا ففيمَ لا يترك الشعراء من الروائع إلا ثلاثاً أو أربعاً لا تسلخ من العمر أكثر من سنة؟ قال أحد الشعراء الخالدين : «إذا أحصي الوقت الذي وقفته على نظم قصائدي ، فلا يعدو تسعة أشهر». وقال فاليري أيضاً : «إن الشاعر الموهوب مَن يختار اللفظة الصالحة لإحداث الرعشة النفسية وإحياء العاطفة الشعرية».

على أنّ الشاعر الحقيقي لا طاقة له على اختيار اللفظة ، فله من شعوره الزاخر ما يصرفه عن هذه الأُلهية. وعندي أنَّ الشعر ينزل مرتدياً ثوبه الكامل. وهذا الثوب جزء من الشعور لا يتجزّأ. وقدر ما تكون ثقافة الشاعر من الرقي والذوق الموسيقيّ في روحه ، يكون البيان راقياً في شعره. وهذه اللفظة التي يريدنا بول فاليري على أن نختارها ، تتكاتف العناصر الروحية فينا على اختيارها ، فلا تكلفنا هذا العناء أو تصرفنا عما تراه بصائرنا خلال الأحلام والرؤى. فكلّ ما يكتسبه المرء يصهره جوهر نفسه ، القدرة الخارقة ، فيصير عضواً فيه.

سوى أن فاليري ما لبث أن نقض نظريته في الوحي الشعري ، في محاضرة له عن

«إلهامات البحر المتوسط». وفي هذا دليل على فساد النظريات في الأدب. فقد وصف الشاعر الفرنسي الزوارق الماخرة عباب بحر الروم، والجِيَفَ الحمراء تتركها الأسماك المبقورة، وأهرامَ البرتقال المصدّر من إسبانيا، ودلّل على إقطاعات الروح البشرية والأساليب التي تتكوّن منها هذه الإقطاعات، وعلى تطوّر النور الناشئ والسماء والشواطئ، وأثر هذه المشاهد في روحه.

وشاء أن يحدّثنا عن جميع العوامل والمؤثّرات التي كان لها الفضل الأكبر في تكوين مخيلته وإحساسه، فأخبرنا أنّ جمال البحر جذبه في صباح يوم. وفيما هو يغتسل ويمتّع الطرف والروح بتموّج النور على سطح الماء، إذا بمشهد تقزّ له النفس يعترض نظره. فقد رأى على مقربة منه، في قعر الماء الصافي الشفاف، أشياء حمراء بلون الورد الخفيف أو الأرجوان العميق، وعلِمَ بكثير من المقت أنها كتل فظيعة من أحشاء الأسماك التي طرحها الصيادون في البحر. ولم يقوَ على الهرب مما رأى، ولا على تحمّله، لأنّ عاملَين في نفسه كانا يتنازعان الشعور بالجمال الحقيقي الغريب في فوضى هذه الألوان الأصلية. وفيما هو مستسلم الى المقت والرغبة في الاستفادة، يتقاسمه عامل الهرب وعامل التحليل، كان يفكر في ما يستطاع استنتاجه من هذا المشهد. ثم انتقل بالفكر الى ما في شِعر القدماء من الوحشية والدم، وتذكّر أنّ الإغريق ما تورّعوا عن وصف أفظع ما تقع عليه العين... وأنّ الأساطير الإغريقية وشِعر الملاحم والمآسي طافحة بالدم، ولكنّ الفنّ أشبه ما يكون بسطح الماء الصافي الذي رأى خلاله تلك الأشياء الفاحشة.

وانتقل بول فاليري الى الدور الذي مثّله البحر المتوسط بما اتصف به من الخصائص الماديّة في تكوين الفكر الأوروبي الذي حرّر العالم البشري بأسره. ومما قاله إن طبيعة البحر المتوسط والعَلاقات التي قرّرها أو فرضَها، كانت أساس التكوين النفساني والفني، هذا التكوين المدهش الذي استطاع ببضعة قرون أن يميّز الأوروبيين من سائر الخلق، والزمن الحاضر من الأزمان الغابرة، فأقوام البحر المتوسط هي التي خَطَت

الخطوات الأولى الواثقة لإيضاح الأساليب والبحث عن الظواهر الطبيعية باستخدام قوى الفكر.

وبعد أن وصف الشاعر مواقع البحر المتوسط ومزاياه الطبيعية، انتهى إلى القول بأن إبداع الشخصيّة البشرية ورفْعَها الى مستوى من الرقيّ والتطوّر الأكمل، كانا من مبتدعات هذه الشواطئ. ويتّضح لنا من هذا، أن فاليري أصبح مؤمناً كلّ الإيمان بـ«الوحي الشعري» بدليل أنّ البحر والشمس والسماء هي مصدر تكوينه وتثقيفه، وأنّ طبيعة البحر المتوسط كانت أساس التكوين النفساني والفني الذي ميّز الأوروبيين من سائر الخلق...

ولن أعمد هنا الى مجادلة هذا الرأي في تمييز الأوروبيين من سائر الخلق، فلكلٍّ في تمييز عنصره مدلولٌ يخالف به الآخر بل أقصر الكلام على الوحي الشعري من غير أن أذهب مذهب العرب القدماء في أنّ الوحي يلقَّن من فم شيطان، وأنّ الشياطين تسترق السمع وتُلقيه على الألسنة.

فالوحي يتولّد «على صفاء المزاج الطبيعي وقوة مادة النور في النفس»، على حدّ قول المسعودي. وأضرب مثلاً على ذلك هذا الغدير الصافي: لا تشقى العين في رؤية السماء وغيومها وسحبها ونجومها ماثلة في قعره، كأنّ هذه السماء وما عليها هاتف في أعماق نفس الغدير. وللطبيعة الحكم المطلق في تصريف النفس البشرية وأثرها الكامل في الحس، وليس في المبروءات النفسية والجسدية ما لا تحكمه الطبيعة.

وفي الطبيعة أسرار لطيفة لا يدركها الحس مهما دقّ، بل يشعر بها إذا قويت النفس. والنفس مهما قويت، لا تستطيع قهر الطبيعة لاقتناص سرّها اللطيف إلاّ إذا تجرّدت من أدران هذا العالم. وهذا مستحيل.

إذا تجرّدت النفس من هذه الأدران، بلغت النسبة النورانية الكاملة، بلغت مستوى الطبيعة، بلغت ذات الله. والنفس النقية هي الله.

على أنّ للنفس هنيهاتٍ تصفو فيها ، فينعكس عليها من الطبيعة جمال محجوب. وهذا الجمال يهتف في النفس أسراراً تُنطِق لسان الشاعر الثقيف بمعانٍ شريفة. وعبثاً نحاول معرفة هذه الأسرار ، فهي من الغموض واللطف بحيث تدقّ على أدقّ حس ، ويكفي أن نسمع من هذه الأسرار ما يُنطِق ألسنتنا ويفتح أذهاننا لمشاهدَ نراها بأم العين.

وربما أراد الأب بريمون بقوله : «إنّه لا حاجة لفهم معنى الشعر ، فالسحر المنبعث عن موسيقاه يؤثر في النفس تأثيراً مباشراً» ، ربما أراد بقوله هذا ، أن يعبّر عن تأثّر النفس بانعكاس الجمال المحجوب في الطبيعة عليها ، ويُظهر أنّ هذا الجمال الغامض إنما هو موسيقى الطبيعة تعزف على أوتار النفس معزوفات غامضة من نوع ذلك الجمال.

على أنّ هذا ، وإن يكن حقيقياً ، لا ينبغي جعله أساساً للشِعر. فالموسيقى هي عنصر من الشعر لا كلّه. وهذا العنصر غامض ككلّ شيء ، يُسمع ولا يرى. ومن الخرق الفاضح أن نكتفي من الشعر بموسيقاه ، ونقدّم فيه وصف ما لا يوصَف على سائر عناصره. فللشعر عناصر متساوية يجب أن تجري كلها في حلبة واحدة ، فلا تنحطّ الفكرة عن الموسيقى ، أو الصورة عن الفكرة.

ومن الخرق أيضاً ، أن نتّخذ الشذوذ قاعدة للشِعر ، فنذهب مثلاً مذهب الأب بريمون القائل بأنّ الشعر الجميل يخلو أحياناً من المعنى ، أو إذا انطوت أجزاؤه على معنى فلا ينطوي عليه في مجموعه. فالشعر إذا اقتصر على الموسيقى لا يلبث أن يشيع الملل حتى في الأذن. ولا بدّ هنا من القول إن الشِعر يرافق جميع وجوه التفكير. فالشاعر قد يطرق باب الفلسفة ولا ينحطّ عن الشعر. على أنّ هذا الشاعر ليس بأبي العلاء المعرّب مثلاً ، فأبو العلاء يقحم الفلسفة في شعره فيناقش فيها كالمعلم العالم ، ولا يلزم المزاج الفني فيلمع الى الفكرة التي تبدو له بتعبير يستخدم فيه جميع أنواع المجازاتِ والاستعارة والرموز بحيث يُحدث التأثير النفساني المنشود.

وقد يطرق الشاعر أيضاً باب الزراعة ولا ينحطّ عن الشِعر ، كما فعل فرجيل في «الجيورجيات» . فقد نظم هذا الشاعر قصيدته هذه ، ليحمل الرومانيين على تعشّق الأرض نزولاً على رغبة أوغسطس . على أنه سيّر معارفه الزراعية في موكب من الألفاظ الموسيقية حمّله من عذوبة الحنان وروائع الوصف ، ما أدرج قصيدته في عِداد الروائع الشعرية الخالدة .

وما أقوله عن فرجيل ، أقوله عن جميع الشعراء الأقدمين والمتأخرين الذين استخدموا مواهبهم لاكتشاف كنوز الطبيعة والحياة . فالطبيعة هي قيثارة الشاعر ، وعبثاً يحاول الشاعر البحث عن أوتاره في غير هذه القيثارة . والشاعر الحقيقي هو تاريخ عصره ملحّناً ، فلولا الشعر ما عُرف تاريخ العرب في الجاهلية ، ولولاه ما عُرف تاريخ الفروسية والكرامات عند الرومان ، ولولاه ما عُرف تاريخ الإغريق . ولما أراد الكاتب الفرنسي إتيان باسكيه وضع كتاب عن الحياة الوطنية في القرون الوسطى ، اضطُرّ الى قراءة الملاحم الشعرية .

قرأت أخيراً مقالاً للكاتب الفرنسي إدمون جالو عن شاعر عظيم من شعراء القرن الثاني عشر يدعى شوتا روستافيلي ، عاش تحت السماء التي أظلّت الفردوس الأرضي وجبل أرارات الذي وقف عليه فلك نوح . يقول إدمون جالو إنّ لهذا الشاعر الذي اكتُشف أخيراً ، قصيدة أو ملحمة رائعة هي أمدوحة للإنسان كما كيّفته أواخر القرون الوسطى ، في قوّته ، وشعوره بالشمم والعدل ، وسذاجته على عتبة الانبعاث . قال : «حالما نقرأ هذه القصيدة (إنسان في جلد نمر) ، نقع في ذهول حيال هذه السكرة الشرقية ، ذلك بأننا نحن الغربيين المساكين ، فقدنا عادة التشنّج الكلامي ، ونكاد نختنق في هذا الجوّ من البخور والألوان» . ونحن الشرقيين ، فقدنا بدورنا ذلك التشنّج الكلامي ونكاد نذوب في هذا الجو من البخور والألوان الغربية ... هذا الجو الذي اجتاحت غيومه السامة بلدان الشرق مندفعة بقوة الاجتياح السياسي .

وإني لأتساءل : ماذا ترانا نستطيع بهذا القاموس الضيّق ، هذا القاموس المستوَرَد

تتشبّث فيه للتعبير عن أعمق حقائق النفس ، فنرفع الكلفة بيننا وبين اللغة ، ولا نتورّع عن سلوك مهامه غائمة كأننا في حلم؟ وقد يخيّل إلينا ، ونحن نسلك هذه المهامه ، أننا نسير في الطريق الشعري السويّ ، بينا نحن ، في الحقيقة ، لا نحاول إلا الخروج من أنفسنا مستعبَدين لنظريات خلطئة بل مضرّة تحرّر منها حتى مبدعوها أنفسهم. فبول فاليري الذي جاءنا بمشاريع نظريات خلقت في الأدب العربي جيلاً مضعضعاً ، لم يحد عن صراط ماليرب ، ولم يتمرّد على القاعدة الكلاسيكية في النظم. وإني لأجد في شعر فاليري أبياتاً كثيرة يستطاع دسّها في شعر لامارتين ، كما إني أجد في شعر البرناسيين أمثال غوتييه وبودلير ما يستطاع نسبته الى شعر أعدائهم الرومانطيقيين كلامارتين وهوغو وفينيي ، وشعر الرمزيين كفرلين ومالارميه.

قلت في مستهلّ هذا الحديث ، إني لا أكتب هذه المقدمة لأحدّد الشعر أو لأجيء بنظرية أتعصب لها وأُعلن لأجلها حرباً ، بل أكتبها لأردَّ صادراً إلى مصدره ، لأردَّ الشعر إلى الطبيعة أمّه. فمنذ اليوم الذي تأزمت فيه المشادة بين أدباء الغرب ، وطلعت وحوش النظريات من أوجارها يكشر بعضها في وجه البعض الآخر ، التوى الشِعر عن قصده ، وأصبح زياً يتلوّن بتلوّن الأهواء. ولكنّ النفس لا تخطئ لأنها معكس ومصهر لحقايق أبدية هي الطبيعة والحياة. ففيما المدارس الشعرية منصرفة إلى التطاحن ، إذا بطائفة من مبدعي هذه المدارس ترتفع عن الفرضيات الزائلة الى المصدر الأبدي. فرأينا بودلير البرناسي يصدر عن نفسه ويلتقي بفرلين الرمزي على صعيد واحد ،ورأينا جميع الشعراء الحقيقيين من زعماء المدارس يتفلّتون في الأودية المظلمة ، ويجتمعون أنقياء على قمة واحدة هي الشعر.

فالمدارس الشعرية سجون ، ونظرياتها قيود ، والشاعر لا يعيش في جوّ العبودية هذا. فالطبيعة ، هي جوّه الفسيح تتكيّف إحساساته بتكيّف المظاهر المتقلّبة فيه ، وإذا خرج الشاعر من هذا الجوّ ، خرج من نفسه وكذب على نفسه.

الياس أبو شبكة

شمشون

ملّقيهِ بحُسنِكِ المأجورِ وادفعيهِ للانتقامِ الكبيرِ
إنَّ في الحُسنِ، يا دليلةَ، أفعى كم سمعْنا فحيحَها في سريرِ
أَسكَرَتْ خدعةُ الجمالِ هرقلاً قبل شمشونَ بالهوى الشرّيرِ
والبصيرُ البصيرُ يُخدع بالحُسنِ وينقادُ كالضريرِ الضريرِ

* *

ملّقيهِ، فالليلُ سكرانُ واهٍ يتلوّى في خِدرِهِ المسحورِ
ونسورُ الكهوفِ أوهنها الحُبُّ فهانَتْ لديهِ كالشحرورِ
وعنا الليثُ للّبوءَةِ، كالظبي، فما فيه شهوةٌ للزئيرِ

* *

شَبِقَ الليثُ ليلةً، فتنزّى ثائراً في عرينه المهجورِ
تقطر الحمّة المسعّرة الشهّاءُ منه، كأنه في هجيرِ
يضربُ الأرض بالبراثن غضبانَ فيُصدي القنوط في الديجورِ
ووميض اللظى يُغلف عَينَيهِ فعيناه فوهتا تنّورِ

* *

ونزا من عرينه، تتشظّى حممٌ من لظاه في الزمهريرِ
واللهاثُ المحمومُ من رئتيه يُشعل الغابَ في الدُجى المقرورِ
فسرى الذعرُ في الذئابِ، ففرّت وترامى الى عشاش النسورِ
وإذا لبوة، مخدّرة الحُسـ ـنِ تردّت من كهفها المحدورِ
تنضح اللّذةُ الشهيّةُ منها: خمرةٌ من جمالها المأثورِ
فتنثّ العبيرَ في مخدع الليـ ـلِ فتَشهى حتى عروقُ الصخورِ
فتلاشى اللهيبُ في سيّد الغا بِ أميرِ المغاورِ المنصورِ
والعظيمُ العظيمُ تُضعفُه أنثى فينقادُ كالحقيرِ الحقيرِ

* *

ملّقيهِ، ففي أشعّةِ عَينيـ ـكِ صباحُ الهوى وليلُ القبورِ
وعلى ثغركِ الجميلِ ثمارٌ حجبَت شهوةَ الرّدى في العصيرِ
ملّقيهِ، فبينَ نهدَيكِ غامت هوّةُ الموت في الفراشِ الوثيرِ
هوّة أطلعَت جهنّمُ منها شهواتٍ تفجّرت في الصدورِ
ملّقيهِ، ففي ملاغمِك الحُمـ ـرِ مساحيقُ معدنٍ مصهورِ
يسرّبُ السمّ من شُفافتها الحرّى إلى ملمسِ الرّدى في الثغورِ

* *

خيّم الليل، يا دليلة، في الغا بِ وأغفى حتى الشذا في الزهورِ
فأنشقي فورة الحرارة من جِسـ ـمي وغذّي قواكِ من إكسيري
أنتِ حسناءُ، مثل حيّة عدْنٍ، كورودِ الشارونِ ذاتِ العطورِ
وكغُفر الوعل الوديع، وإن كُنـ ـتِ تناجين عقرباً في الضميرِ
لستِ زوجي، بل أنتِ أُنثى عُقاب شرسٍ في فؤاديَ المسعورِ

فاَشتهي ، كلّ ليلة ، مخلبي الدامـي على خزّ جسمِكِ المخمورِ

* *

وأتى الصبحُ ضاحك الوجه يرغي زَبَدُ النورِ في ضحاه الغريرِ
أينَ شمشونُ يا صحارى يهوذا؟ أينَ حامي ضعيفِك المستجيرِ؟
أينَ قاضيكِ ، دافعُ الضيم ، طاغي الـمستبدّين ، صائنُ الدستورِ؟
أَعْوَرَتْ شهوةٌ من الحُبِّ عَيْنَيـ ـهِ وكم أَعوَرَ الهوى من بَصيرِ
إنَّ قاضي المستعبَدين لعبدٌ وقضاةٌ عورٌ قضاةُ العورِ

* *

حَفَلَت قاعة العِقاب بجمعٍ من سُراة المسوّدين غفيرِ
هم رموز الشقاق والفِتَن الحمـ ـراءِ والغدر والزنى والغرورِ
أقبلوا يشهدون مصرعَ شمشو نَ على لذّةِ الطّلا والزمورِ
أَيُدينُ الخاطي جناةٌ صعاليـ ـكُ ويقضي الفجورُ ذنبَ الفجورِ؟
وَسَرَتْ خمرةُ الوليمةِ في الحفْـ ـلِ لتقديسِ ساعةِ التكفيرِ
وكأنَّ النسيمَ شُوِّقَ للخمـ ـرةِ فاَنسلَّ من شقوقِ الخدورِ
ولِنَقْرِ الدّفوفِ صوتٌ غريب يتحدّى صوتَ العِقابِ الأَخيرِ
واذا قينةٌ تَخالجها السكـ ـرُ على مشهد من الجمهورِ
فتثنّت تضاجعُ الجوّ نشوى من تَلَوِّي قوامِها المحرورِ
رقصة الموت ، يا دليلة ، هذي ، أم تُراها اختلاجةً في الخمورِ؟

* *

وصغا الجمعُ للأسيرِ يُناديـ ـهِ بشتّى مطاعن التحقيرِ:
«هيه شمشونُ، أيّها الفاجر الزِّنــديقُ، يا عبدَ يهوهَ المقهورِ

* *

أَحكيمٌ من العتاة، تذرّي شَعرَهُ قينةٌ من الماخورِ؟»
فتلوّى شمشونُ في القيدِ، حتى حلّ فيه روح الإله القديرِ
فنزا نزوة الوميض من الغلّ ودوّى كنافخ في صورِ:
«بَدّدي، يا زوابع النار، أعدا ءَ إلهي، ويا جهنمُ ثوري
وتنفّسْ، يا موقد الثأر، في صَدْ ري وأغرِق نسلَ الرّيا في سعيري
وامصصي، يا دليلة الخبثِ، من قلـ بي، فكم مرة مصصتِ قشوري
وارقصي، إنما البراكين تغلي تحت رجلَيكِ كالجحيم النذيرِ
وتَغنّي بمصرعي، فكثيراً ما سمعتُ الفحيحَ في المزمورِ
أصبح الليثُ في يدَيكِ أسيراً فاطرَحيه سخريّةً للحميرِ
واجعلي الغلَّ رمزَ كلّ صريح واليواقيتَ رمزَ كلّ غدورِ
إن أكنْ سُقت في غرامِكِ شراً فالبرايا مطيّة للشرورِ
غير أني أجني من الجيَفِ الجر داءِ — مهما قذرتُ — شهدَ قفيرِ
هيكلَ الإثم، لم أُبِحْ لكَ ذُلي، شبحَ الرقّ، لم أُسلِّمك نيري
فاسقطي يا دعائمَ الكَذِبِ الجا ني وكوني أسطورة للدهورِ
محقَ اللهُ فيّ شرّ ظلامي فَلْتُضِئْ في الحياةِ حكمةُ نوري
إنْ تكن جزَّتِ الخيانةُ شَعري في ضلالي، فقوّتي في شعوري»

١٩٣٣

القاذورة

حلمتُ بدنيا— ليتَها لا تَبدّدُ
لذائذُ أحلامي، ولا كان لي غدُ

أضنّ بإنشادي على الناسِ سحرَها
وهل في الوَرى أُذنٌ إذا قمتُ أُنشدُ؟

وأُوقـظتُ مذعوراً إلى شرّ هاجسٍ
كأنيَ روح، في جُثام ٍ، مُشـرَّدُ

نُفيقُ من الحلم الشهيّ إلى رؤىً
كـوابـيس في يقـظاتنا تتسرّدُ

فألفيتُ دنيا من فواجعِها الورى
على بابها، لوحٌ من الرقّ أسودُ

قرأتُ عليه أحرفاً خطّها اللظى
يَروعك منها اثنان: «سجنٌ مؤبّدُ»

فطوّفتُ في عمرٍ من الليل والخنا
يعربد، والأرجاس تُرغي وتُزبدُ

وللحَمَأ الغالي نشيشٌ ورغوةٌ
كـأنّ الـورى مستنقعٌ يتنهّدُ

وأغمدتُ في صُلبِ الدجنّةِ ناظري
وفي كلّ جفنٍ لي من الهدبِ مبردُ

فـأبصرتُ أطبـاقـاً تُعمّدها يدٌ
أصابع من عظمٍ، وتصبغُها يدُ

صباغٌ يفور الخزيُ منه ملاصقاً
إذا عَلِقَت فيها النواظرُ تجمدُ

وشاهدتُ في الأطباقِ مفسدةَ الورى
تمورُ بها الديدانُ سكرى تعربدُ

مقاذرُ تمشي في الحياةِ طروبةً
تـغنّي، وأصداءُ القبور تُردّدُ

همُ الناسُ في الدنيا تهاويلُ حُنِّطَتْ
بكيتُ عليهم في جحيمي، وعَيّدوا

وما هذه الدّنيا، يذرّى رمادُها
لريح الفنا، إلا جحيمٌ مرمّدُ

تلاشَت به النيرانُ، غير بقيّةٍ ... تشبّ، لها في شهوةِ الطينِ موقدُ
فني طبق، مستنقعٌ في صقيعِهِ ... نمت حشراتٌ فاجراتٌ تَوَقَّدُ
نساءٌ أَقلَّت في الصدور مراضعاً ... على فمها الورديّ للإثم موردُ
عواهرُ أَفنَت في الفجور شبابها ... فما روحها إلا عجوز تَقوّدُ
مراضعها فطساءُ، فهي ضفادعٌ ... على ما بها من شهوة النار تجلدُ

* *

وداعاً، عذارى الحُبّ، في خِيَم الهوى ... جمالُكِ محظور، وعدنكِ موصَدُ
فقدتُكِ حتى في أغانيَ مزهري ... وكان لشعري منكِ ما يتجوَّدُ
ألا أَغلقي الفردوس في وجه شاعر ... يضمّ طنابير الجحيم ويُنشدُ
لئن تكُ نارُ البغضِ تَلْظى بعينه ... فني قلبه النوّار للحُبّ مزودُ
يحسّ فراديس الحياة بروحه ... وليس يرى إلا جحيماً يهدّدُ
كما يَثبتُ الصفصافُ في عاصفِ الدُجى ... وللأفْقِ وجه هابط الغيمِ أربَدُ
وللريح في الغاباتِ زعق، كأنه ... صدى الجنّ في وادي الجحيم يزغردُ
كذلك يبقى، في دجى النفس، ثابتاً ... جمالٌ، له في قبّةِ النفس فرقدُ

* *

وفي طبق، وادٍ تكدّر ماؤه ... فلا عشبة تنمو ولا غصنَ يُنْقَدُ
ولا تسمعُ الأرواح في شعفاته ... خليّاً يغني أو هزاراً يُغرِّدُ
فثمّة جرذانٌ ترى النورَ آفة ... فتؤثِرُ أوجارَ الظلامِ وتلبدُ
ملوكٌ يقاضون النفوسَ الى السما ... وينهي بأيديهم ضميرٌ مدوّدُ
على فمِهم سفرُ السماواتِ مُشْرَعٌ ... وفي روحهم سيفُ الجحيم مُجرّدُ

إذا ما لحاهم مؤمنٌ، فهو فاجر وإن ندّ من أغلالهم، فهو ملحدُ
وثَـمَّ خفافيشٌ، مواليدُ بؤرة إذا غارَ فيها سيّدٌ، بان سيّدُ
سلاطينُ حُفَّتْ بالسياطِ عروشُهُم فسيّدهم — هولَ الصعاليك — مجْلدُ
ترى منهُمُ العاتي يَقيء نخاعَه صباغاً على شسع الغزاة ويسجدُ
وثَـمَّ جراداتٌ عطاشٌ غوارث ينكّرها وهجُ الجناحِ فتمردُ
محبّرة الأردان، مفجوعة الحشا توابيت يطليها لُجين وعسجدُ
لها في مقاصير السماء مطامحٌ وليس لها في مسلك الجوّ مقْودُ
تفرّش فيه وُقَّحُ الوجه والسما لأنسرها، لا للصراصيرِ، مصعدُ
قياصرةٌ عُور الملاحم، زُيّفت يواقيت في تيجانهم وزمرّدُ
مجانينُ تستافُ البلى من خيالهم يُناط بهم، من نسلِ عبقرَ، سؤددُ
مواليدُ فردوسٍ أراغوا نفوسَهم فلم يبقَ للوجدانِ فيهنّ مولدُ
عبيرُكَ من نور الفراديسِ عبقرٌ ومغناكَ في متنِ السماكِ مشيّدُ
وتُشعل في عينيكَ نارٌ نقيّة بمَقدسِها طيف السماءِ مجسّدُ
وصدغُكَ مدهونٌ بزيت مطهّر وبالبلسم الشافي هواكَ مضمّدُ
رأيتكَ تمشي في المساخر شاعراً وتاجُك محطوم عليك، مكمّدُ
وروحُكَ ممسوخ، ونوركَ ذاهلٌ وشعرُكَ بالغلّ الدنيء مصفّدُ
وشاهدتُ أَشباحَ السماءِ كئيبةً عليكَ، بأسواط الأراجيفِ تُطرَدُ
ففيمَ أَزغتَ النفسَ عن نهج قدسها فصارت مغاراً سافلاً وهي معبدُ؟

١٩٣٤

الأفعى

أَجيبيه ، أَنّي ما أزال مقرّباً بنفسي ، إلى نجمٍ يقال له الشعرى
وأنيَ لم أنسلَّ في سرَب الدجى بغاءً لألقيه على دَعَري سِترا
ولم أَغشَ أخدارَ النساءِ من الكوى فأجعل سيّين: المغارة والخدرا
وما رغتُ من زوجٍ ، فدارجته على ولائي ، وفي هذا الولا بُغية نكرا
فلما قطرتُ الصدقَ خبثاً بصدره قطرتُ له في نسله قطرةً أخرى

* *

أقول لها : أعراق زوجِكِ لم تزل وفي قلبِه عطفُ الأبوّةِ لم يَبْرَ
ولم يبرَ إحساس الرجال بصدرِهِ فحبُّكِ يجري منه في الجهةِ اليسرى
أقول لها : ثوبَ العفافِ تذكّري ففي ساعة الإكليلِ لم يَكُ مغبّرا
لبستِ رداءَ العرسِ ، أبيضَ ناصعاً فمن أين جاءت هذه اللطخة الحمرا؟

* *

رسائلك الحمقاءُ ، أصبحن في يدي أعيذك بالشيطانِ من هذه البُشرى
لقد أيبسَ التكفيرُ أزهارَ عهدِها فسلَّمَتِ المجنونَ أحلامك الخضرا

لقد ندمَت، لكن سترجع ، إنّني لمحتُ عليها من ندامتها طمرا
ستملكها ما شئتَ بعدُ ، فلا تخَف وتمتصّها حتى تُصيِّرها قشرا
ستحفرُ مصقولَ الرخامِ بجسمِها شفاهُكَ ، حتى تُبرزَ الأعظم الصفرا
ستمزجُ بالسمّ الزّعافِ دماءَها لتجعلَها للموتِ مصلاً فيجترّا
وترمي بها في حمأةِ الويل والخنى سُقاطة عار تلهم الخوفَ والذعرا
أجل ، سيراكَ الليلُ ، بعدُ ، تضمّها ويبصرُكَ المصباحُ تعصرُها عصرا
وسوف ترى فيكَ المآثمُ نعجةً قد التصقَت في بطنِها حيةٌ سَمرا
ستملكُها ما شئتَ، بعدُ، فلا تَخَفْ فإنّ ٱبنَها لمّا يزَلْ يجهلُ الأمرا
صغيرٌ، بريءُ العين، يرضى بلعبة فيرقد مغبوطاً بذي الهبةِ الكبرى
ينام، ولا يدري بأن سخافة تلهّى بها، كانت لموبقة سعرا

١٩٢٩

في هيكل الشهوات

ما لي أَرى القلبَ في عينيكِ يلتهبُ ألَيسَ للنارِ، يا أُختَ الشقا، سببُ؟
بعضُ القلوبِ ثمارٌ ما يزال بها عَرفُ الجنان، ولكن بعضُها حطبُ

* *

ذكرتُ ليلةَ أَمسٍ، فاّختلجتُ لها والليلُ سكرانُ مما سحّتِ السحُبُ
ذكرتُها، غيرَ أنّ الشكَّ خالجَني: إنّ النساءَ إذا راوغنَ لا عَجَبُ
فهنّ من حيّة الفردوس أمزجةٌ يثور فيهنّ من أعقابها عَصبُ

* *

أخاف في الليل من طيفٍ يسيلُ على موجات عينيكِ حيناً، ثم يغتربُ
طيفٌ من الشهوةِ الحمراءِ تغزله حمرُ الليالي وفي أعماقه العطبُ
ووجهُكِ الشاحب الجذابُ تُرهبني ألـوانُهُ، يتشهّى فوقها اللهبُ

* *

ما زلتِ تغتصبين الليلَ في جَهَد حتى تجمّدَ في أجفانِكِ التعبُ
وما السواد الذي في محجريكِ بدا إلا بقايا من الأَحشاءِ تُغتصَبُ

وحقِّ طفلكِ، لم أشمت بإمرأةٍ زلّت بها قدم، أو غرّها ذهبُ
فربّ أنثى، يخون البؤسُ هيبَتَها والبؤس أعمى، فتعيى ثم تنقلبُ
لي مهجةٌ، كدموع الفجر، صافية نقاوتي والتُقى: أمٌّ لها وأبُ
فكيف أختلس الحقّ الذي اختلسوا وكيف أذأبُ عن لؤمٍ، كما ذئبوا؟
لي ذكرياتٌ، كأخلاقي، تؤدِّبُني فلا يخالجني روغ ولا كذبُ
أَبقى ليَ الأمسُ من غلواء عفّتها ولم يزل في دمي، من روحِها، نسبُ

* *

وحقِّ روحِكِ، يا غلوا، ولو غدَرت بيَ الليالي، وأَصْمَتْ قلبيَ النُوَبُ
إن كنتُ في سكرةٍ، أو كنتُ في دعرٍ، ومرّ طيفُك، مرّ الطهرُ والأدبُ

* *

وأنتِ، يا أمَّ طفلٍ، في تلفُّتِهِ سؤلُ العفاف، وفي أجفانِهِ لعبُ
صُبّي الخمورَ، فهذا العصرُ عصرُ طلا أما السكارى، فهم أبناؤه النُجُبُ
لا تقنطي، إن رأيتِ الكأسَ فارغة يوماً، ففي كلّ عامٍ ينضجُ العنبُ
صُبّي الخمورَ، ولا تُبقي على مُهجٍ موج الشباب على رجليكِ يصطخبُ
أما أنا، ولو استسلمتُ أمسِ إلى خمرِ الليالي، فقلبي ليس ينشعبُ
قد أشربُ الخمر، لكن لا أدنّسها وأقربُ الإثمَ، لكن لست أرتكبُ
وفي غدٍ، إذ تنير الطفل ميعته وتهرمين، ويبقى ذلك الخشبُ
قولي له: «جئتَ في عصر الخمور، فلا تشرب سوى الخمر، واَسْحب مثلما سحبوا»
قولي له: «هذه الأيام مهزلة وليس، إلا لمن ينشى بها، الغلبُ»

قولي له : «عفةُ الأجساد قد ذهبت مع الجدود الأعفّاءِ الأُلى ذهبوا»
قولي لطفلكِ ما تستصوبين غداً فكلّ أمرٍ له في حينه خُطبُ
ولكنِ اليوم، صبّي الخمر، وآنتخبي من الملذّاتِ، ما الآثامُ تنتخبُ
ولا تخافي عَذولاً، فالعذول مضى والعصرسكران، ياأختالشقا، تَعِبُ
طريقه الشك، أنّى سار، يملكه وحلمه الشهوات الخمرُ والقربُ

١٩٢٩

سدوم

مغناكِ ملتهبٌ، وكأسُكِ مُترَعهْ ... فاْسقي أباكِ الخمر، واْضطجعي مَعَهْ
لم تُبقِ في شفتيكِ لذاتُ الدِّما ... ما تذكرينَ به حليبَ المرضعهْ
قومي اْدخلي، يا بنت لوط، على الخنى ... واْزني، فإنّ أباكِ مهّد مضجَعهْ
إن تُرجعي دمك الشهيّ لنبعهْ ... كم جدولٍ في الأَرضِ راجع منبعهْ
لا تعبأي بعقاب ربِّك، إنه ... جرثومةٌ من نارِكِ المتدفِّعهْ
في صدرِكِ المحمومِ كبريتٌ، إذا ... لعبَت به الشهواتُ، فجّر أضلُعَهْ
في صدرِكِ الدامي، مناجمُ للخنى ... أورثتِها نارَ الذراري المزمعهْ
فبكلّ صقعٍ من ضلوعك قسمة ... خلَعٌ على لهب الشبابِ موزّعهْ

* *

إِيه سدومُ، بُعثتِ من خللِ اللظى ... حمراءَ في شهواتِكِ المتسرّعهْ
في كلّ جيلٍ من لهيبكِ سُنّة ... سكرى محطّمة عليه مخلّعهْ
عقبَت بيَ الذكرى إليكِ، فأشعَلَت ... قلبي وأجفاني رؤاكِ الموجعهْ
شاهدت، من خللِ اللهيبِ، حدائقاً ... كانت نواضرَ في الفصولِ الأربعهْ
نَشقَت من الفردوس عبقة سحره ... ومن السماء طيوبها المتضوّعهْ

خضراء طاهرة الغراس كأنها بصفاء عدنٍ لا تزال مبرقعهْ
وكأنّ من تكفير آدم نفحةً فيها، ومن صلواتِ حواءٍ دِعهْ
ورأيتُ غدراناً: مراضع تربة بأجنّة الزهر النديّ مرصّعهْ
ومراوح الفجر الجميل على الذرى يلقى عليها كلّ طيرٍ مخدعهْ
ورأيتُ حوراً في شفوفِ زنابق بيضاء، من لبن الجنان مشبّعهْ
نفخ الصبا بنهودِها، فتكوّرت وتبسّمت عن وردةٍ مترفّعهْ

* *

ماذا فعلتِ، سدومُ؟ أين جواذبٌ كانت على تلك الخدور مجمّعهْ؟
فيمَ استحالَ لُبانك النامي، إلى خمر، بكاساتِ الفجور مشعشعهْ؟
ذوّبت خمركِ، لا ليصبح طاهراً لكن ليستهوي النفوسَ فتجرَعهْ
وجعلتِ غرغرةَ الأفاعي كأسه ليذوق منها كلّ قلبٍ مصرعهْ

* *

سَكِرَتْ بك الدنيا، سدومُ، فكلّها زمرٌ على طرق الحياةِ متعتعهْ
وأَثرتِ حنجرة الفجور، فأطلقت حِمماً على نغمِ الجحيمِ موقّعهْ
أغنيّة حمراء، أنشدها الخنى مِزَقاً على أَوتارِكِ المتقطّعهْ

* *

أسدومَ هذا العصر، لن تتحجّبي فبوجهِ أملكِ ما برحتِ مقنّعهْ
كانت منكّرة كوجهكِ، عندما هبّت عليها من جهنّم زوبعهْ
قذفتك صحراءُ الزنى بحضارة ثكلى، مشوّهةِ الوجوهِ مفجّعهْ
بؤرٌ مستّرة الفساد بخدعة نكراء، بالخزّ الشهيّ مرقّعهْ

* *

أسليلةَ الفحشاء، ناركِ في دمي فتضرّمي، ما شئتِ أن تتضرّمي

أنا لستُ أخشى، من جهنّم، جذوة ما دام جسمي، يا سدومُ جهنّمي

طوّفتِ بي، ميتاً، بأروقةِ اللظى فحملتُ تابوتي، وسرتُ بمأتمي

وعصبتِ بالشبقِ المجمّرِ جبهتي فرفعتُها في عصريَ المتهكّمِ

علّمتِني لغة النبوءة، عندما فجّرتِ ألغامَ السمومِ بمنجمي

مهلاً، كلانا يا سدومُ، مسلّح فلظاكِ في جسمي، وثأركِ في فمي

سيّرتِ قلبي، في المهازلِ، شاعراً وذررتِ مسحوقَ العظات بمرقمي

فكأنَّ غَضبةَ أنبيائكِ، عندما أُحرقتِ، عاشت في اللظى المتكلّمِ

* *

أَبغيِّ هذا العصر، خمركِ فاَغرُفي واَسقي ذراريّ الورى، واَستسلمي

وبمضجعِ الغرباءِ، نامي حقبة ثم اَعدلي عنه لآخر، واَرتمي

وترنّمي ما شئتِ، في حمأ البلى حتى يجفّ بك الرضاع، وتهرمي

حتى تضاجعَكِ الأفاعي في الدّجى ويصيرَ حسنُكِ، مخدعاً للأرقمِ

حتّى يفورَ الدُّودُ منكِ، وينثني يمتصّ جيفة عرضك المتهضّمِ

حتّى يدبَّ الموت فيكِ، وتمّحي ذرّيّةُ المهدِ الأثيمِ المجرمِ

١٩٣١

الخيال النقي

يا ٱبنةَ الإثمِ ، هذه شفتايا فٱرشفي منهما رحيقَ الخطايا
وٱعصري ، ماٱستطعتِ ، قلبي ، فقلبي لم يزل فيه من غرامي بقايا
وتَوَقّي إحدى زواياه ، لا تَقْـ ـسي فلي حرمةٌ بإحدى الزوايا
إنّ في قلبيَ البغيَّ ، خيالاً من عفافٍ ما فاجرَته البغايا
إن تكن حفنتي المدمّاهُ ملكي فخيال العفافِ ملكُ سوايا

١٩٢٩

عهدان

أَوَلا تـراهـم يَـرتـدونَ الـليلَ حـتى مـنتهـاهْ
يسـتـنـزفونَ دم الشـبـاب ويـرقصـونَ على قـواهْ؟
هـذا فـتىً، كـانت تمَوَّجُ بـالجواذبِ وجـنـتـاهْ
كـان الـندى يـطـفـو على آمـالـه وعلى صـبـاهْ
كـانت أزاهـيرُ الـربـى بـالأمسِ تَسـكَـرُ من شذاهْ
وذُرى الجبالِ، إذا رأته، تقول: «ما أعلى ذُراهْ!»
مـاذا دهـاه الـيومَ؟ الشـهـواتُ تـعـرفُ مـا دهـاهْ
أمـا الجمالُ، فـإنـه لم تَـبـقَ تـعـرفـه دُمـاهْ
ولـكـم سمعتُ الـوردَ، يـنكره فيسأل: «مَن تُراهْ؟»
والـفـجرُ، أصبـح يعرف الدنيا جميعاً... ما عداهْ

* *

عـهدانِ: عـهـد هـوىً نـقيّ مات في شرف وجاهْ
وهـوىً يـعـربـدُ في دمي وتـنشّ في كـأسي دمـاهْ

لم أَدرِ مَن هي أُمه العرّى، ولم أعرفْ أَباهْ
بحر من الشبهات: مرآةٌ لأهوال الحياهْ
ألهمّ صخرتُه الصغيرة والمساخر شاطئاهْ

* *

لا تطعمِ الحبَّ اللجام ودعْه يدلج في سراهْ
دعه، فأمُّ الطفل تملكه كما ملكت سواهْ
لسريرها خلجاته ولمرشفيها مرشفاهْ
ونساء هذا العصر، إن أحببنَ، أطعمنَ الشفاهْ
أما قلوب العاشقات، فإنها... وآخجلتاهْ!

١٩٢٩

الشهوة الحمراء

أَطفئْ ضياكَ، وأَظلمْ، مثلَ إظلامي   وخلِّني في كوابيسي وأَحلامي
فرُبَّ نيّرةٍ، يا ليلُ، توقظني   إلى العفافِ، فأنسى عبءَ آثامي
أحسُ في جسدي، شوقاً يعذّبُني   ففي دمي سورة، كالخمر في جامي
لم يبقَ في حفنتي نارٌ لغير هوىً   يودي بجسمي كما أودى بأجسامِ
حُبّي النقيّ، كإيماني القديمِ مضى: وهمٌ هذيتُ به من بعض أَوهامي

أترى الغصنَ مذ يمرّ عليه
عاصف الرّيح، كيف تذوي زهورُهْ؟
هكذا القلبُ، حين تلبسه
الآثام يقسو، وقد يجفّ شعورُهْ

يا حسرة الليل، كم توحين من حُلُم   ميتٍ، لقلبٍ بغيٍّ أختِ آلامِ
أو قلب أرملة، جار الزمانُ على   عفافها، فأماتت قلبها الظامي
مهما يكن سبب آستسلامها، أَهَوىً   في النفس، أم كان إنقاذاً لأيتامِ
فلتقضِ شهوتها، حتى يهدّمها   ما كان في صدرها من عهرها الدامي

وتُنجزَ الشهوةُ الحمراء دورتها فيمّحي رحمٌ من بين أرحامِ

* *

أميرةَ الشهوةِ الحمراءِ، إنّ دمي من نسلِكِ الهادم المهدومِ، فاَحترمي
خُلقتِ تحترفينَ الموت، فاَقتربي مني، فإني اَحترفت الموت من قِدَمِ
حملتُ منجلَه في العهر منتقماً من النساء، فهاتيه لتنتقمي
هاتي من العهر أشكالاً ملوَّنةً نمهرْ بها بعضنا بعضاً، وننهدمِ
لقد تعبتُ من الأحلامِ، في جسد ملّ العفافَ بألوانٍ من الألَمِ

ولنُعاطِ الهوى، لعلّ عصيراً
من ثمار الشفاه والأكبادِ
أو لعلّ الآثامَ تشربُ منّا
ما تبقّى من طهرِ ماءِ العمادِ

إنّا اَتّحدنا ليومٍ واحدٍ، وغداً يأتي فيخلفني قومٌ بحبِهمِ
سيعشقونَكِ يوماً يغنمون به ما غادرتْ منكِ ساعاتي لليلهمِ
وسوف تنسين، يا أخت الدما، فهم كما نسيتِ، على رغمِ الدماء، فمي
عشرون قلباً، شربتِ الحُبَّ من دمها وما شبعتِ، ولم يُشبعْكِ شربُ دمي
إذن، فسوف تظل النفس جائعة حتى يجف دمٌ في غِلفِها النهمِ

* *

سترجعين... ولكنْ مثلَ آمالي جوفاءَ، مشلولةً في جسمِكِ البالي
سترجعين، مدمّاةً مشوّهةً أَدنى إلى الموت مني رغم أثقالي

سترجعين ، ولا أقصيكِ عن جسدي حتى تحلّ الليالي الحمر أوصالي
حتى يحلَّ وباءُ الخلد في كبدي ويعلقَ العارُ من بعدي بأذيالي

غيرَ أني ، ولي يراعٌ مدمّى ،
سوف ينقى ذكري وتنقى دمائي
ستقولُ الأجيال : كان شقياً
فليقدَّسْ في جملة الأشقياء

ويرفعُ الحُبُّ لي ، في كلّ زاوية من القلوب ، ضريحاً خالداً عالي
أما الشباب ، ففي أقصى سُلالته لن ينتسي كيف كانت في الهوى حالي
سينظر الغد في أمسي ، ويغفره لأن قلبي ، كنفسي ، غير محتالِ
وكلما ذَكَرَ اَسمي ، مرّ في فمه ذكرُ التي صقلت للموت أغلالي
ذكرُ التي اَختصرت عمري بشهوتها وخلّدت عهرَها الدامي لأجيالِ

* *

أجل ستذكركِ الأعقابُ والحقبُ ما دام في الأرضِ ، من صلب الزنى ، عقبُ
لا مثلما ذكر الإفرنج «لورهمُ» ولا كما ذكرت «عفراءها» العربُ
بل مثلما ذكَرت روما قبائحها في مقلتيْ «مسّلينا» وهي تضطربُ
هذا هو الليلُ ، فاَسقي السمّ هاتفة لعلّ في الناس قوماً بعدُ ما شربوا
وسرّحي يدك الصفراء ، فوق هوى يسيل في محجريه الجهد والتعبُ

ولتكن هذه الإشارة رمزاً
لاصفرارٍ على الملذات مرّا
لوّنها بالاصفرار الى أن

يختمَ الموتُ نزعَها المستمرّا

أَطفئْ ضياكَ ، فإن النورَ يُذكرني أمسي ، وتقلق روحي هذه الشهبُ
قد يوقظ النورُ أعياداً مقدّسةً تشعّ من خلل الماضي ، وتلتهبُ
أطفئهُ يا ليلُ ، واَغمرني بحالكةٍ من الظلام ِ ، فأنسى حين أحتجبُ
أَشقى بلذّتي الحمراءِ في جسدي وأمّحي ، لا هوى يبقى ولا وصبُ
خرّبتُ قلبي ، وأطعمتُ الوحوشَ دمي في كلّ مخلبِ وحشٍ ، منهما ، خرِبُ

١٩٢٩

شهوة الموت

نـاقـمٌ على الـسـمـاءْ حـاقـدٌ على الـبشـرْ
ساخـطٌ على القضاءْ ثـائـرٌ على الـقـدَرْ
غـيـرَ قـطـرة المساءْ لا أُحبّ في السحَرْ
صرتُ أمقتُ الصفاءْ صرتُ أعشقُ الكدَرْ
غـيـرَ مشـهـدِ الـدمـاءْ لا أحبّ في الصوَرْ
ناقمٌ على السماء والبشرْ !

* *

جـمّلي ليَ الجسدْ وآسكبي ليَ الرحيقْ
لا تـفـكّـري بـغـدْ قـد يجي ، ولا نفيقْ
مـا لـنـا وللأبَـدْ إن سرّه عـمـيـقْ
ألهوى إذا اتّـقـدْ كـان لـلبلى طـريـقْ
فـلـنَـمت يـداً بيـدْ ولـنُـغـيِّب البريقْ
بين شهوة الجسدْ والرحـــيقْ !

١٩٢٩

حديث في الكوخ

سمعتْني أقول شعراً شقّياً　　يستفزّ الآلامَ في سامِعيهِ
فتلاشت، وتمتمَت في سكون الـ　　ـليلِ: «الله! ما الذي يشقيهِ؟»
ثمّ أخفَت، في ضفة العين، دمعاً　　شاء سرّ الوقار أن تخفيه

* *

قلتُ: «في مقلتيكِ خمر العذارى　　فهي أكسيرُكِ الذي تحجبينَهْ
ما خمور الكؤوسِ، مهما تلظّتْ　　كخمور القلبِ الذي تعصرينَهْ
تسكبين الشعر الطّروب من العَيـ　　ـنِ، وفي النفسِ غيرُ ما تسكبينَهْ
إنّ فيها آياتِ حزنٍ أليمٍ　　ورموزاً من الليالي حزينَهْ!»

* *

وتمادى السمّارُ في خمرةِ الكأ　　سِ وكلٌّ منهم سها كأخيهِ
وعزيفُ الأوتارِ، يمزجُ بالخَمـ　　ـرِ عصيراً أرقّ من شاربيهِ
قلتُ: «في مهجتي فراغ رهيب　　فأعصري فيه فلذة تملأيهِ!»
فأمالت عَنّي عيوناً سكارى　　وأمالت إليّ قلباً شقيّا

وأذابت، من مقلتيها، رحيقاً جرعته الشجون في مقلتيّا
ثم قالت: «خبرتَ حُبّ البغايا فنظمتَ العذابَ شعراً بغيّا»
فتبيّنتُ كلّ ما أضمرَته حين مالت عنّي، ومالت إليّا

* *

وتراءى في رفرف الليل، مولو دٌ عليه غلالة من أبيهِ
فأطلّت من كوّة الكوخ، والليـ ـلُ يزفّ الضحى إلى ساهريهِ
قلت: «في ما تفكرين؟» فقالت: «في سكون الدجى وفي ما يليهِ!»

* *

واشرأبّت من الكوى الأعناقُ وأذابت بريقَها الأحداقُ
وآستفاقت، من نومهنّ، العذارى حائراتٍ، والعاشقون آستفاقوا
الخليّون أومأوا بيديهم وبطرف اللواحظ، العشاقُ
وآستفاق الجميع من نشوةِ الخمرةِ حتى الآمال والأشواقُ

* *

قلتُ: «في ما تفكرين؟» فقالت: «في يراعٍ سحرُ الهوى من ذويهِ
في يراعٍ علّمتَه الحُبَّ حتى صرتُ أهواه، صرتُ من عاشقيهِ!»
فذكرتُ الماضي، وقلتُ لقلبي: «إنها يا شقيّ، تهواك فيهِ»

* *

أيها الفجر، يا حبيب الشقيّيـ ـنِ، ويا مشعل الهوى والشبابِ
أيها الشاطئ المسرّ إلى المو جِ حديثَ العشاق والأحبابِ

أيها الكوخ، والعيون السكارى بخمورٍ لم تمتــزج بـعـذابِ
لا تجسّي قلبي، فلم يبقَ فيه من بناء الماضي، سوى أخشابِ

* *

وانصرفنـا، وقبل أن أتوارى عن جمال الشاطي، وعن ساكنيهِ
قـلتُ لـلـمـرأةِ التي آلمتني حين قالت «الله! ما يشقيهِ؟»:
«ليَ قـلب أفـرغْته، فاتركيهِ في الهوى فارغاً ولا تملأيه!»

١٩٢٩

الصلاة الحمراء

ربّاهُ ، عفْـوَكَ ، إني كافرٌ جانِ   جوّعتُ نفسي ، وأشبعتُ الهوى الفاني
تبعتُ في الناسِ ، أهواءً مُحرَّمةً   وقلتُ للناسِ ، قولاً عنه تنهاني
ولم أُفِقْ من جنونِ القلبِ في سُبُلي   إلا وقد محتِ الأهواءُ إيماني
ربّاهُ ، عفوَك ، إني كافرٌ جانِ !

* *

لكم دعَتْني إلى الفحشاءِ أميالُ   وأنــــذَرَتْني تجاريبٌ وأهـوالُ
إن التجاريبَ للألبابِ موعظةٌ   لكنها ، لِأُلي الأضلالِ ، أضلالُ
تلك الليالي المواضي ، لا يزال لها   بين الخرائب ، في عينيّ ، أطلالُ
وآحسرتاه ! وقلبي لا يزال له   في لـذّة الـعارِ أوطارٌ وآمالُ

* *

لما اَستـفـاقت عـيـوني   في ذلّتي وهـواني
عـزمتُ أن أتــعـرّى   مـن شهوتي ، فثناني
وقال لي : «الحكم حكمي   والأمر ، طوع بنـاني

لا تستطيع التغنّي في الحُبِّ عن سلطاني
والحُبُّ لا يتغذّى إن لم يكن شهواني»
فلم أجد لي مفيضاً يوماً من الإذعانِ
فصرتُ أغذوه عاراً والنفسُ في تَيَهانِ
وصار يُسكر روحي بنغمَتَيْ خَفَقانِ
بنغمةٍ من لهيبٍ ونغمةٍ من دخانِ
حتى ظننتُ نعيمي في ذلك البركانِ

رباهُ، عفوَك، إني كافرٌ جانِ!

* *

وطّأتَ لي كنفَ الدنيا، فقلتُ: قفي يا نفسُ في منهلِ اللذّاتِ، وارتشفي
ومال مذهب طبعي عن سجيّته حتى تقلّب في بُطل، وفي صلفِ
وغابَ عنيَ أني عشبةٌ نبتَتْ على جوانبِ إبريق من الخزفِ
على جوانبِ إبريقٍ، إذا نظرَت عين إلى عتقه، انحطّت على تلفِ

فخّارةٌ ذاتُ نتنٍ قديمة كالزمانِ
مرّت قرون عليها فحال لون الدّهانِ
ومهّد النتنُ فيها مساربَ الديدانِ
فخّارةٌ دنّسَتْها خواطر الإنسانِ
تخاصمت جانبيها مظالمُ الأديانِ
كأنما الدينُ فيها ضرب من الويلِ ثانِ
كم مرّة أوعدَتها ثوائر الغليانِ

وكـم تـفـجّـر فيهـا　　بـالأمسِ مـن بـركـانِ
تـبـقـى قـرونـاً طـوالاً　　وتـــمّـــحي في ثـوانِ
خـزّافـهـا ذو حـنـانٍ　　حـيـنـاً وذو سلطـانِ
ينهـى ويـأمر بـالصـا　　عـــقـــاتِ والـــنيرانِ
ديـدانُـهـا مسـكَرات　　بخمـرةِ الـتـيـجـانِ
والتاج لو هي تدري،　　مـعـنى مـن البهتـانِ

ربّاهُ، عفوَك، إني كافرٌ جانِ!

* *

فخّارةٌ، جُبلَت بالدمعِ والطينِ　　من عهد قابينَ، أو من قبلِ قابينِ
نيرونُ أضرمَ فيها جمرَ مقلتِهِ　　تلك البراكينُ من أجفانِ نيرونِ
تبادَرَتها، من الديدانِ، طائفة　　أبطال حرب من الغلب المجانينِ
ما كان إسكندرُ فيها سوى شبح　　يحجّب الشمس عن عَيْنَي ديوجينِ

مـا كـانَ جـنكيز إلّا　　شرارةٌ في الـكـيـانِ
تضــــرّمت وتـوارَت　　بين الـرّمـادِ الـفـاني
ربّ المغول، إله الـ　　ـنيرانِ والـعصـيـانِ
ثارت عليه، كما ثا　　ر، سنّــةُ الـــنيرانِ
والـنـارُ تمحقُ إلا الـ　　ـتـذكـار في الأذهـانِ
أَبقت لفارسَ ذكرى　　كسرى أنـوشروانِ
وقـوّضت مـا بـنـاهُ　　مـن شاهـقـاتِ المبـاني
لم تُـبـقِ إلا بـقـايـا　　خـورنـق الـــنـعـمانِ

تلك البقايا، عظات الـ ـزمانِ للإنسانِ
تلك البقايا رموزٌ لسخريات الأماني
أين الذي شيّدتهُ جلائلُ الرومانِ ؟
حُلم من المجد أبقى أسطورة في اللسانِ
شرعُ المقدّر : ألّا يبقى سوى الخسرانِ
أما الكمال، فحلمٌ في هجعةِ النقصانِ
يُرقى إليه رويداً على متونِ الزُمانِ
على الإرادةِ والتضـ ـحياتِ والعرفانِ
حتّى إذا حُكّ كان الـ ـكلامُ للطوفانِ
وكان للنارِ رأيٌ وللدمارِ يدانِ
أمّ الزلازلِ، طوّا فةٌ بكلٍّ مكانِ
آثارها باقيات وقفاً على الأجفانِ
والناسُ، وآحسرتاهُ! إثنانِ مختلفانِ :
أعمى له مقلتانِ في العقلِ مبصرتانِ
ومبصرٌ أظلمتهُ عينانِ لا تَريانِ

تُرى، مشيئتُك العليا تناديني بثورة النارِ في تلك البراكينِ؟
ربّاهُ، هل ينتهي حلمي ببارقةٍ من اللهيبِ، ويخبو الطينُ في الطينِ؟
وهل أرى زاحفاً في الليلِ ملتهباً بجمرة السخطِ في أيدي الشياطينِ؟
أدعوك، والظلمةُ الحمراءُ تحرقني، فلا تجيب، وتلوي لا تنجّيني
أعرضتُ عنكَ، غداة القلب ضلّلني كأن شهوة قلبي عنك تغنيني
وحين أُوقظتُ من سكر الهوى خجلاً بحثتُ عنكَ، وكادَ العار يخفيني

فلم تُملْ قلبك الرحمٰن عن ألمي وقلتَ: «تطلبني بين المساكين؟»

لكنني عدتُ بعد الـ ـتكفيرِ عن تَيَهاني

إلى ذنوبٍ جسامٍ كَثيرةِ الألوانِ

ملوّثات بدمعٍ مخضّبات بقانِ

وقلتُ للقلبَ: «أَطلق في الموبقات عناني

طيف الإله بعيد وعينه لا تراني»

وقيل يوم عصيبٌ ينقضّ قبل الأوانِ

تنفّذ النار فيه والحكم للديّانِ

فرحتُ أسألُ نفسي الـ ـدفاعَ عن كفراني

فلم أَجد مَن يحامي عنّي سوى بهتاني

ربّاهُ، عفوَك، إني كافرٌ جانِ!

١٩٢٨

الدينونة

حوِّل خيالك عنّي ولا تخيّم عليّا
فليس أهلكَ منّي ولا اللظى من يديّا
لم أغش في النفس مأثمْ ولم أنادمْ رجالَكْ
إبليسُ ليست جهنّمْ داري ، فحوِّل خيالكْ

* *

قيثارتي لم أُلطِّخْها بأقذارِ على طوافي بها في بؤرةِ العارِ
عذراء تتّهم العُرّى بكارتها في كل خمّارة أصغت لأوتاري
وكلّ قاذورة ، ترقى بعورتها الى لسانٍ ذريف الخبثِ سيّارِ
تنكّر الخفر الممسوخ في دمها بزخرف عاقر ، في منطق عارِ
أوتار قيثارها الموبوء ، فاجعة كأنها حيَّة لاذَت بقيثارِ
أفعى ، أُصيبت بحمّى المجد ، فانقلبت من كهفها مِزَقاً سكرى على الغارِ
إبليسُ ، خذ هذه العرّى ، فإن بها ما في جحيمك من زفت ومن نارِ
خذْها إليكَ وعقِّمْها ، فلا حبلَت أنثى من الأنس ، بالكبريتِ والقارِ

* *

كم شاعر خبثت فيه عرائسه فراح يملي بأنياب وأظفارِ
من المواخيرِ أوحَين الجمال له معرّف الشهوة السفلى بأزهارِ
وجئنه بأكاليل مفجّعة نَمَت سموماً على حافاتِ أوجارِ
تاج من الدَّرك الأدنى يطوف به على الخفافيش في أشلاء أطهارِ
تسير في رَكبه الأقزامُ : حاشيةٌ قامت لتأييده في ملكِه الهاري
تهتّكت سُخُرّياتُ الخلود به فصاح : تلك على الأجيال آثاري
لا يضمر الحُبّ إلا في محاجره فعينه للهوى ، والقلبُ للثارِ
إبليسُ ، خذه وعقّمه ، فلا نشأت من صلبه أسرة شوهاء في دارِ

* *

كم عاشقٍ راغ من عذراء طاهرة عُلّت من الملإ الأعلى بأنوارِ
باكورة الحُبّ ، أبقى في مراشفها ثديُ السماء رضاعَ الفاطرِ الباري
حتى إذا أدنأت فيه ، وفاجَرَها وقامَ يَطرحها عن جسمه الضاري
أَهوَت على يأسها ، واليأسُ ينخزها : إما الضريحُ ، وإما العار ، فٱختاري
وكم وليّ رعى شعباً ، فأهلكه ترغي على زهده أرياق عشّارِ
وحاكم ، سفلت فيه وداعته فأظهرت حملاً في قلبِ جزّارِ
إبليسُ ، خذهم جميعاً في براقِعِهم وٱرفع جناحَك عن أبكار أوتاري
خذهم إليك ، فلا عادت سلالتهم وعقّمِ النار ، يا إبليسُ ، بالنارِ

* *

حوّل خيالك عنّي ولا تخيّم عليّا
فليس أهلك منّي ولا اللظى من يديّا

لم أغش في النفس مأثمْ ولم أنـــادمْ رجـــالكْ
إبليسُ ، ليست جهنّمْ داري ، فحوّل خيالكْ

* *

وما سرى في مقاصير اللظى خبرُ حار اللهيبُ به ، واستسألَت سقرُ
إنّ الورى أطلقوا ريحاً إلى سقرٍ تقـود للنار قوماً دانه البشرُ
حتى أطلّت ، من الأشباحِ ، طائفة في هودجٍ يتنزَّى تحته الشررُ
بُلْهُ العيون ، ضخام ، كلما وغلوا في مسرب من دياميس اللظى ، صغروا
تجرُّهم بومة حمراء في يدها فأس على جانبيها صُوّر الدعرُ
فثـار ثـائرُ أهل النار كلّهم وجُيِّشَت زمرٌ في إثرها زمرُ
تدفّقت من سراديب الجحيم إلى إيوانِ إبليس حيث الجنّ قد سكروا
وكان في موكب الأشباح ذو بطر يـفـحّ في شفـتـيه حيّةٌ ذكرُ
عـليـه قـيـثـارة ثـكلى ، مخلّعة وصولجان ، من الأحلام ، منكسرُ
يلقي على غرفِ النيران أخيلة من ثوبه الأحمر القاني فتستعرُ
فما أصاخ الى الأنغام ، يعزفها رهط من الجنّ ، حتى مسّه خدرُ
وصاح : «ما هذه الرؤيا ، وأين أنا؟» فقال إبليسُ : «مهلاً هذه سقرُ
حملتَ قيثارة ، في الأرض ، كاذبة من الحقيقة لم ينبض بها وترُ
وريشة من جناح البومِ ، ما رَسَمت إلّا خـفـافيش بالديـاج تستترُ
فأنت لي ، وجحيمي لي ، أوزِّعه على الأُلى ، أنشدوا شعراً وما شعروا»

* *

وكان في موكب الأشباح ذو صلفٍ في كفه سلع، في عينه قذرُ
يجرّ ذيــلَ قـوانين مشـوهــة من الفضيلة لم يعلق بها أثرُ
فقال إبليس: «أَطرق، إن مَن سفلت يداه في الأرض، لا يعلو له بصرُ
فأنت لي، وجحيمي لي، أوزّعـه على الأُلى أقسموا للشعب وٱبتهروا»

* *

وكان في موكب الأشباح ذو خَطَلِ يرغي ويزبد لا يبقي ولا يذرُ
في مـقـلـتـيـه، براكين مرمّدة وفي الجبين، خيال الله يندحرُ
فقال إبليس: «أقصِر، لم تكن غَضِباً في منطق الرسل الآيات والسورُ
فأنت لي، وجحيمي لي، أوزّعه على الأُلى، ما جزوا إلا ليثّئروا.»

* *

وكانت الخمر ترغي في مقاصفها والجنّ تعزف، والنيرانُ تنفجرُ
إذا بصوت من الأرض التي صفحت يقول للنار: «أهل الأرض قد غفروا»

١٩٣٣

الطرح

رَحِمُ الأمّ ، لعنةٌ ، أنت منه في دمائي كانت ، وفي أعراقي؟

أم عقاب لما تسَّحقّ من حُـ ـبّيَ ، في لذّتي ، وفي أشواقي؟

حملَت أملك القنوط إلى وجـ ـهي وكنتَ الرجاءَ في أعماقي

جئتَ في سحنة المسوخ ، فلِمْ حطّـ ـمتَ حلماً ، نما على أَحداقي؟

ألأني بذلت حبّي ، ولم أُطـ ـعمكَ منه ، سوى الفتات الباقي؟

عشتَ في مقلتيّ. ساعة هول حجَرَت غصتي على إشفاقي

وَأَرَتْني ، كأنّني في جُثام ، عالماً فيكَ موحش الآفاقِ

فرأيت المسخ المخيف على أكـ ـملِ حُسنٍ ، والقزمُ في العملاقِ

ولسانَ الثعبانِ في قبلةِ الصِّـ ـديقِ والسمّ في الشرابِ الواقي

وسمعتُ الفحيحَ في النغمِ العذ بِ وصوتَ العدوّ في الميثاقِ

كم نفوسٍ رأيتها ، تلفظ الأثـ ـمَ ، فيرقى منها إلى الأرياقِ

لذّة الإثمِ ، كيف تمقتها النفـ ـسُ ويحلو عصيرها في المذاقِ؟

كم فتى يسعر الجحيم بعينيـ ـهِ وفي القلبِ ، للسماء ، مراقِ

ولقد ينصر الجحيم ، فيردي بعضه ما ببعضه من خلاقِ

وسمعت الحياة تهتف في نَفـ ـسي فيصدي الهتاف في أبواقي :
«أهلك المائتون في رَحَمي الحُـ ـبَّ وسمّوا الزلال في ترياقي
فطرحتُ الأقزامَ في أسواقي عبراً لـلـدمـار في الـعشاقِ
ورأيتُ الفردوس لفّت أفاعيـ ـهِ غصوني، وكمّشت أوراقي
وتراءت ليَ الطبيعة ، دنيا من كمال ، نسيقة الأذواقِ
فـرأيتُ الجماد شبـعـان حُبّاً كـلٌّ صـدرٍ عليه ثديٌ ساقِ
إنَّ في الحُبِّ، صورةَ الله، لكنْ أين في الخَلقِ، صورةُ الخلّاقِ؟»

١٩٣٨

الألحان

الطبعة الأولى

١٩٤١



الحصادون

الراعي :

حقولُنا سهولُنا ، كلُّها طربْ ، كلُّها غِنَى
الشمسُ فيها ذهبْ ، والسواقي مُنى .

الحصّادون :

الى الحصادْ
جَنَى الجهادْ
قلبُ البلادْ
يحيا بنا

هيّا احصدوا ، وأَنشِدوا : الحُبُّ قلبٌ ويدُ
والعمر زرعٌ وجنى

حقولُنا سهولُنا ، كلُّها طربْ ، كلُّها غِنَى
الشمسُ فيها ذهبْ ، والسواقي مُنى .

الراعي :

جبالنا نحبُّها
هذي العيونُ ، قلبُهَا
هذي الجِنانُ ، خصبُهَا
حُلِيُّها : التفاحْ والعنبْ
ألحانُهَا : الرياحْ في القَصَبْ
وكلُّها لنا ، وللبنين بَعْدَنا

الحصَّادون :

صغيرةٌ بين الدُّوَلْ
كبيرةٌ مثلُ الأملْ
كانت لنا ولم تَزَلْ
بلادُنا : أجدادُنَا أولادُنا !

زُلالُهَا تِرْياقْ ، تُرابُهَا أَخلاقْ ، وشَمسُهَا ذهبْ
حُلِيُّها : التفاحْ والعنبْ
أَلحانُهَا : الرياحْ في القصبْ
وكلُّها لنا ، وللبنين بعدنا
هيّا آحصدوا ، وأَنشِدوا : أَلْحُبُّ قلبٌ ويدُ
والعمرُ زرعٌ وجنى

ألحان الشتاء

أَمــطــري وٱعصُفي
وٱرقُصي وٱعـــزِفي
وٱخـلُقي ٱلْـجَـمَـالْ
وٱنسِـــجي الخيـــالْ

الـقـمـحُ في أعدالِنا
والـزيتُ في قِلالِـنا
والـتـينُ في السِلالْ
وكـلُّها حلالْ، من
جـــبـــالـــنـــا

* *

عادتِ المُزْنُ إلى الأرض، وباحْ
بـالأعـاصيـرِ وبـالثلجِ، الجبلْ

في الثرى جهدٌ، وفي الجوِّ كفاحْ
وعلى الـدّنـيـا ، أَمـاني وأمـلْ

فـالشـجـرْ نشـوانُ ، مـا
نَفضتْ عنه الصبَا إلّا عَسَلْ
والمطـــــرْ من السّما
على الأرض ، قُـبــلْ

* *

أَمـطـري ، عطّري
بـالـدَّمِ الأخضـرِ
بُـرْعُـمَ الـزهَـرْ
وأملائي الـثَـمـرْ

خمـورُنا في الخابيهْ
جنى كرومِ الرابيهْ
وعـنـدنـا الـكِـبَـرْ
والْحُبُّ والخفَرْ والْعافيهْ

* *

فجّر البرقُ من الليلِ جراحْ
سَقَتِ الـنبعَ زُلالاً ، فجرى

للربيعِ الطفلِ، عطرٌ في الرياحْ
فارقُبي فيها الجنينَ الأخضرا
واْصطلي، في النار دفءٌ وهَنا
واللهُ يـرعى طـفلَـنَـا
أنتِ لي، والحُبُّ والدنيا لنا

* *

خمورُنا في الخابيهْ
جَنَى كرومِ الرابيهْ
وعـنـدنـا الـكِـبَـرْ
والحُبُّ والخفرْ والعافيهْ

والقمحُ في أعدالنا
والزيتُ في قِلالنا
والتينُ في السِلالْ
وكلُّها حلالْ، من
جـبـالـنـا

ألحان الربيع

نمْ يا حبيبي نومَ الهنا
نـامتْ عـيـونُ الـزهَـرْ
ونامَ إلا المُنى والقمرْ
حتى الندى نامَ والنسَمْ
نَـمْ يـا حبيبـيَ ، نَمْ

النهـــرُ في الـوادي
والـغصـنُ والشـحـرورْ
والـبـلـبـلُ الشـادي
وكلُّ حيٍّ نامْ ، إلا العطورْ
والهيـامْ في فـؤادي

* *

قُـم يـا حـبيبي ، لاحَ الضُحى

وباحْ: بالفلِّ والأَقاحْ
والوردُ في كُمِّه صَحَا، معَ الصباحْ
وللصبَا أريجْ، من الرُبى والخليجْ
هبّ علينا نَبَا كأنه عنَّا
أَذاعَه النّسرينْ والياسَمينْ والحنّا

قُمْ يا حبيبي، يدُ الظلامْ، ودَّعت مَهْدَك
وخَمرةُ الأحلامْ، ورَّدت خدَّكْ

* *

عُدْ يا حبيبي، عادَ القطيعْ وغامتِ الدورُ والمغاني
وآنقلْ لقلبي من الربيع، ما حَدَّث العِطرُ والأغاني
لأرجوانِ النهارْ في وجنتيكْ
ألوانْ
ومن حنانِ الهزارْ في مسمعيكْ
ألحانْ
والزهرُ في بَهْجَةِ الشجرْ يلوحُ تكوينُه عليكْ
رأيتُه يانعَ الثَّمَرْ في مُقلتيكْ

ألحان الصيف

أَقبلَ الصيفُ وأَلقى في البِطاحْ، رحلَهُ
قوِّنا، يا ربُّ، واجعلنا صِحَاحْ، مِثلَهُ
واجعلِ القلبَ نقيّاً كنسيمهْ
واسقنا الإيمانَ حَيّاً من كرومهْ
وليَكُنْ لنا، زهرُه قُبَلْ
أرضُه جنى، شَمْسُه أَملْ

* *

للربى ظِلٌ على الوادي بَهيٌ
وعلى السّهلِ عطورٌ وضياءْ
ومن الجدْولِ ترجيعٌ شهيّ
ترفعُ الإنسانَ أو تُدني السماءْ

والصّخورْ، منتهى ماضٍ عظيمٍ رَمّدا
صُوَرٌ أَبقت وجوهَ المُرَدا

والـنسـورْ ، تسأل الأجواءْ :
أينَ كان الأقوياءْ؟

* *

والمراعـي في الـنّهارْ
أيٌّ بحرٍ أخضـــــرِ

واذا ما أقبل الليلُ الطَّري
فعلى الأُفْقِ ، من الزّهر ، غُبارْ
والضُـحى يمشي الـهُـوينـا
في الـــرُبى ، والصـــبَـــا
تحمـــلُ الـــعـطـرَ إلـيـنـا
مـن خـدود الزَهرِ، وعصير الثـمَرِ

ألحان القرية

أَرجعْ لنا ما كانْ   يا دهرُ في لبنانْ
كانَتْ لنا   أَحلامُنا والمُنى
وكان صفوُ الزمانْ

كــان الضـمير الهني
من كـنـزِنـا المزْمِـنِ
وراحـــةُ الـوِجْـــدانْ
وكان... كان الأمانْ
والعيشُ حلوَ الجَنى
يا دهرُ أَرجـعْ لنا
ما كانْ   في لبنانْ

* *

أَرجعْ إلى الأحداقْ
أَطـيـافَـهـا المبْعَدَهْ

ولليالي الوجاقْ   والموقِدَهْ

أَرجع إليـنا الصاجْ
والجرنَ والمهــبــاجْ
وخِصـبَنا في الرُبى
ونـورَنـا في السراجْ
وٱسترجِـعِ الـكَهْرَبا
وكـاذبـاتِ الـغِنى
يا دهرُ أَرجع لنا
ما كانْ   في لبنانْ

* *

ذاكَ النبيذُ العتيقْ   في الخابيهْ
وذلك الإبريقْ   يَهُشُّ في الزاويهْ
والنرجسُ المستفيقْ   في الآنيهْ
والريح لصٌّ مرَقْ   على رؤوسِ الحَبَقْ

كـأنـه مـا سرَقْ
كـأنـه مـا جنـى
يا دهرُ أَرجع لنا
ما كانْ   في لبنانْ

* *

أَرجعْ إلى الوادي
فلاَّحَـهُ الـغـادي
وطـيـرَه الشـادي
والـرفشَ والمِعْوَلا
والموسمَ الـمُـقبِلا
إلى القلوبِ البأسْ
إلى العيونِ الجمالْ
وعـزّةً لـلـنـفسْ
وراحـةً لـلـبـالْ

أَرجعْ لنا وجْهَنا
يا دهرُ أَرجعْ لنا

ما كانْ في لبنانْ

الحان الطيور

الطيور :

نحنُ ألحانُ الـجِـنـانِ
نملأُ الـدنـيـا أغـاني
في الـفـراديسِ وفِـيـنـا
أعـيـنُ الـحُـبِّ رَوانِ
ريشُنا من عَسْجَدٍ، من
أُرجوانٍ ، مـن جُمانِ
صـبـغـةُ الحسنِ علينا
وعلى هـذي المغـاني

الشحرور :

أنا الشحرورْ أُرْقِصُ الوادي حُبورْ
أَملأُ الغصنَ حياةً وشعورْ
في حناني دسَمُ الخمرِ وشذا العطرِ
والأماني

كلُّها للحُبِّ تجري من لساني

الحسُّون :

أَنا الحسُّون أملأَ الحقلَ جنونْ
في تلاحيني وفي ريشي فتونْ
يستفيقُ الصبحُ سكرانَ على صوتي الحنونْ
ودُمى الزهرِ على حسني عيونْ

البلبل :

أنا البلبلْ أَرمُقُ الوحيَ فيَهْمُلْ
في لساني خضرةُ الغارِ وأعرافُ القَرَنْفُلْ
شاعرٌ غنيتْ كلَّ حسن بَيتْ
من مبيتي في الخميلهْ
أُنشدُ الدنيا فتغدو مثلَ ألحاني جميلهْ

الحجل :

أنا الحجلْ ريشي ألوانُ الجبلْ
على ثُديّ الأرض أُلقيه قُبَلْ
حَلْقِيَ الصَدّاحْ أُرْغُنُ الوادي
مؤنِسُ الفلَّاحْ والغادي !!

المعصرة

يا عِنَبْ شَكْلَ الدُّمى لَوْنَ السَّما
والذهبْ
اليومَ فيك النَّدى حَلوَى ، وخمرُ غَدَا
عليكَ رُؤيا الحَبَبْ
يا عِنَبْ

* *

إعصروا العِنَبْ وآملأوا القِرَبْ
شمسُنا نَدَى خمرُنا أَدَبْ !
فيكَ انعصَرْ روحُ النجومْ والقمرْ
وفي الكرومْ مرَّ النسيمْ فاختمرْ
وفيكَ ذابَ الصباحْ مُعَطَّرَ الأقْداحْ
ودبَّ فيك اللَّهَبْ
يا عِنَبْ

* *

إعصِروا العِنبْ وٱملأوا القِرَبْ
شمسُنا نَدى خمرُنا أَدَبْ!
النحلُ لاهِ سكرانُ ساهِ
ومن فمِكْ يمتصُّ حلوى دَمِكْ
أعطيتَ أنقى عصيرْ وَهَبْتَ أَشهى عبيرْ
وللندى ما تَهَبْ
يا عِنَبْ

* *

إعصِروا العِنبْ وٱملأوا القِرَبْ
شمسُنا نَدى خمرُنا أَدَبْ!
فجْرُ الجبلْ ندًّى عليكْ أحلى قُبَلْ
وما ٱتصل بوجنَتَيكْ حتى ٱشْتَعَلْ
هيَّا ٱعصِروه وعتِّقوه
يكنْ نبيلاً إذا ٱنتَسَبْ
وليس أصدَقْ من المُعَتَّقْ
يا عِنَبْ

الفلاح

زَارِعَ الحقلِ في البُكورْ
عيشُكَ الدَّهرُ أخضرُ
أنتَ في هيكلِ الزهورْ
فيلسوفٌ مُفَكِّرُ

* *

سَيِّدَ المنجلِ الحقيرْ
أَنتَ للنَّاسِ سَيِّدُ
من ذِراعَيْكَ للفقيرْ
حَبَّةُ القمحِ تولَدُ

* *

ماؤك الطاهر الزّلالْ
من سواقيكَ يَقْطُرُ
كلّ ما تقتني حَلالْ

بِاسْمِكَ الخيرُ يُذكَرُ

* *

أنتَ وجهٌ مخلَّدُ
للجدودِ المخلَّدينْ
مثلَهم سوف تُلْحَدُ
طاهرَ العينِ والجبينْ

* *

يا بعيداً عن البشرْ
أنتَ لا تعرِفُ الشرورْ
تعرفُ الماءَ والحجرْ
والأعاصيرَ والزهورْ

نهر الصليب

هُوَذا الغابُ، والمجاري الجميلهْ
والصخورُ الأطوادُ ، والأدواحُ
هوذا الكوخُ في ظِلالِ الخميلهْ
يتلاقى فيه الشذا والرياحُ
هوذا المرجُ، والمواشي كما كا
نت، وهذا غُدُوُّها والرَّواحُ

* *

هوذا الدلبُ ، والغصونُ الخِفافُ
حابكاتٌ خيامَها للضيوفِ
هوذا الظلُّ ، ظلُّها المِضيافُ
كرداءٍ مُلْقى بشكلٍ لطيفِ
بين طيَّاتِهِ وعن جانِبَيْهِ
يهربُ الماءُ بارتعاشٍ خفيفِ

* *

هوذا النحلُ خارجاً من قفيرِهْ

يَرْتَدي الشمسَ حُلةً من بريقِ

سكب الغابُ في أغاني طيورِهْ

نغمةً من طنينِهِ الموسيقي

هي هذي مشاهدُ الأمس، لكنْ

أين زهوي، وأين قلبي الحقيقي؟

* *

زرتُ نهرَ الصليبِ أمسِ لأسمعْ

كيفَ ينسابُ ماؤه الكوثريُّ

فرآني صفصافُه، فتقنّعْ

بضبابٍ كأن وجهي نعيُّ

قلتُ للقلبِ: يا شقيُّ، فرجَّعْ

شاطئُ النهرِ هاتفاً: يا شقيُّ!

المساء في الجبال

عرائسُ الدلبِ على الشاطئِ
يُذَوَّبُ النومُ بأحداقِها
هادئةٌ كالنَهَرِ الهادئِ
تحلمُ في خُضرَةِ أوراقِها

* *

ودوحةُ الرابيةِ الآمنهْ
صامتةٌ، ماذا تُرى تَكْتُمُ؟
ساكنةٌ، في الساعةِ الساكنهْ
كشيخةٍ في أَمسِها تحلمُ

* *

لا حسَّ للشحرورِ بينَ الورَقْ
والبلبلُ الثرثارُ لا يُنْشِدُ
والريحُ ملَّت في الحقولِ الأَرَقْ

فَـهْيَ على أعشابِها تَرْقُدُ

* *

أَسمَعُ في الوادي رنينَ الجرَسْ
يُذيبُ روحَ الله في المُتْـعَبينْ
فتنحني نفسي ويُصغي النَفَسْ
ويَطْـهُرُ الحبُّ وينْقى الحنينْ

عرس في القرية

آوْهَا...
الـحُسْنُ لـوّحْ في خـدٍّ الحبيبْ أسرارْ
آوْهَا...
والحبُّ سلّحْ دمَ الغصنِ الرطيبْ بالنارْ
آوْهَا...
زينُ الشبابِ المِلاحْ فأَملأْ لـنـا الأقداحْ
آوْهَا...
وأَنشرْ عـليه التّهاني والـزبيبْ يـا جـارْ
لي لي لي لي لي...

زفة العروس

في روحِك الـعـذْبِ طراوه
أنـقـى مـنَ الصُّبحِ شهيَّه

وفي معانيكِ حلاوه
كضمةِ الفُلِّ نَديَّه

* *

حليلُكِ الحبُّ الصافي
سيفُ الأُباةِ الأَسْلافِ
وأَنتِ، دُرُّ الأصدافِ
تفتّحت عنكِ طريّه

* *

لونُ السماءِ كإكليلِكْ
كالحلمِ زُرْقَة منديلِكْ
حلاكِ من قَلْبِ حليلِكْ
فأنتِ كالحُبِّ غَنيَّهْ

* *

وادينا، فاْغنمْ يا زَيْنْ
من وادينا كُحْلَ العَينْ
قانعْ، تُغْنيه غَيْمَهْ
واسعْ، تحميه خَيْمَهْ
والزارعْ، يأبى ضَيْمَهْ
وادينا، فاْغنمْ يا زَيْنْ!

في جوّ الوادي مَـرْهَـمْ
والحورُ الـعـالي سُلَّـمْ
فـٱصعدْ وٱقطفْهُ وٱغنمْ
من وادينا كحلَ العَينْ!

* *

آوْهَا...
من ثوبِك الياسمينْ من جيدِكْ المرمَرْ
آوْهَا...
أنفاسُكِ الناردينْ والمسكُ والعنبرْ
آوْهَا...
هبَّت على العاشقينْ في روضةِ الوادي
آوْهَا...
وعطّرت حُلمَهم في مهدِها الأخضَرْ
لي لي لي لي...

عيد في القرية

حلقة الأطفال :

نحنُ الأطفالْ عصبُ الأجيالْ ودِمـاهُـنَّـهْ
نَقلتْ عنّـا نَسَـمُ الآمـالْ عِطرَ الجنّهْ

نهرُ الـفـردوسِ جرى فـينـا
نسقي الأعمارَ ويسـقـيـنـا
ونـرشُّ الأرضَ تلاحـيـنـا

بائع الحلوى :

حَلوى المعلّلْ سكَّرْ مُشَكَّلْ
أحمرْ أخضرْ أشقرْ

غزلانْ رعيانْ ملوكُ الجانْ خيلُ العربانْ
عبلى وعنترْ حَلوى يا سُكَّرْ

بائع اللعب :

أنـا بـائعُ اللُّعَبْ عندي العجيبُ العجَبْ
بـابورْ مُسلَّح شختورْ مُصَفَّحْ
عندي مدافعْ عندي دوارعْ وطيّاراتْ
عندي قذائفْ ودبّاباتْ
عندي جيادْ عندي قُوادّ عندي جُنودْ
شُغْلُ البلادْ

حلقة الأطفال :

نحن الأطفالْ عصبُ الأجيالْ ودِمـاهُـنَّـهْ
نَـقـلَتْ عـنّـا نَسَمُ الآمالْ عِطرَ الجنّهْ

صوت العيد :

وأنـتـمُ الصـغـارْ من السّما أزهـارْ
مـا زالَ لـلـمَلاكْ في روحِكم أسلاكْ
أنتم وجوهُ السلامْ للطهر أنتم صُوَرْ
نُعمى على الأيامْ وفي قلوبِ البَشَرْ

صلاة المغيب

أُسجُدي للهِ يا نَفْسي فقد وافى المغيبْ !

* *

هُوذا الفَلاَّحُ قد عادَ من الحقلِ الجميلْ
في يديهِ المنْجلُ الحاصد والرَّفشُ الطويلْ
وعلى أكتافهِ حِمْلٌ من القمحِ ثَقيلْ
فهو تَعْبانُ وفي عينيه آثارُ اللهيبْ
أُسجدي لله يا نَفسي فقد وافى المغيبْ !

* *

أُسجدي لله واَسليْ فترةً ذكرى العذابْ
قبلما تزحف في الوديان أشباحُ الضَبابْ
واَستعيدي ذكرياتٍ لأُوَيْقاتٍ عِذابْ
لم يكن ماضيكِ كالحاضرِ مُرتاباً كئيبْ

أُسجدي لله يا نَفسي فقد وافى المغيبْ!

* *

إِسمعي الأجراسَ في قُبّـةِ دَيرِ الراهباتْ
يحملُ الوادي صَداها للنفوسِ الزاهِداتْ
فيه أصواتُ حنانٍ وبقايا زَفَراتْ
صعَّدتْها راهباتُ الدير قُدَّامَ الصليبْ
أُسجُدي لله يا نَفسي فقد وافى المغيبْ!

يا بلادي

يا بلادي لكِ قلبي لكِ آمـالي وحُـبّي
وجهادي
يا بلادي !

* *

أنتِ هـذا الـعطرُ يأتي
من فمِ الوادي مع الصبحِ الطري
أنتِ كـلُّ الـحُسـنِ ، أنتِ
نـظرةُ الله إلى القلبِ البَري
وعيونُ الكوثرِ
وسريرُ الأعصرِ
وجلالُ الخُلدِ بادِ
يا بلادي !

* *

يـنشـرُ المجدُ عـليكِ رايـةً مـن مَـفـرِقَيْكِ

ويُنادي : يا بلادي !

عـــبَقُ الإلهامِ فـــيكِ

ماليءٌ أرضَكِ أعرافَ السماءْ

يـــتـــمشّى في بـــنـــيكِ

فـهُـمُ أمسِ مـلوكٌ شُعـراءْ

ورعاةٌ أنبياءْ

وأُباةٌ حُلَفَاءْ

وهمُ اليومَ مَعَادي

يا بلادي !

* *

قالتِ الدنيا : جَبيني لم يكن لو لم تكوني

أنتِ كـالـفـجـرِ فـتـيَّـهْ

أنتِ كـالشَّـمْسِ غـنـيَّـهْ

لم يَهُنْ في راحتَيْكِ الذَّهَبُ

يـأخـذُ الشِـعـرُ رَويّـه

منك والحكمةَ ، فيكِ الأَدَبُ

طهّري اليومَ دمي

وغداً كوني فمي

يَستْرِحْ فيكِ رمَادي

يا بلادي !



نِدَاءُ القَلْب

الطبعة الأولى

١٩٤٤



الإناء

عصرتُ فؤادي في إناءٍ من الهوى　　وأَدنيتُهُ من مِرْشَفِ الفُقراءِ
فقالوا : «خمورٌ ما تُبرِّدُ غُلّةً !»　　فتمتمتُ : «واهاً أكبدَ الشُعراءِ !
أَيُنكرُ حتى البؤسُ ، ما فيكِ من غنىً　　وأيُّ غذاءٍ ، أنتِ ، للبؤساءِ ؟»

* *

وذوّبتُ قلبي في إناءٍ من الهوى　　وأَدنيتُه من مِرْشَفِ الرؤساءِ
وقلتُ لهم : «هذا هو العدلُ ، فاشربوا　　لعلّكم تُصْغونَ للضُعفاءِ !»
فمالوا جميعاً عن إنائي وغمغموا :　　«إناؤُكَ محظورٌ على الزُعماءِ !»

* *

وذوّبتُ قلبي في إناء من الهوى　　وأدنيتُهُ من مِرْشَفِ السُّجَناء
وقلتُ لهم : «هذا عزاءُ قلوبكم ،　　فللأَبرياء التاعسينَ دمائي»
فقالوا : «دماءٌ ما تَحلُّ قيودَنا　　فهاتِ قوانيناً لغيرِ قضاء .»

* *

وذوّبتُ قلبي في إناءٍ من الهوى وأَدنيتُـهُ من مِرْشَفِ الحُكماءِ
وقلتُ لهم : «هذا هو النورُ، فآشربوا فآراؤكـم في حاجةٍ لضِياءِ.»
فقالوا ، وقد هزّوا الرؤوسَ شماتةً : «ضياؤك هذا خدعةُ الجُهلاءِ.»

* *

وذوّبتُ قلبي في إناءٍ من الهوى وأَدنيتُه من مِرْشَفِ الأُمراءِ
وقلتُ لهم : «هذا هو النُّبلُ، فآشربوا وطوفوا بأقداحي على النُبلاءِ.»
فقالوا : «أتحقيرٌ لطغراء جَدِّنا وما تنسلُ الأَصْلابُ من شرفاءِ؟»

* *

وذوّبتُ قلبي في إناءٍ من الهوى وأَدنيتُـهُ من مِرْشَفِ الشعراءِ
وقلتُ لهم : «هذا هو الحبُّ، فآشربوا فـأزيـاؤكـم مرهونـةٌ لفـنـاءِ
إذا الحُبُّ لم يضرم لهيبَ قلوبِكم بَشِعتمْ، ولو جِئتُم بألفِ رِداءِ.»

* *

وما زلتُ في الدنيا أَطوفُ بخمرتي وحـوليَ شعبٌ هـازِئٌ بوفائي
إلى أَن دهاني اليأسُ ، فآخترتُ عزلةً أُفتشُ فيها عن حُطامِ رجائي
وذوّبتُ خمري في إناء من الهوى لأشربها ممزوجـةً بـبـكـائي
فشاهدتُ قلبي في إنائيَ ضاحكاً بـه دعةٌ عذراءُ ، في خيلاءِ
فـأَدنيته من مِرْشَفِي وشربته ، وما زال ماءُ الحُبِّ ملءَ إنائي !

عودة الحُب

يا ليلُ ، يا ليلُ ، ما هَلَكْ   مَن نام في الحُبِّ أَوَّلَكْ
قلبي على جَمرةِ الهوى   عيني على فَحمةِ الفَلَكْ
يا مَجهلي ما أَطْوَلكْ
ألهمُّ لي والسهدُ لكْ

* *

أمن جحيمٍ إلى جحيمْ   أَم من نعيمٍ إلى نعيمْ؟
يا حُبُّ قُلْ لي مَنْ أَرسَلَكْ   أَساحِرٌ أَنتَ أَم مَلَكْ؟

* *

أطفأتُ ناري بمقلتيكْ   وأُفرِغَتْ رحمتي عليكْ
فمن أعادَ اللهيبَ لي   ومن أَعادَ الضيا إليكْ؟

أَخليتُ قلبي مذ ودَّعكْ
بحقِّ حُبِّيَ مَن أَرجعكْ

* *

ولِـمْ تعودْ ؟ ومن غصوني لم يبقَ عودْ
وفي عيوني ، لم يبقَ دمعٌ لِيُطمِعَكْ

أعذب الشِعر

أَيا قُبلةً مرَّت على ضَفَّتَي فمي ... كطيفِ حبيبٍ مرَّ في الحُلمِ وٱنطلَقْ
فأجرَتْ به نهراً من الحُبِّ والجوى ... تدفَّق ناراً في عروقي إلى الرمَقْ
مَلكتِ شعوري إذ مَلأتِ جوارحي ... لكِ الله ، إني في ذهولٍ وفي غَرَقْ
أُقضِّي نهاري في ٱنقباضٍ وريبةٍ ... ويشتدُّ بي وجدي إذا أَقبلَ الغَسَقْ
إذا قدمتْ ، خَفَّ اللهيبُ بمهجتي ... وإن غادرتني ، عاودتْ مهجتي الحُرَقْ

* *

أَقولُ لقلبي : إنها الصدقُ في الهوى ... وفي قلبها حبٌّ لغيركَ ما خَفَقْ
فآمِنْ بها ، آمنْ بما في عيونها ... أَلم تَرَها أَرغى بها الماءُ وٱحترَقْ
ويا بصري ، حِدْ مرَّةً عن طريقِها ... كأنك ممدودٌ بخيطٍ مِن القَلَقْ
ويا شُعراءَ الأرضِ ما أَصدَقَ النّدى ... إذا ٱبتسمَتْ ليلى ،وما أَكذبَ الوَرَقْ !
وإِن نظرتْ ، ما أَبلغَ الشعرَ صامتاً ... وإن نطقتْ ،ما أَعذبَ الشعرَ إنْ نَطَقْ

* *

مررتُ بألوانِ الكلامِ ووهجِهِ ... فما جازَ عيني ثم مات على الحَدَقْ
كغيمٍ خفيفٍ يَمسح النورُ وجهَهُ ... لأُولى رياحِ الليلِ ينحلُّ في الشفَقْ
فيا أذنُ ، لا تخدعكِ في القولِ بهجةٌ ... ويا قلبُ علِّمْ : أَعذبُ الشعرِ ما صَدَقْ

الشاعران

الشاعرانِ — تبارَكَ الغَزْلانِ ! — طـرْفي وطـرْفُكِ حيـنَ يلتقيانِ
عيناي في عينيكِ : أشعرُ ما يرى قلبي ، وأنقى ما يُذيبُ حناني
يا خيرَ مَن حنَّتْ إليها مهجةٌ وأَحبَّ مَن غَزلَتْ لها عينانِ
اللهَ من قُبَلٍ طَرَفْتُ بها دمي قوتاً ، ولم تَدنَسْ بها الشّفتانِ

* *

أرسلتُ فيكِ الشعر ، عفوَ سليقتي والـفـنُّ أَخلصُه من الوجدانِ
لم أغتصبْ حِبَرَ الكلام ِ ، وإنما عيـنـاي من عينيكِ تغترفانِ
أَتلـومني حِطَمُ النساءِ؟ فإنني خَلَلَ الملام ِ ، نشقتُ عرفَ زَواني
ورأيتُ أَشواقاً تودُّ لو أنَّها ريحٌ يمرّ عـبـيـرُهـا ببيـاني

لولاكِ

أيحقُّ لي في غيرِها الغزلُ ... وعلى فمي من قلبها ، قُبَلُ
وكأنني في عينِها لَهَبٌ ... بفؤادِها الولهانِ ، متَّصِلُ
يبدو رماداً حين تلحظنا ... عينٌ ، وحينَ تغيبُ يشتَعلُ
يا خيرَ مَن حنَّتْ لها مُهَجٌ ... وأحبَّ مَن غَزَلَتْ لها مُقَلُ
أَفرغْتِ عِطرَكِ في دمي ، فعلى ... شِعري ، عبيرٌ منكِ منهملُ
لولاكِ جفَّ الشِّعرُ في كَبِدي ... وحييتُ لا حبٌّ ولا أملُ !

الناسكة

حَبيبي ، على هذه الرّابيه أُحسُّ خيالكَ يرقى بيَه
فأغلقُ — إلا على ما تُحِبُّ روحُك — قلبي وأهدابيَه

* *

أَتيتُ أُحبّكَ في ما تُحبُّ ويُضني على وحيكَ العافيَه
فما دفّق الشعرَ من أَصغريك تجمَّع في هذه الناحيَه
أراه على المُنْحَنَى والخليج وفي هذه الغابة الجاريَه
وفي ما يقوت عروقَ الدوالي ، وما يُضمرُ الكرمُ للخابيَه
أَراهُ على أَملِ الزارعين ، في موسمِ الحقلِ والماشيَه
وفي كِبَرِ الدّلبِ والسنديانِ ، يحنو على دعةِ الساقيَه
أَتيتُ أُحبكَ في ما تُحبُّ وأوصِدُ دون الورى بابيَه
فما عالمي غيرُ مَعنى الجمالِ أَهواكَ فيهِ وتهوانيَه
بروحكَ مغمورةٌ يقظتي ونشوى بسحرِك أَحلاميَه
وحلمي بحبّكَ لا ينتهي ، وهل تنتهي الغفلةُ الواعيَه ؟

مصادرُ وحيكَ معقودةٌ   بقلبي رؤاها وأَجفانيَه
ففي كلّ مطوى من الطير راوٍ   وفي كلّ منعطفٍ ، راوِيَه
من الأرضِ أَنشقُ أَعرافَ شِعرِك   ريّانةً ، كالنّدى صافيَه
أُحسُّ لها في صميمي غليلاً   يخبُّ على وَهْجِ أَعراقيَه
وأسمعُ صوتاً ، كهمسٍ عميق ،   فأصغي لتسمعَ أَعماقيَه
وأُبصرُ ما لا تراهُ العيونُ ،   فأطويه كالله في ذاتيَه

* *

حبيبي ! على هذه الرابيه   أُقرّبُ للحُبِّ إيمانيَه
إذا هجرَ الحبُّ دنيا القلوب   فما تنفعُ الحِطَمُ الباقيَه؟

الشاعر

خَلَقتُكِ صورةً مما هَوِيتُ ... فخمرٌ أَنتِ من وحيي وقوتُ
وتنزِعُكِ المزاعمُ من حقوقي ... كأني ما عشقتُ وما شقيتُ
لغيري تدّعي الدّنيا سراجاً ... لهُ منه الفتيلُ، ولي الزيوتُ
وكم نكرَ الزمانُ عليَّ حقّاً ... وكم فنيَ الزمانُ وما فنيتُ
وفاؤُكِ بهجةُ الأجيالِ ذِكرٌ ... وحبُّكِ آيةُ العشّاقِ صيتُ
خيالٌ أنتِ من روحي وقلبي ... تشعُّ لهُ بديواني البيوتُ
سكبتُ عليه من حُبّي عطوراً ... ومن شِعري جمالاً لا يموتُ

انتِ لي

كلُّ ما في الحياةِ أنتِ، فقد سُـ ـكِّـرَ سمعي، وأُطبِقَتْ مقلتايا
صوتُكِ العذبُ ما سمعتُ سواهُ، غيـرَ عينيكِ ما رَأَتْ عينايا
كَيـفما أَلتـفِتْ أُحِسُّكِ حولي أنتِ ملءُ المنى وملءُ هوايا
ملءُ نهرِ الحياةِ، تزدادُ روحي عـطشـاً، كـلَّما ارتَوَتْ شفتايا
غيرَ أَني أُحسُّ ناراً بقلبي، أَيـكـونُ الهوى بـقلبي خطايا؟
هاجسٌ خاطفٌ يساورُ نفسي وانـقـبـاضٌ، تحسه رئـتـايـا
ماءُ عينيكِ، فيمَ يَصلبُ أحيا ناً ويقسو، كأنَّ فيه سوايا
أيَّ طيفٍ أرى خلال شكوكي لم يَذُبْ بعدُ في لهيبِ غنايا
أنتِ لي في حقيقتي وخيالي، ليَ في يقظتي، ولي في رؤايا
إن أكن من دمي بقيَّةَ شِعرٍ وخـيـالٍ، فـأنتِ مني بقـايـا

يدٌ كريمة

يا حبُّ كُلِّي شبابُ | كُـلِّي نـدىً وملابُ
على صعيدي جِنانٌ | وفي سمائي رَبـابُ
لولاكَ جفَّت عروقي | وساد روحي الضَّبابُ
ولم يكن ليَ شِعرٌ | ولم تكن آدابُ
ملأتَ عينيَّ نوراً | فكان هذا الكتابُ
روحي عليه صريحٌ | لا خدعةٌ، لا خضابُ
عَصَرْتَ قلبي ففيه | للظامئينَ شرابُ
فأنتَ أكرمُ كَفٍّ | أعطى عليها العذابُ

كأسان

لا يَحملون، وأحملُ أَنا في الغرامِ الأولُ

* *

هم يعشقون بشِعرِهم، أَمّا أَنا فبأدمعي
بدمي، بأعراقي، بروحي، بالشبابِ الممرعِ

* *

قالوا: «ثملنا وآستفقنا»، قلتُ: «لا، لم يفعلوا
لم يعرفوا سُكرَ الغرامِ لأنهم لم يحفلوا
بالخمر، بل بزجاجةِ الكأسِ التي لا تُثمِلُ»

العفاف المغوي

أتيتِ فأورقَ الأدبُ السنيُّ ... وغنّى الحُبُّ ، واْخضَلَّ الرَويُّ
وكنتُ على الجفافِ ، ومن قنوطي ... يفيضُ على دمي ظِلٌّ شقيُّ
عليكِ من الهوى ، قوتٌ منيعٌ ... ومن أَعرافِهِ ، عَبَقٌ شهيُّ
وفي عَينيكِ ، يستهوي عفافٌ ... له في النفس ، جاذِبُهُ الخفيُّ
وفي شفتَيكِ ، إغواءٌ لذيذٌ ... يذوبُ عليه قربانٌ نقيُّ
أَتيتِ ، من السماءِ عليكِ ظِلٌّ ... ومن أَغراسِها خَضَرٌ طريُّ
فقبَّلني على شفتي رسولٌ ... ومسَّ فمي ، كلامٌ عبقريُّ

أرض الميعاد

هِبَةُ الحُبِّ ، يا شعاعَ رؤايا ... وطريقَ السماءِ في مغنايا
رعشةٌ أَنتِ في عروقي ، ووحيٌ ... في دمي ، والنجيُّ من نجوايا
أَنتِ أرض الميعادِ ، ما سمح اَللّـ ... ـهُ بها ، أو بمثلها ، لِسوايا
غَمَرَ المنُّ من سمائِكِ صَحرا ... ئي وفَجَّرتِ كوثراً من هوايا
فاَطمأَنَّ الصباحُ ، أخضرَ في عَيـ ... ـني وطابت على أديمي ، العشايا
يا سنا الحُبِّ ، يا سنا الله ، ما أَحـ ... ـرقتَ ناري ، إلا لينقى سنايا
كان لي في الغرامِ قلبٌ بغيٌّ ... وعيونٌ ، على الجمالِ ، بغايا
حين مرَّت ، على جبيني ، يداها ... واَستحمَّت ، في عينها ، عينايا
وتلاشى لهاثُها ، في جوى قلبـــي ... تلاشتْ عليه تلك الخطايا

أحبكِ

أحبّكِ فوق ما تسعُ القلوبُ   وَخيَّل شاعرٌ ووعى حبيبُ
لأَنتِ من السماءِ سَحابُ عِطرٍ   يسحُّ عليَّ منكِ ندىً عَجيبُ
أُحسُّكِ بي ، فعِرقُكِ صارَ عرقي   وما لقَذىً ، بعرقينا ، دبيبُ
فنحنُ إذا ٱلتقى صدرٌ وصدرٌ   لنا ، فكما ٱلتقى كوبٌ وكوبُ
وإن مُزِجَتْ بنا خمرٌ وخمرٌ   تمازجَ في النَدَى نَسَمٌ وطيبُ
أرى أدبي بعينِكِ حينَ يهوي   على فمِكِ الأديبِ ، فمي الأديبُ
بنا نارٌ ، وليس بنا هشيمٌ   وعاصفةٌ ، وليس لنا هبوبُ

العذاب الحي

يــا حُبُّ عَذِّبْ عــــذِّب فؤادي
أَلهب عـــــروقي أَطــفىء رَشادي
وهــاتِ سُهــدي وخُـــذْ رُقــادي
يــا حُبُّ عذِّبْ عــــذِّبْ فؤادي

* *

سقـــيتُ روحي من الأَلَـــمْ
فمن جـــروحي هــذا الـنَّـغَمْ
وكــلُّ مــا بي من الــعــذابِ
يــذوبُ حــبَّــا على كـــتــابي
يـــفـــيض نورْ من الشــعورْ
على مِدادي
يــا حُبُّ عذِّبْ عــــذِّبْ فؤادي

* *

أهوى غـــزالْ من الـــحَضَـــرْ
مِـــلءَ الخيـــالْ مِـــلءَ الـــفِــكَـــرْ
لـــمَّـــا أتـــيـــنـــا في الحُـــبِّ آيـــهْ
نـــمَّت عـــلـــيـــنـــا عـــينُ الوشايَـــهْ
لـــكـــنَّ حُـــبّـــي دمي وقـــــلـــبي
خمري وزادي
يـــا حُـــبُّ عذِّبْ عـــــذِّبْ فؤادي

* *

رأيتُ نوري عـــلـــيـــكَ بـــادي
وسوف يـــبـــقـــى على رمـــــــادي
يـــا حُـــبُّ عـذِّب عــــذِّب فؤادي

ليل الصيف

الصيفُ، يا ليلُ، طارْ　　فــــاْرفقْ بـــــأشواقي
واْسلخ فُضولَ النهـــارْ　　من بـــعضِـــهِ الــبَــاقي
مـــا الــعــمــرُ إلا　　لـــيـــلٌ وبـــدرُ
إذا تَـولّى　　تلاهُ ذكـــــــــــرُ
مِـــلءُ الســـنـــيـنْ　　لــــلــــعــــاشقينْ

* *

يـا لـيلُ ما في الحقولْ　　حَـيٌّ سوى الـــبـــدرِ
لـيت الـلـيـالي تـطولْ　　لآخـــرِ الـــعـــمـــرِ
ولـــــيت كـوبي　　يـــا لـيـلُ، يـبقى
أَسقي حـــبـــيـي　　مـــنـــه ، وأُسقى
ذاك الـــرحـــيـقْ　　ولا نُـــفـــيـقْ

* *

والـغـابُ صَـدرٌ حنونْ غـامت عـليـهِ الـحَلَـمْ
سكـرانـةً، والسـكـونْ حُـلـوُ الشـذا والـنَّـغَـمْ
ولـلـنسـيـمْ ولـلـقـمـرْ
يـدُ الـكـريـمْ على الشـجـرْ
ولـلـحـفـيفْ همسٌ لـطـيفْ

* *

والـنورُ أَشهى قُـبَـلْ تَـلُـفُّـهـا الأسرارْ
وفي السـمـاءِ الـجَـبَلْ لحنٌ بَـعـيـدُ الـقَـرارْ
يـا لـيـلُ دعـنـا نـنسَ الـزمـانْ
كما عشـقـنـا فـالـعـمـرُ كأسٌ وعاشقانْ

إستغراق

أَلقيهِ مخموراً على صدري وأنسى الـزمـانْ
فكلُّ ما أَذكرُ من عمري هـذي الـثوانْ

الـطـيـرُ يـبني عشّهُ الـنديانْ
في الغار ، في الشربين ، في الريحانْ
والحُبُّ يـبني عشَّـه فـيـنـا
وغابُنا ما أَنبتَ الـوزَّال إلا لـيُـخـفـيـنـا
عن أَعينِ العذّالْ

لا حسَّ في الـدنـيا لإنسانِ
فـالـناسُ كـالأرواحِ قـد راحوا
ولم يــزل إلا خـــيـــالانِ
حـيَّـيـنِ ، والـبـاقـون أَشباحُ
أَلـقـيـهِ مخـموراً على صـدري
فـكـلُّـنـا ، إلا الهوى ، فـانِ
وكـلُّ ما أذكـرُ من عـمـري
هذي الثواني

إلا ليالينا

يا حُلوُ، ما في العيونْ حُـلـوٌ كـهـذا الـجَنى
يُضني عـلـيكَ الـفتونْ مِـلءَ الـمُـنى
سحَّت عـلـيكَ السما من سِحـرهـا كـلَّ ما
فاتَ جمالَ البشرْ
فـالـنـاسُ يا مُلهمي سِفـرٌ وأنتَ السُّوَرْ
يـا مُـلـهـمي يا خيرَ ما في دمي
لولاكَ مـاتَ الخيـالْ ومـاتَ حـتى الجمالْ
على فمي
يهفو من آسمِكْ أريجُ جسـمكْ
ولا يُشَمُّ البشرْ
فـالـنـاسُ يا مُسكِري عشبٌ وأَنتَ الـزَهَـرْ
يـا مسـكـري أَبـعِـدْ هـواكَ الـطَّـرِيْ
تـعـالَ نمضي، فـهـل في الـنـاسِ إلا الدَوِيْ

فالناسُ ، إمَّا غَبِيْ أَو عـابثٌ مـفـتَـرِ
قُوتي على مِـرشَفَـيكْ والـنورُ في مُـقـلَـتَـيكْ
ولا يفيقُ البشرْ

فـالـنـاسُ يـا مُـرشدي لـيـلٌ وأَنتَ الـقـمـرْ
الـغـابُ ، واقـينا ، حيٌّ يُـنـاديـنـا
أَنوارُهُ لم تـزلْ سكـرانـةً فـيـنـا
لـنـا الهوى والأَمَـلْ والشِّـعْـرُ خـمـرٌ وقوتْ
يـا حُبُّ، كـلٌّ يموتْ إلّا لـيـالـيـنـا
ما نحنُ في العاشِقينْ كَـسـيـرَةِ الأَوَّلـيـنْ
يا خيرَ ما في السِيَرْ

الـنـاسُ مـاءٌ وطـينْ وأَنتَ روحُ الـبـشـرْ

انتِ أم انا؟

جمالُكِ هذا أم جمالي؟ فإنني أرى فيكِ إنساناً ، جميلَ الهوى ، مثلي
وهذا الذي أحيا بهِ ، أَنتِ أم أَنا ؟ وهذا الذي أهواهُ ، شكلُكِ أم شكلي ؟
وحين أرى في الحُلمِ للحُبِّ صورةً ، أَظِلُّكِ ، يجري في ضميريَ ، أم ظِلّي ؟
تربَّع كلُّ الحُبِّ في كلّ ما أَرى أَمن روحك الكُلّيِّ ، هذا السنى الكُلّي ؟

* *

خَلَقْتُكِ في دنيا الرؤى ، أم خَلَقتِني ؟ وقبلَكِ جئتُ الوحيَ ، أم جئتِهِ قبلي ؟
وعنّيَ قلتِ الشعرَ ، أم عنكِ قلتُه ؟ ومَن في الهوى يُملَى عليه ، ومَن يُملي ؟
أُحسُّ خيالي ، في خيالكِ ، جارياً وروحَكِ في روحي ، وعقلَكِ في عقلي
إذا ما تراءى مُبهَمٌ في تصوُّري رأيتُ لهُ ضوءاً بعينيكِ يستجلي
كأنّكِ شطرٌ من كياني أَضعتُه ولما تلاقينا آهتديتُ إلى أصلي !

الناسك

ماذا بوسعِ الزمن المدَّعي ما دمتِ في شِعري وفي أَضلعي ؟

لن يُقطعَ الدهرَ، لنا أُلفةٌ مهما يفرّقْنا الورى نُجْمَعِ

نقول للناس ، إذا صيّحوا ، ما قالهُ البلبلُ للضِفدَعِ

شبابُنا إن يَفْنَ ، يبقَ الهوى نفنى به كَالخَلْقِ في المبدِعِ

ماذا على الحُبِّ إذا لم يُفقْ هل وَعَتِ الخمرةُ حتى نعي ؟

رأَيتُني شيخاً مديد الرؤى متَّصلَ السالفِ بالمزمِعِ

على فمي أُنشودةٌ لا تَني ونغوةٌ خضراءُ في مسمعي

أَعيشُ في الذكرى بغيبوبةٍ كما يعيشُ الطفلُ في المرضعِ

طيورُ أحلاميَ وحيُ الهوى من حُوَّمٍ حولي ومن وُقَّعِ

إن تُمحِلِ الدّنيا وتعبسْ لنا فأيُّ أَرضٍ فيكِ لم تُمرعِ ؟

غنمتُ في عينيكِ كُنْهَ المنى فالكونُ يحيا بي ، ويَفنى معي !

الثالوث البكر

الحُبُّ والخمـــــــرُ يـا لـيـلَ ، والشِعرُ
ثالوثُنا البكرُ

كـان الهوى قَـبْـلَـنـا من بعضِ ما يُقتنى
وخدعةً في اللسانْ

والشِعر ، يا ليلَ ، كانْ شيـــطـــانُـــه بهلوانْ
حتى تغنَّى بنا

جـئـنـا ، فجاءَ الخيالْ مـــعـــطَّـــراً بـــالجمالْ
ملوَّنـــاً بالسنـــى

هذي الرُبى مَن تكُونْ يـا لـيـلَ ، إلا عـيـونْ
ترنو هُياماً لنا

جـئـنـا فصار الزمانْ بحبِّـــنـــا مِـهـرجـانْ
والأرضُ صارت جنى

لا تنظري، فالسماءْ محجوبَةٌ بالدماءْ
والجهل يرعى الورى

أَمَا بَنَيْنا بناءْ يا ليلَ، فوق الفَناءْ
فيه السما والثرى

والحُبُّ والخمرُ يا ليلَ ، والشِّعرُ
ثالوثُنا البكرُ

هذه خمري

هذه خمري فَذُقْها يا نديمي فلها طعمٌ غريبٌ في كرومي
ليَ في كأسي يقينٌ لم يكنْ، ذهبَ الشَّكُّ مع الحُبِّ القديمِ
إنَّ في عَينَيْ حبيبي طَرَباً شاعَ آمالاً وعِطراً في صميمي
أينَ منه ذلك الهمُّ جرى من أفاعيه سموماً في كلومي

* *

يا نديمي، أبرأَتْ جرحي يدٌ فاضَ منها مَرْهَمُ القلبِ الكريمِ
فعلى كلِّ شقيٍّ رحمةٌ من سمائي ، وعلى كُلِّ سقيمِ
لم يكن ماضيَّ في الحُبِّ سوى مَطْهَرٍ، أفضى إلى هذا النعيمِ

إلى الأبد

الطبعة الأولى

١٩٤٥



صلاة

قَوِّني يا مُقَسِّمَ ٱلأَعْبَاءِ   وَأَعِنِّي على ٱحتِمالِ شَقَائي
أَنا يا ربِّ في يَدَيْكَ، فصُنْها   فَٱتِّكالي عَلَيْكَ كُلُّ عَزائي
إِنْ تكُن تَحرُمُ ٱلعَزاءَ ٱلمُحبيـنَ   فَمَاذَا تَرَكْتَ للشُّعَراءِ ؟

* *

رَبِّ، صُنْها وأَبْقِها ليَ ظِلاًّ   مِن حَنَانٍ يَمتَدُّ في صَحْرائي
وٱرفَعِ ٱلأَلسُنَ ٱلخَبيثَةَ عَنْهَا   وٱلأَذى في ٱللَّواحِظِ ٱلسَّوداءِ
أَنْتَ يا ربِّ مَا خَلَقْتَ جَمالاً   مِثْلَهَا في ٱلْمَلائِكِ ٱلأَنقِيَاءِ
أَنتَ يا ربِّ ما خَلَقْتَ وفاءً   كالّذي قَاتَ حُبَّهَا، في ٱلنِّسَاءِ
أَنتَ يا رَبِّ ما خَلَقْتَ نِسَاءً   مِثْلَ لَيْلَى، نَقِيَّةَ ٱلأَحشَاءِ
هِيَ يا رَبِّ فِلْذَةٌ مِنْكَ في الحُـ   ـبِّ جَرَتْ مِن دُمُوعِكَ ٱلخَضْراءِ
أَفَتُمْسي يَبْساً وَفيكَ رَبيعٌ   دَائِمُ ٱلطِّيبِ، طَيِّبُ ٱلأَنداءِ؟

* *

يا إلٰهي، قَرِّبْ إليَّ ٱلبَعيديـ ـنَ وأَبْعِدْ عَنِّيَ أَذى أَقْرِبائي

رَبِّ، حَوِّلْ عَيْنيَّ عن كُلِّ حَيٍّ رَبِّ، سَكِّرْ سَمْعِي عن ٱلأَنباءِ

أَأَرى صورةً وأَسْمَعُ صَوْتاً قَبْلَ أَن يَرجِعَ ٱلحَبيبُ النّائي!

الرسول

ذٰلكَ ٱلطَّيْرُ لِمْ عَراهُ ذهولُ لا حِراكٌ لـهُ ولا تَـرْتيـلُ
كانَ يُلقِي شَيْئاً على مِسْمَعِ ٱلصُّبـ ـحِ فماذا للصُّبْحِ كانَ يَقولُ؟
أَيُّها ٱلطَّيرُ، في لِحاظِكَ وَهْجٌ مِن حبِيبـي وحَيْـرَةٌ وذبولُ
كُنْتَ تنوي أَمراً، فهالَكَ وَجهِي أَتُرى لي إلى حبيبي سَبيلُ؟
أَنا أَرضى بِنَظرَةٍ منْهُ، هل يَنْشَقُّ عَنْها سِتَارُهُ ٱلمَسْدُولُ؟

* *

يا رَسولَ ٱلحَبيبِ، هل لحَبيبِيْ بَعْدَ طُولِ ٱلنَّوى سواكَ رَسولُ
يا رَسولَ ٱلحَبيبِ، كَيْفَ حَبيبي أَصحِيحٌ ما يَدَّعيهِ ٱلعَذُولُ؟
يا رسولَ الحَبْبِ، قلْ لحَبيبي إنني مِـثْـلُه سَجيـنٌ عَـليـلُ
عُدْ إليْهِ وقلْ له إنَّ قلْبي مثْلُ وجهي، وإنَّ لَيْلي طَويلُ
لَيْتَ ريشي يَطيرُ مثْلَك يا طَيـ ـرُ، وطَرفي يا لَيْتَهُ مجهُولُ
فـأَراهُ ولا عُـيونَ تَـراني ويـراني ولا يـنِـمُّ دخيـلُ

* *

يا رسولَ ٱلحَبيبِ، يا أَسعدَ ٱلخَلْـ ـقِ تَمَهَّلْ ، فَأَنتَ مِنْهُ قَلِيْلُ
فيكَ مِنْهُ ٱختِلَاجَةٌ ، وعلى ريـ ـشِكَ ظِلٌّ مِن مُقْلَتَيْهِ، بَليلُ
وحنينٌ علَى جَنَاحَيْكَ مَقْبوضٌ، ووجدٌ من قَلبِهِ، مَسْلولُ

* *

يَا رَسُولَ ٱلحَبيبِ، إِذ يهْبِطُ الليـ ـلُ وتَنْحَلُّ في ٱلهِضَابِ ٱلكُحُولُ
وَيَغيمُ الوادي ويَشهَقُ في الأبـ ـعادِ رَسْمُ ٱلخَمَائِلِ ٱلْمَحْلولُ
وتَنامُ ٱلعُيونُ في دارِ لَيْلى غَيْرَ طَرْفٍ يُغَيِّبُهُ مِنديلُ
قُلْ لِلَيْلى رأَيْتُهُ فهْوَ باقٍ: نَظَرٌ حالِمٌ وقَلبٌ بَتُولُ
ذلك ٱلعَهْد، قد يزول المحبُّو نَ على وَجهِهَا وليسَ يزولُ
خُتِمَت جِلدَةُ ٱلعُروقِ علَيْهِ فبِأَزكى دمائنا مجبُولُ

* *

يا رسولَ ٱلحَبيبِ، لا... لا تخَبِّرْ هُ فَيَكْفيهِ حزنُهُ ٱلْمَوصولُ
لا تخَبِّرْهُ ما رَأَيتَ وعلِّلْـ ـهُ فقَد يُذهِبُ ٱلأَسى ٱلتَّعليلُ
قلْ لهُ إِنَّ حبَّهُ في عروقي شَبَّ مِنْهُ لِعُرسِنَا إِكْليلُ
قلْ لهُ سوف يَستحيلُ ربيعاً دائماً ذٰلك الهَوى ٱلمُستَحيلُ
قلْ للَيْلى، يا طيرُ، قلْ لحَبيبي سَوْفَ يأْتي جيْلٌ ويذهبُ جيلُ
وعلى حُبِّنَا من الخُلدِ زهرٌ وعلَيْهِ من روحِهِ تَقْبيلُ
قلْ للَيْلى ، رأَيتُهُ فهو نشْوانُ وفي مقْلَتَيْهِ حُلْمٌ جميلُ !

الحلم الجميل

العام الأول

حينَ أَقبَلْتِ، والهَوى فيكِ يحبُو ... كان حُبِّي يَفْنَى ، وناريَ تخبُو
قُلْتِ لي : بي أَسى ، فهَلْ منْكَ نُصْحٌ ... وبِنَفْسي داءٌ ، فهَلْ منْكَ طِبٌّ؟
جئْتِ تَسْتَوصِفينَني في شُؤونٍ ... ما بِهَا لي يدٌ، ولا لكِ ذَنْبُ
قُلْتِ إن كَانَ للشَّرائعِ رَبٌّ ... مُستَبِدٌّ، أَلَيْسَ للقَلْبِ رَبٌّ؟
قُلْتُ : هذا بَيني وَبينَكِ حقٌّ ... إنَّما لـلْوَرَى فُروضٌ وكُتْبُ
أَلقَوانينُ سَنَّها ٱلعَقْلُ في ٱلنَّا ... سِ فَبينَ ٱلضَّميرِ وَٱلعقْلِ حَرْبُ
إن بين ٱلسَّماءِ والأرضِ حرباً ... قُلتِ حَتَّى يَصيرَ للنَّاسِ قلْبُ

* *

ومضَتْ أَشهُرٌ وتلْكَ الأحاديـ ... ـثُ يَدُبُّ الهَوى بِهَا ويُربُّ
قُلْتِ لي مَرّةً، أَتَفْهَمُ قَلْبي ... قُلتُ يا ستِّ... قلْتِ لِيلى أَحَبُّ

* *

قُلْتُ يا لَيلَ، كَمْ خَبِرْتُ قلوباً فَبِنَفْسي من ذلكَ الخُبْرِ حَسْبُ
غيرَ أَني أَرى بِعَيْنَيْكِ ما لم تَرَهُ مُقْلَةٌ، ويَلْمِسْهُ لبُّ
أَتكونينَ ذلكَ المَلَكَ البا قي ولو جاءَ من جَهَنَّمَ، خَطْبُ
أَتكُونينَ فيهِ ما لم تكُنْ أُنْـ ـثى وما لم يكنْ من النَّاسِ حُبُّ
فتأَمَّلْتِ بي وقُلْتِ: وماضيـ ـكَ أَلمْ تَبْقَ منْهُ نارٌ تُشَبُّ
«فأَفاعي الفِرْدَوْسِ» ما زِلنَ حيَّا تٍ وما زالَ سُمُّهُنَّ يدُبُّ
قلْتُ يا لَيلَ... قلْتِ بعْدَ «الأفاعي» جاءَ شِعرٌ مُرَطَّبُ الحُبِّ عَذْبُ:

* *

صاحِ في عَينَيكَ صدَّاحُ الأَماني وعلى ثغْرِكَ حُبِّي وحَناني
ما على الدّنيا إِذَا غنَّت بنَا ليسَ في الدُّنيا سِوانا شاعرانِ
فاعْصُري قلْبَكِ في خمْرِ دمي واجْعَلي الأيامَ في الكأسِ ثواني
وارشِفي مِـــــرشَفي واهْـتُفي نَـحْـنُ في
أُذنِ الزمـانِ
أُغْنِيَّتانِ
جَمعَ الحبُّ بنَا كُلَّ الأَغاني

* *

كَانَ في قَلبي من الحُبِّ بقايا توقظ الماضيَ، والماضي خطايَا
حِينَ أَشرفتِ على قَلْبي امَّحَتْ غَسلَتْ روحُكِ بؤسي وشقَايَا
ونما حُبٌّ جـديدٌ في دمي ما نما، يا أُختَ روحي، في سوايا

ما ٱرتوى بي جوى وٱلهوى ما روى

إلّا هوايا

فإذا غنَّيتُ شعَّت في غِنَايا

* *

جُنَّتِ الدُّنيا كمَا نَهْوى فجُنّي إنما الدنيا هوىً مِنْكِ ومِنّي

أَنزَلَتْ عَينَاكِ في صَحْرائِها من سَماءِ الحُبِّ سَلْوايَ ومَنِّي

هي كَنَّارةُ فتْحٍ في يدي طارَ عن أوتارِها ٱلشَّكُّ فغنّي

فالغِنَا خَمرُنا والمُنى مِلْؤنا

سَوْفَ نَغْدو في الوَرَى أُسْطُورَةً يَنْقُلُ ٱلنَّاسُ الهَوَى عنْكِ وعَنّي

* *

إنَّ أُنثى غَنَّيتَها مِثْلَ هذا الـ ـشِّعر، نِسيَانُها — ولو شِئتَ — صَعْبُ

مَن تُراها تكُون، أَيَّة أرضٍ كانَ فيها زرعٌ، كَهٰذا، وَخِصْبُ:

* *

رأَيتُكِ في قلْبي فحُلْمي مُنَوَّرُ وصُبْحيَ مِشراقٌ وليْليَ مُقْمِرُ

تَرَكْتُ أَباطيلَ التَّقاليدِ للورى فَإن كُنتُ في إثمٍ فَعَيناكِ مَطْهَرُ

أُحبُّكِ... لا أدري لماذا أُحبُّها كَفَانيَ إيماني بأَنيَ أَشعُرُ

وأهوى الذي تَهْوينَ حتّى كأَنني بِقَلْبِكِ أَستَهْدي وعَيْنَيكِ أَنظُرُ

أُحبُّكِ في قلْبي كمَا ثَارَ جائِعٌ وهجَّرَ مُشتاقٌ وصلَّى مُكَفِّرُ

وحقِّ هوى «غَلْوا» أُحسُّكِ في دمي وأُقسِمُ ما في غَلْوَ حبٌّ مدمَّرُ

جَرَتْ في دمي وحياً وتجْرينَ في دمي ولٰكِنَّ لوْنَ الحُبِّ قدْ يتَغيَّرُ

* *

أُحبُّكِ، والدّنيا سحَابٌ مغَرِّرٌ، سَرابٌ وقَبضُ الريحِ، حُلْمٌ مُكَسَّرُ
جَعَلنا خَيالَ الحُبِّ فيها حَقيقَةً فنحنُ على وَهْمِ المُحِبِّينَ جوهرُ
أُحبُّكِ، والدّنيا تَغيمُ بِناظِري غِشَاءٌ على عَيْنِ ٱلشَّبابِ مُحَيَّرُ
أَرى النَّاسَ من حولي شُخوصاً غَريبَةً وكُلٌّ غَريبٍ حين تَأتينَ يحْضُرُ
أُحبُّكِ، والدّنيا طنين بِمسمَعي كَأَنّي بالدُّنيا حَديثٌ مُغَوَّرُ
تُهَوِّلُ لي فيهَا طُيوفٌ كَبيرَةٌ وكُلٌّ كَبيرٍ، حينَ أَلقاكَ، يَصْغُرُ
أُحبُّكِ... ما أَشهَى صداها بِمسمَعي سمَاعٌ لأحلامي العِذابِ مصَوَّرُ
تَغلغَلَ في مَهْدي لأُميَ من أبي وباقٍ على قَلْبي إلى حين أُقبَرُ

* *

مَن تُراها تكُونُ؟ طوبى لحُبٍّ كـانَ فيهِ لمثْلِ شِعْرِكَ سَكْبُ
أَيُّ حسْنٍ أَوحاه؟ أَيةُ أُنثى؟ بي عذابٌ منهَا كَشِعْرِكَ رَحْبُ:

* *

تَقرِّبُني نَفْسي فتُبعِدُني «غَلْوا» ويدفعُني حُبِّي فتردَعني التَّقْوى
أَغالبُ قَلْبي في هواك فلا يَني وأُوشكُ أن أَقسو علَيْهِ فَلا أَقوى
وأَشعرُ في نَفْسي بِضَعْفِ أُحبُّهُ فأُلوي به عمَّا يُقال وما يُروى
كَأَنيَ أَخشَى أن أُطاوعَ لائمي فأَسمعُ تبْكيتاً ولا أَفهَمُ الفَحْوى

أُحبُّكِ ، لا أَرجُو نعيماً يُصيبُني   وأَبذلُ من قَلْبي ولا أَبتَغي جدوى
وقد كُنتُ أَهوى فيكِ حسْناً أَناله   فأَصبحتُ أُهوى فيكِ فوقَ الذي أَهوى
أَراكِ على جَفْني ، أُحسُّكِ في دمي   وأَنشَقُ في روحي شذا روحِكِ الحُلْوا
مَزَجْتُكِ بي كَالخمْرِ تُمزَجُ بالنَّدى   فمنْكِ بجسْمي كُلُّ جارحةٍ نشْوى
غَيرَ أَنّي أرى بسَائرِ ما قلْتَ هوىً فيهِ للشّقاءِ مَهبٌّ :

* *

أَلغرامُ الذي أَطالَ شجوني   حار قلبي بهِ وحارَت عيوني
لا أُطيقُ ٱلغَرامَ في ألفِ وَجْهٍ   فٱذهبي ، ما عَرَفْتُهُ يَكْفيني
وٱطْرحِيني من مُقْلَتَيْكِ وخَلِّيني ... تَعالَيْ ، في مُقْلَتَيْكِ ضَعيني
أَنا في مُقْلَتَيْكِ أَسعَدُ ... أَشْقى   فيها ، فٱذهَبي ولا تشْقيني
أَنا أَهْوى ٱلشَّقاءَ... لا ، لسْت أهوا   هُ ، تَعالَيْ إليَّ... لا ، بل دَعيني
مَنْ تكُونينَ أَنْتِ؟ أَجْهَلُ... بل أعْرِفُ ، فٱمضِي عنِّي ، ومَن شِئْتِ كُوني

* *

أَنتِ حبٌّ في مُهجَتي فتَعالَيْ   أَنْتِ هزءٌ في ناظِري فٱتركِيني
أَنْتِ نورٌ في خاطِري ، وَظَلامٌ   في خَيَالي ، وريبةٌ في جَبيني
وسُوَيداءُ في دمي   وهمُومٌ علَى فَمي
أَنتِ عرسٌ في مأتمي   بَسمةٌ في جهنّمي
وجَحيمٌ في مَبسِمي

* *

آهِ عَيناكِ! ... كَيْفَ أُنْكِرُ عَينَيـ ـكِ وقلْبي عَلَيْهِا وفُتوني؟
حِينَ تغْرَوْرِقَانِ بالحُبِّ يَطْفُو مِن حَناني علَيْهِا وحَنيني
أَنْتِ في خاطري وروحي نشيدٌ زائِلٌ فاَهْدُميهِ أَو فاَهدُميني
ودَعيني أَعُدْ إلى يقْظَةِ اَلمَاضـي فأَحيا في ذكْرياتِ جُنوني

* *

آهِ! من مُقْلَتَيْكِ لم يَبْقَ إلا وَهَجٌ في يراعتي يُغْريني
غَرَقٌ في شواعري وذهولٌ في ضَميري، ورِعْشَةٌ في جُفوني

* *

قُلْتُ يا لَيْلَ... قلْتِ شِعْرُكَ فيهَا حَيَّرَتْني فيهِ مآسٍ تُغِبُّ
أَرجيمٌ أَتى بوجْهِ مَلاكٍ أَم غزالٌ في قَلْبِهِ حَلَّ ذئْبُ!

* *

مرَّ علَى قلْبي المُعَنَّى مَرَّ عَصُوفٍ علَى أَخيهْ
أَيَعْرِفُ اَلقَلْبَ كَيْفَ جُنَّا وكَيْفَ جُنَّ اَلغَرامُ فيهْ
دَعني فقَد صارَ نحْنُ كُنَّا وحلَّ ما كُنْتُ أَتَّقِيهْ
هَوىً تسَرَّى قلْبي وحلاَّ علَى خَطيفْ
جاءَ معَ اَلصَّيفِ ثمَّ ولّى مَعَ الخريفْ
كمَا يَجيءُ الهوى عنيفاً يمضِي عَنيفْ

* *

وليمةٌ مدَّها الغرامُ وسادَها الزَّهْوُ والْمَرَحْ
ما كادَ يَصْفُو بهَا المُدامُ حَتَّى بدا ٱلشَّكُّ في ٱلقَدَحْ
ومُذْ جَلَا عَنِّيَ ٱلغَمَامُ رأَيْتُ في قَعْرِهِ شَبَحْ
سَكَبْتُ فيكِ الهَوى أَغاني والقَلْبَ راحْ
فأَيُّ شادٍ علَى حَنَاني سَطَا وطاحْ
وأَيُّ مِسْخٍ أَحالَ شِعْري إلى نُبَاحْ

* *

حَلَفْتُ بٱسمِ الهوى وبٱسمِكْ فَبِٱسمِ مَن كُنْتِ تَحلِفينْ
وحقِّ قلْبي، وحقِّ سَهمِكْ أَخشَى على الخبْثِ أَن يَبِينْ
أَن يأْكُلَ ٱلبُؤسُ جِسْمِكْ وتُبْذَلَ النَّفْسُ وٱلجَبِينْ
أَيحْجُبُ الخامِلُونَ عنِّي ما تبدِعينْ
لقَّنْتُ في مقْلَتَيْكِ فنِّي للعَاشِقينْ
وأَنتِ عِشْقي، فَلِمْ أغنِّي وتَصْمُتِينْ؟

* *

قُلْتُ يا لَيْلَ إنَّ حُكْمَكِ ظَالِمْ فٱرحَميهَا فَٱلحُبُّ كاللهِ راحِمْ
لم تَجِئْني بدون قلْبٍ بَريءٍ إنَّما أَلسُنُ الوشاةِ أَراقِمْ
قُلْتِ في مُقْلَتَيْكِ منْهَا خيالٌ فهَواها ما ماتَ بل هو نائِمْ
ليْتَني جِئْتُ قَبلَهَا! قلتُ لو جِئْـ ـتِ لأَلفَيْتِ في ترابي جماجِمْ
كَانَ قلبي، يا لَيْلَ، يدفُنُ ماضيـ ـهِ فَلم تَبْتلي بِتِلْكَ المآتمْ
كَانَ روحي، إذ أَقبلَت، يَتَنَزَّى الـ ـحِقدُ فيه، وكانَ حُبِّيَ ناقمْ

فالأفاعي لم تُبقِ إلّا سُمُوماً   في جَنَاني وفي ضَميري سمَائمْ
كَانَ في صَوْتِهَا ذَرُورٌ من ٱلسِّحْـ   ـرِ وهٰذا الذَّرُورُ كانَ مراهِمْ
فَتلاشَى حُلْقُومُهَا في لَظَى نَفْـ   ـسي يلاشي فحيحَ تلْكَ الحَلاقِمْ
حُبُّـهَا كانَ مطْهراً لعَذابي   قُمتُ منْهُ إلى نعيمٍ قائمْ
فعَلَى مُقْلَتَيْكِ سحْرٌ غريبٌ   فيهِ من بهْجَةِ السَّماءِ مبَاسمْ
ونَقاءٌ على جَبينِكِ ، يا لَيْـ   ـلى ، كأَنَّ المَلاكَ ما زالَ حائِمْ
لي إلى اللهِ في حَنانِكِ مِرْقا   ةٌ ، وفي صوتِكِ الشَّجيِّ سلالِمْ
أَنا ، يا لَيلَ ، أَسعَدَ النَّاسِ حُبّاً   مِلءُ عَيني نورٌ ، وقلْبي ولائِمْ
سَوْفَ تُمحَى رُؤىً ، وتنْهارُ أَحـلامٌ ، وتَبْلى مُنىً ، وحُبِّيَ دَائِمْ !

العام الثاني

١

نامَ إلّا الهوى ، فأَهْلُكِ ناموا   وعلَى اللّيلِ من هوانا احتِشامُ
جئتِني تَنْضَحِينَ حُبّاً كما يَنـ   ـضحُ نوراً من القُمَيْرِ الغَمَامُ
والطُّمأْنينَةُ التي بأَهلِكِ أغفتْ   نَمَّ عنْهَا في عَينِكِ اسْتِسْلامُ
أي بأْسٍ عليكِ والأَمَةُ الشّيـ   ـخَةُ عَيْنٌ ومِسمَعٌ وكَلامُ؟
إنَّها من ذَويكِ خيرُ ضمَانٍ   ما عسَى أَن يقُولَ واشٍ حرامُ؟
فاسهَري ، فالعَجوزُ نامت علـى المِسنَدِ سَهرانةً ... عليها السَّلامُ !

* *

قُلْتِ : مِسكِينَةٌ ! ... وأَشرَقَ في عَيْـ   ـنيكِ عطفٌ وفي لماكِ عُجَامُ
ولو أنَّ الحُنُوَّ يُعْطي لغطَّا   ها لحافٌ من قطْنِهِ ، وحِرامُ
كُنْتِ ملأَى من السَّعادَةِ حتَّى   خِلْتِ أَنْ ليسَ في الورى آلامُ
كُنتِ ملأَى منْها ، بوَدِّكِ لو يُعْـ   ـطى شرابٌ من فَيضِهَا وطَعامُ
تَتَمَنَّينَ لو تفيضُ على النَّا   سِ فَلا حاسِدٌ ولا نمَّامُ
تَتَمَنَّينَ لو تفيضُ على المو   تى فتَحْيا أَو تَستَريحَ العِظامُ

ومَضَتْ هجعَةٌ من اللَّيلِ عَجْلى كان عـهْـدٌ لنَا بِهَا وذمامُ

* *

قُلْتِ: غَرِّقْ عَينَيكَ فيَّ، فغَرَّقـ ـتُ، وعبنٌ جوعٌ وعينٌ أُوامُ
قُلْتِ ماذا ترى وكُلِّي سوادٌ؟ فالقُمَيْرُ آمَّحى وشدَّ آلظَّلامُ
قُـلْتُ مـا لا تـراهُ عـيـنٌ ولم تُعْزَفْ بهِ أَو بمثْلِهِ أَنغامُ
أَنا، يا لَيْلَ، مؤمنٌ بكِ، لكِنْ هـل تُصَافي وتـعْـدِلُ الأيامُ؟

* *

قُلْتِ أَدركْتُ ما تُريدُ، ففي بَيْـ ـتي هشيمٌ، وحَوْلَ بيْتي ضِرامُ
آهِ لو تنْطِقُ آلسَّما وتَعي الأَرضُ ... وقـد قيلَ دون ذاكَ الحِمَامُ
ولـو آنَّ آلقُلوبَ تَطْـهُرُ وآلآ ذانَ تـنْـقَى لصَحَّتِ الأَفهَامُ
أَيُّ عقْلٍ لهُ على آلقَلْبِ حَقٌّ أَعلى آلحِسِّ تَحْكُمُ الأرقامُ؟
أَلَهُمْ سُنَّةٌ؟ فلي رحمةُ اللّـ ـهِ ولي نورُه، ليَ الإِلهامُ
أَنا قَلْبٌ يُعْطي، وهم جسَدٌ يُعْـ ـطى لَهم شَهوةٌ، ولي أَحلامُ
والـذي قـلْـتِهِ، وما لفَظَتْهُ شَفَةٌ من دمٍ، أُمورٌ جِسامُ

* *

وحَمَلْتِ آلعَجُوزَ وآلليلُ كَهْلٌ وعَلَـيـهِ مـن آلـنُّجـومِ رِمـامُ
وعَلَى آلشُّرفَةِ الكَئيبَةِ ظلَّتْ تَـتَـروَّى حَـديـثَـنَـا الأَنسـامُ

٢

أَيـكُـون الهوى نـدىً ومَلابَـا وثماراً ، جَنَى الهَناء ، رطابَا ؟
أَيكُونُ الهوى : اَعصُرِ الصُّبحَ والليْـ ـلَ شرابـاً وأَتـرِعِ الأَكْـوابَـا
واَرفَـعِ الأَلْسُـنَ الـرديـئَةَ عنَّا وليَـكُـنْ عيشُـنَا نفُوساً طِرابا
والـزمـانُ الـرَّجيـمُ دارُ نعيمٍ لسِوانـا لا تُـفْـتَـحُ الأبـوابـا ؟
أَيكُونُ الهوى : اَقطُفِ الشُّهدَ ، ما أَصـ ـفى اَللّيالي ، وما أَلَذَّ اَللُّعابا
أَلـرَّبـيعُ اَلـطَّوَّافُ يزرعُ نوراً وَظِلالاً خُـلْـجَانَـهُ والـهِضَـابـا
ولـنَـا يَقْلِبُ اَلسَّمَـاءَ فـراشاً وبـنَـا يملأُ اَلسماءَ شبَـابـا ؟
أَيكُونُ الهوى : لنَا حُلُمُ الجـ ـنَّةِ فَلْـيَـنفَـرِطْ بِـنَا أَطيَـابا
وليَكُنْ يقْـظَةً تسيلُ مدى الدَّهـ ـرِ فتُزْكي فينَا الحَصَى والتُرابا
تـفْـجُـرُ الـكَـوْثَـرَ المؤبَّـدَ فينَا وتُصَـفِّي لنَا الخلودَ شرابا ؟

* *

أَلهوى : لا تَخَفْ صُروفَ الليالي واَنظُرِ البَرْقَ كيفَ يُدمي اَلسَّحابا
ورياحٌ عـواصف تقْحَمُ اَلدّو حَ ، تهزُّ الجذورَ والأعصـابـا
نَـهَـرٌ هـائِـجٌ فلا تَـتَـهَـيَّبْ هَـوْلَ أمـواجِـهِ وشُقَّ العُبابا
والهوى : أَصغِ ، في الرياضِ إلى البُلْـ ـبُلِ واَحْذَرْ ، فإِنَّ فيها غُرابا
وعلى النَّبعِ دُلْبَةٌ تَجْذِبُ الطَّيْـ ـرَ إِلـيْـهـا والـفـأْسَ والحطّابـا
وعَزيفٌ للجِنِّ يُجري على قَلْـ ـبِ المغَنَّى الإطرابَ والإرهابا

* *

والهوى: مرتعُ النَّعيمِ فذلِّلْ سُبُلَ الفتْحِ وٱمْلِكِ الأَسبابا
دونك الْمَهْمَهُ الكؤودُ فلَن تَبـ لُغَ إلا إذا بَلَغْتَ العَذابا
فٱقتَحَمْتَ السُّيولَ سَيْلاً فسيْلاً وعَبَرْتَ الغَاباتِ غاباً فغَابَا
وهزمتَ النَّسْنَاسَ والضَّبُـعَ ٱلحزْراءَ فيهَا والأرقمَ النَّشَّابا

* *

قُلْتِ: ما زالَ في خَيالِكَ نَزرٌ من صبَاغٍ على «أَفاعيكَ» ذابا
فٱمحُهُ وٱغتَسِلْ كأَنَّكَ لم يَعْـرِفْكَ ماضٍ ولم تغَنِّ كتَابَا
نحْنُ بدءُ الحَياةِ، قبْلَ حلُولِ الـحُبِّ فينا كان الوجودُ ضَبابَا
غَنِّني! تَعالَ إلى الغابةِ نغْنمْ منَ الصُّخورِ حِجَابَا
فهُنا ٱلأَعْيُنُ ٱلمَريضَةُ تؤذينا فتَبْني منَ الشُّكوكِ قِبَابَا

* *

هذه صخْرةٌ تَقينا لَظَى ٱلشَّـمسِ ومن غَدرةِ ٱلعُيونِ ٱلحِرابا
فَطَريقُ ٱلوادي بَعيدٌ فَلا نَخْـشى ذهاباً من عابرٍ أَو إِيابا
فلنُقَطِّعْ من تحتِها ٱلشَّوكَ، ولْنَرْمِ الحَصَى، وَلْنُمَهِّدِ ٱلأَعشابا
ولْتَكُنْ خَيْمَةً لنَا تُكْـرَمُ ٱلأَحلامُ فيهَا، وللهَوَى مِحرابا

* *

تعَبٌ كُلُّها ٱلحَياةُ... — بل الحُبُّ، ولكِنْ كَمْ جَمَّلَ الأَتعابا
أَطلَعَ ٱلشَّوكُ في يَديكِ دموعاً فٱجعَليها على لِسَاني عِتَابَا
قلْتِ خُذْها نقيَّةَ ٱلعِرْقِ، من حُـبِّي شفاهاً ومن حَناني رُضابا
فأخذتُ الدمَ ٱلنَّقِيَّ، وفي قلْـبي عُروقٌ، تودُّ أَن تنسَابا

والرَّوابي — أَتذكُرين؟ كأَنَّ ٱلشَمْسَ لجَّتْ بِها فصارَتْ سَرابا

* *

قلْتِ دعْني أَنَلْ كما نِلْتَ منّي قَطَراتٍ مِنَ ٱلعُروقِ عِذابا
ولْتَكُنْ بيننَا من الحُبِّ ميثا قاً يكُونُ الوفا له آدابا
ولبِثْنا في نِعْمَةِ ٱلحُبِّ لا نَسْـ ـمَعُ إلّا خَيالَهُ المنْتابا
تتراءى لنا ٱلصُّخُورَ خياماً والطُّيُور الّتي بهَا أَحبَابا
كُلَّما فرَّ طَائِرٌ حَمَلَ الوا دي إليـنا من حُبِّهِ أسرابا
والْمَسَا ينْشُرُ الظِّلالَ على الدّنيا ويُلقِي على النُّفوسِ الثَّوابا

٣

قُصَّ لي سيرةَ الذين أَحبُّوا قَبلَنا أَنتَ أَحسَنُ ٱلنَّاسِ ظنَّا
أَسنِدي رأسَكِ الجميلَ إلى صَدْ ري ،وأَصغي ،أُسمِعْكِ ما ليسَ يفْنَى
أَوَّلُ ٱلعَاشِقِينَ ، يا لَيْلَ ، قَيسٌ ليسَ في الحُبِّ قبْلَ قيسٍ معَنَّى
تيَّمَتْهُ ، يا لَيْلَ ، لَيْلى ولمَّا زُوِّجَتْ من سواهُ هام وجُنَّا
وأَحَبُّ العُشَّاقِ مَن هام ، يا لَيْـ ـلى ، بلَيْلى وكان ما نحنُ صِرنا

* *

وجميلُ بنُ مَعْمَرٍ، أَتمنَّى لو تَروَّيتِ كَيفَ كرَّمَ بُثْنا
زادَهُ حبُّهُ عفافاً ونُبْلاً كُلَّما عَضَّهُ أمرؤٌ وتجنّى
شِعْرُهُ، لو عرفتِ كَيْفَ يفوحُ الـ ـصِّدقُ منْهُ، لقُلْتِ ذلكَ منّا
أَكْرَمُ العاشِقينَ عيْناً وقَلْباً أطربُ الشّاعرينَ مبْنىً ومَعْنى

* *

ومِنَ الحُبِّ، عُروةُ بنُ حِزامٍ نالَ في الموتِ شطْرَهُ واطْمَأَنّا
ماتَ في عَفْرَ، ثم ماتت بهِ عَفْـ ـرا، كِلَا العَاشِقَيْنِ ما يتمنّى
هيَ أُسطُورَةٌ منَ الشِّعْرِ، قالوا وهيَ أَسمَى حقَايق الحبِّ، قُلْنا
ولو انَّ القُلوبَ لم تَفْنَ في الحُـ ـبِّ لما أَورقَ الجَمالُ وغنّى

* *

ليْلَ، ما أَنزَلَتْ كَروحِكِ كَفُّ اللّـ ـهِ روحاً ولا كَحُسْنِكِ حُسْنا
والحَنانُ الذي يُخدِّرُ عَيْنَيْـ ـكِ، أَفي الأَرضِ للسَّما منْهُ أَدنى؟
كُنْتِ في النَّاسِ كالنِّسَاءِ فلمَّا جئتِ قلْبي ظَهَرْتِ شِعراً ولَحنا
وزرَعْتِ الآمالَ فيَّ نجوماً أَيُّ كَنْزٍ أَحبَّ منْها وأَغنى؟
نحْنُ، يا لَيْلَ، أَسعَدُ النَّاسِ فَلْنَغْفِرْ لهم كُلَّ ما يقولونَ عنَّا!

٤

كُـلُّ حَـيٍّ يموتُ إلّا هَـوانـا — أَعلى الأَرضِ مَن يُحِبُّ سِوانا؟
نَحْـنُ والنَّاسُ، نملأ الأرضَ حبًّا — وهُـمُ يملأونَـهـا نيرانـا
يا حَبيبي، غَرِّقْ جَبينَكَ في صَدْ — ري، فلولاكَ ما مُلِئْتُ حَنَانَا
لم يكُن لي سوى حُنُوِّكَ حتَّى — قبْلَ أَن يَفْرُضَ الهوى لُقْيانا
كُنْتَ في وَحْدَتي خيالاً على قَلْـ — ـبي فكَم مَرَّةٍ بدا ملآنا
وعلى مُقلتَيَّ حُلْماً لذيذاً — حاملاً من سمائِهِ أَلحانـا
كم سَمِعْتُ ٱلفَضاءَ يخْفِقُ حولي — أَتُرى كان يلتَقي طَيْفانَا؟
كُنْتَ بي قبْلَ أَن أَراكَ بِعَيْني — فدمي كان يرتوي أَحيانا
يا حبيبي، إليْكَ حُلْماً يودُّ ٱلـ — ـطرفُ لو يرتمي بهِ يقْظانا
كُنْتَ في هالةٍ من النُّورِ لا يَحـ — ـصُرُ ذهنٌ مكانَهَا والزَّمانَا
وتَرَدَّتْ منَ الجَنوبِ رياحٌ — زحفَ العِطْرُ خَلْفَهَا وَلْهانا
وإذا النورُ يستحيلُ أديماً — ثم يحيا فيَستَحيلُ جِنانا
وإذا بي أَراكَ تَقْطُفُ كالفا — تحِ من كُلِّ مَغْرِسٍ رَيعانَا
يَنْبضُ الغُصْنُ في يديكَ رجاءً — ويُنَدِّي عليْهِما إيمانـا

* *

قُلْتَ، يا لَيْلَ، ما عَلَينا إذا النّا — سُ تَجَنَّوا فالحُبُّ قد أَعطانا
وفَرَشْتَ الجَنى الشَّهِيَّ طَعاماً — أَمرَ الحُبُّ أَن يكُونَ فكَانَا
قُلْتَ لي نعْمَةُ ٱلطَّبيعَةِ يا لَيْـ — ـلى أَعدَّتْ لِعُرسنَا مِهْرَجانا
بورِكَ ٱلحُبُّ حين باركَ إكْليـ — ـلاً عَلَينا، أَحَلَّهُ قَلْبَانَا

وإذا بالنَّباتِ يستَنشِقُ ٱلحُـ ـبَّ فتَجري جموعُهُ مجرانا
فتَبوحُ ٱلصَّبا ويرتَعِشُ ٱلور دُ ويصْحُو منَ النَّدى سَكرانا
وعَبيرُ النِّسْرين ينْهَلُّ حبّاً في العَبيرِ المنْشُورِ من نجْوانا

* *

يا حبيبي، كأَنَّ طَرْفيَ لمَّا ذهبَ الحُلمُ لم يَكُنْ وَسْنَانا
أَوَلَسْنا في يَقْظَةٍ تخطُفُ ٱلغِبْـ ـطَةُ فيها القُلوبَ والأجفانا
أَوَلَمْ نَبْنِ بالمَحَبَّةِ والرَّأْ فَةِ دُنيا أعزَّ من دُنيانا
تهْدُمُ ٱلعَالَمَ الّذي يهْدمُ الوِجْـ ـدانَ فينا، وترفعُ الوِجدانا؟
هذه ٱلنَّبْعَةُ ٱلحَنونُ، أَلَمْ تعْـ ـكِسْ علَينا ٱلظِّلالَ والأَلوانا
تُفْعِمِ ٱلنَّفسَ من نَقاهَا ينابيـ ـعَ وتملأْ أَعماقَهَا خُلْجانا؟
أَسعَدُ ٱلنَّاسِ نَحْنُ، فلْيَصْفَحِ الحُبُّ بنا، وليَكُنْ لهم غفْرانا!

العام الثالث

١

نَحنُ عَدْنٌ وهم مكانٌ مُريبُ   شَقِيَتْ فيهِ أَعيُنٌ وقلوبُ
سَكَبَ ٱلحُبُّ رَحْمَةَ اللهِ فينَا   فَٱلسَّنَى مائِجٌ بِنَا والطُّيوبُ
كُلُّ أَعراقِنَا ٱلسَّعيدَةِ للإِيـ   ـمانِ مَجرى وللرَّجاءِ دُروبُ
تَتَناهَى بنَا إلى الغِبطَةِ الكُبرى فنَفنَى بِسِحْرِها ونذوبُ

* *

أَنتِ، يا لَيْلَ، أَنتِ أَجملُ رؤيا   صبَّها في ٱلعُيونِ حُلْمٌ عَجيبُ
ما رأَى ٱلنَّاسُ منذ حوَّاءَ حسْناً   فيهِ هذا النَّدى وهذا اللهيبُ
أَيُّ لونٍ! كَأَنَّهُ ٱلصُّبحُ فيه   منْ بَقايا ٱلفَجرِ ٱلعَميقِ شُحُوبُ
أَغرَقَتْهُ عيناكِ في مُبهمَاتٍ   هيَ من روحِكِ الخَيالُ ٱلغَريبُ
حينَ تطْفو عَلَيْهِ أَخيلَةُ الأَهـ   ـدابِ يخْبو بياضهُ المَشبُوبُ
أَعَلى وَجنَتَيْكِ، يا لَيْلَ، خمرٌ   أَلهبَت فيها النَّدى، أَم حَليبُ؟

أَم على وَجنَتَيْكِ ظِلٌّ الخَطايا مِن بَغيٍّ أَتى إِلَيْكِ يَتُوبُ؟
حُسنُكِ ٱلحُسْنُ... وهو للخَلْقِ إِحسانٌ جميلٌ وما تبقَّى ذُنوبُ

* *

قُلْتِ قُلْ بَعْدُ، وٱبتَسَمْتِ، فَشعَّتْ في كِيَاني مجاهلٌ وشُعُوبُ
وجَرَتْ في دمي ينابيعُ لم يَحْـ يَ على مِثْلِهَا صعيدٌ خَصيبُ
ومن ٱلطَّيرِ جوقةٌ في ضميري غرَّدَت فهْو بي وُجُودٌ طَروبُ
كُلُّ ما بي زها وغنَّى، ولكِنْ في لسَاني تَردَّدَ ٱلعَندَليبُ

* *

قلْتِ في صمْتِكِ الجميلِ حديثٌ ما روى مِثْلَهُ فمٌ موهوبُ
فبروحي سَمِعْتُ ما لم تَقُلْهُ إِنَّهُ في جَوارِحي مكْتوبُ
ثمَّ قبَّلْتِ في يديكِ غُصَيْناً فسَرى فيهِ قلبُكِ المَسْكُوبُ
وبِشَعْري عقَدتِهِ، وعلى عَيْـ ـني طَبَعْتِ، ٱبتسامةً لا تَغيبُ
قلْتُ ماذا؟ فقلْتِ إِكليلُ حُبٍّ هٰكذا يُكْرِمُ الحَبيبَ الحَبيبُ
سَوفَ تَذوي ٱلتِّيجَانُ يا لَيْلَ، وٱلسُّلْـ ـطانُ يذوي جَبينُهُ المعصوبُ
والأكاليلُ سوفَ تذوي وتَبْلى ويَشيبُ الغارُ الّذي لا يَشيبُ
وعلى مفْرقي وقلْبي سيَبْقى غُصْنُكِ الرَّطبُ وهو حيٌّ رَطيبُ

٢

— ... ثمَّ ماذا؟

— أَحبَّها وأَحبَّتْهُ وماتا على هوىً وتَلاقِ
لم تَخُنْ فيهِ بَعْلَها فَتريستْـ ـانُ وإيزولتُ أَشرفُ ٱلعُشَّاقِ
سُقِيَا خمرةَ الرُّقى، وخلودُ الـ ـحُبِّ في ذٰلكَ ٱلشَّرابِ الرَّاقي
عصَرَ السِّحْرُ روحَهُ، كلُّ مَن يَشْـ ـرَبُ منْهُ، يهوى إلى الأَرماقِ
ودرى بَعْلُها، ولَم يكُ يدري أَيّ خمرٍ تجول في الأَعراقِ
وإذا بالوشاةِ كَالسُّمِّ يَنْدَسّـ ـونَ من قُزمةٍ ومن عملاقِ
فرمى بَعْلُها بهَا في قطيعٍ أَبرصٍ من عَبيدِهِ لتُلاقي...
غيْرَ أَنَّ الحَبيبَ أَنقذَها منْـ ـهُ وفرّا إلى مكانٍ واقِ
وهما في أَلَذِّ عيشٍ أَتى القُز مةُ «أغرين»، صائنُ الأخلاقِ...
قالَ رُدَّ الذي سَرَقْتَ، فما لم يُرْتَجَعْ، لا خَلاصَ للسرَّاقِ
فأجابَ ٱلحَبيبُ إنَّ ضَميري مُطْمَئِنٌّ صافٍ كَهٰذي السَّواقي
أَنتَ لم تَدرِ أَيَّ خَمرٍ شَربْنا أَيَّ كأْسٍ منَ السَّماءِ دُهاقِ
هو أَلقَى بِها إلى دَرَكِ البُر صِ فَأَنْهَضتُها إلى آفاقي
إنَّ إيزولتَ لي! ...

وغابَ الحَبيبا نِ وراءَ الصُّخورِ والأَوراقِ

— ثمَّ ماذا؟

— ماتا! وإذْ شوهدا في الـ ـغابِ مَيْتَينِ في أَعَفِّ عِناقِ
دُفِنا، كُلّ عاشِقٍ في ضَريحٍ إنما المَوتُ لم يكُنْ لِفراقِ

فرأى النَّاسُ في الصَّباحِ على القَبْـ ـرَيـنِ قوساً تَمتدُّ في إشراقِ
تَجْمَعُ ٱلعاشِقَينِ في غَمْرَةِ الزَّهْـــرِ وفي نَشْوَةٍ مـنَ الأَشواقِ

* *

تِلْكَ، يا لَيْلَ، قِصَّةُ الحُبِّ والمو تِ، أَتَتْنا منَ العُصورِ ٱلعِتاقِ
ويـراهـا أُسطورَةً كُـلُّ قَـلْبٍ لم تُحَرِّكْهُ خَمْرُ ذاكَ ٱلسَّاقي
كُلَّ قَلبٍ لا يَشربُ الدَّمُ في الحُـ ـبِّ ولا يرتوي من الأَعماقِ
قلْتِ هٰذا ٱلطِّلى عَصَرناهُ منّا وشَرِبْـنـا رُقـاهُ في الميـثـاقِ
فـالجَمالُ الـذي يسيـلُ علَيْنا ما طفَـا مثلُه على أَحداقِ
كُـلُّ مـا حـولَـنـا جـمـيلُ غَنِّـني تُـخصِبُ ٱلـحُـقُولُ
يَدْفقِ ٱلنُّور والسُّيُولُ

* *

أَلسَّما مُصْـــحَفٌ سنيٌّ والـرُّبـى مُـتْحَفٌ غنيٌّ
والْـمَسَـا وٱلنَّسيـمُ عِرقٌ جـال فـيـهِ هـوىً نَقِيٌّ
وٱلـغُصـونُ الـتي تميــلُ كُــلُّـهـا أَلسُنٌ تـقـولُ
كُلُّ ما حولَنا جميلُ
ألسَّما جـمَّـلَتْ بِـنَـا مـا أَقـامَـتْـهُ حولَـنـا
كُلُّ ما حَولَنا لَنا

* *

نحنُ في الـعَاشِقِـينَ عيدُ حَدَثٌ في الهوى جديدُ

حُبُّنا لن نُفيقَ منْهُ حُلُمٌ ما له حُدودُ
نحنُ مستَودعُ ٱلسَّنا كُلُّ ما قامَ حولَنا
جمَّلَتْهُ ٱلسَّما بنَا
يا حبيبي، فمُ ٱلجَبَلْ قبَّلَ ٱلشَّمسَ فٱشتَعَلْ
قلبُهُ من لَظَى ٱلقُبَلْ

* *

هذه ساعةُ ٱلمَغيبِ ساعةُ الحُبِّ، يا حبيبي
آخرُ النُّورِ في الذُّرى أَوَّلُ النُّورِ في القُلوبِ
زَبَدُ الحُبِّ في المُقَلْ ذابَ وٱغْرورَقَ العَسَلْ
هٰذهِ ساعةُ ٱلغَزَلْ

٣

ذلكَ اليومُ كَيْفَ كانَ وصارا كَانَ بَرْداً وصارَ قاراً ونارا
قُلْتِ، إذ جنَّدَتْ شَرائِعَهَا الأَرضُ علينا، لن يبْلُغوا الأوطارا
فٱلنَّعيمُ الذي خَلَقْناهُ فينا وسَقَتْهُ السَّماءُ لنْ يتَوارى
إن يَكُنْ جاءَ من جهنّم خطبٌ فلِكَي يَخْبُرَ الهوى الجبَّارا
يا حبيبي، سيَملأُ الحُبُّ سجْني فلْيَشيدوا الحُصونَ والأَسوارا
وسأَبنيكَ فيهِ جسْماً وروحاً وحَناناً وعِفَّةً ووَقارا

أَبِوَسْعِ السُّجونِ أَنْ تَحرُمَ القَلْـ ـبَ رؤاهُ وتَحْجُبَ التّذْكارا؟
سأُنادي في عُزْلَتي كُلَّ غيمٍ كُلَّ عِطْرٍ سرى وطَيْرٍ طارا
خَبِّري الأرضَ يا عُطورُ ويا غَيْـ ـمُ، ويا طَيْرُ، وٱنشُري الأَسرارا
خَبِّريها أَني أُحبُّ حبيبي خَبِّريها أَني أُحبُّ جَهارا
خبِّري الأَرضَ، خَبِّريها وقولي إنَّ كُوخاً أَشدُّ منْها جدارا
إنَّ بيتاً على الجِبالِ بَنينا هُ لتَأْبى ٱلسَّماءُ أَن يَنْهارا
يا حبيبي، كمَا حييتُ سأحيا إنَّ بي من نعيمِكَ ٱستِمرارا
وعلى كُلِّ شَفرَةٍ من جُفوني منْكَ عِرْقٌ يُحرِّقُ الأَبصَارا
كُلَّما غرَّقَ الظَّلامُ عُيوني أَطلَعَ الحُبُّ في دمي أَنوارا

غلواء

الطبعة الأولى

١٩٤٥

كتبت «غلواء» بين ١٩٢٦ و ١٩٣٢ وليس فيها من حياة المؤلّف، في مطلع شبابه، إلّا شطر ضئيل، فهي في مجموعها من صنيع الخيال لا من صنيع الواقع.

وعبثاً يحاول القارئ، ولو طال الزمن ومهما يطل، أن يجد في «غلواء» مستنداً لظنٍّ أو موضوعاً لاجتهاد. فهي حياة جماعة لا حياة فرد، هي الحياة وليست حياة، هي قصيدة لا تاريخ.

تشرين الثاني ١٩٤٥

العهد الأول:

المريضة

١

مَا أَسلَمَ القَلْبَ وَأَصْفى السَّمَرَا وَأَهنأَ الشّتاءَ في تِلْكَ القُرى
وأَطْوَلَ الـلّـيْـلَ بِـهِ وَأَقْصَرا
تَجْرِي اللّيالي عَذْبَةً كَالسّاقِيَهْ يُضَـنُّ مِـنْـهـا بِـالـلّيالي البَاقِيَهْ
كَـأَنَّـهـا بَـقِـيَّـةٌ مِـنْ عَـافِـيَـهْ
في لَـيْـلَـةٍ لِطُـولِـهَـا وَسنَانَهْ وَالأَرضُ مِـمّا شَرِبَتْ نَشْوانَهْ
عَـادَ فَـأَلْـفَـى أُمَّـهُ سَهْـرانَـهْ
فَقَالَ: «ما عَوّدَكِ اللّيلُ السّهَرْ لَـمْ يَبْقَ إِلّا سَاعَتَانِ للسَّحَرْ
... أقرَأُ في وَجْهكِ، يا أُمِّ، خَبَرْ
غَلْواءُ؟ ما حَلّ بِهَا؟... شَقِيّهْ! أَمَـا تَبَـقَّـى لِـلـرّجَـا بَـقِـيّهْ؟
... مِسْكِينَةٌ!»

— وَيْلُ أمِّها، صَبِيّهْ!

وَحَاوَلَ النّوْمَ بِدُونِ جَدْوَى كَأنَّ في عَيْنَيْهِ قَلْباً يَهْوى
وَقَلْبُهُ كَانَ بَرِيئاً خِلْوَا

وانْتَقَلَ انْتِقَالَةً عَجِيبَةْ مِنْ أَلَمِ الرُّوحِ إلى غَيْبوبَةْ
كَشُعْلَةٍ في نَفْسِهِ مَشْبوبَةْ

طَوْراً يَرَى غَلواءَ في صِبَاهَا تَشِعّ في وِجْدانِهِ عَيْنَاها
مَعْقودَةَ الحُسْنِ على رَيّاهَا

وَتَارَةً في كَفَنٍ مُلْتَفّهْ يُسَرِّحُ المَوْتُ عَلَيْها كَفّهْ
بِحَسْرَةٍ عاطِفَةٍ وَلَهْفَهْ

بَارِزَةً مِنْ فَمِهَا الأسْنانُ مُزْرَقّةً كَأَنَّها دِيدانُ
وَاللّثَةُ الحَمْراءُ زَعْفرانُ

ذَاتَ شُحُوبٍ رَاعِبٍ رَهيبِ كَأَنَّهُ لَوْنٌ مِنَ الذُّنوبِ
أوْ نَفَسٌ مِنْ صَدْرِهَا المَكْرُوبِ

وكَانَتِ الظّلْمَةُ في أشْجَانِ وَالرّيحُ كَالمِبرَدِ في الأَبْدانِ
واللّيلُ فيها كَضَميرِ الجَاني

وَلَمْ يَكَدْ مِنْ حُلْمِهِ يُفيقُ حَتّى اعْتراهُ خَدَرٌ عَمِيقُ
وَجُنَّ في دِمَاغِهِ العُرُوقُ

فَأَبْصَرَ المَريضَةَ المُحْتَضَرَةْ مَسْدولةَ الذّوائِبِ المُبَعْثَرَةْ
جِنّيَةٌ هَائِمَةٌ في مَقْبَرَهْ

* *

وَحَـلَّ في أهْـدابِـهِ تَـابُـوتُ
في قَـلْـبِـهِ صَـبِيّـةٌ تَـمُـوتُ
تَـمُـوتُ في غَـيْـبوبَـةٍ وَسَكْرَةْ
لـهَا مِنَ العُمْـرِ ثَمَاني عَشْرَةْ
وَعِـنْـدَمـا أَفاقَ مِـنْ رُؤيـاهُ
وَحَـدّقَتْ إلى الـدُّجَـى عَـيْنَاهُ
رَأى نِيَاماً كُلَّ مَنْ في الدّارِ
إلّا عُـيُـونَ الـهِـرِّ ذاتَ النّارِ

٢

أَمِنَ العَدْلِ ، خَالِقَ الأرْواحِ ، أنْ يَغيبَ الجَمَالُ قَبْلَ الصَّبَاحِ ؟
أَمِنَ العَدْلِ أَن يُرَى القَلْبُ عَطشَا نَ وَخمْرُ القُلُوبِ في الأَقداحِ ؟
أَمِنَ العَدْلِ أنْ تَجُولَ عُيُونٌ في ظَلامٍ والزَّيتُ في المِصْباحِ ؟
إنْ تكُنْ تَحرِمُ الطّيورَ سَمَاهَا فَلِماذَا خَلَقْتَ رِيشَ الجَنَاحِ ؟

* *

وتَنَاءَتْ عَيْناهُ في الشفَقِ الأخْضَـ ـرِ فَـانْـحَـطّـتَا عَلى فَلّاحِ
يَحْرُثُ الأرْضَ هَادِئاً مُطْمَئِنّاً فَـيَشُـقُّ الأَثْلامَ كَـالـجَـرّاحِ

* *

قَالَ : طُوبَى لَهُ وطُوبَى لِنَفْسِهْ ما أَلَذَّ الصَّفاءَ في مَاءِ كَأْسِهْ

مَا أَعَزَّ الأعْشابَ حَوْلَ سَواقيـ ـهِ وأغْـناهُ في قَـنَاعَةِ بُـؤسهْ
لا يَرَى غَيْـرَ حَقْلِهِ إنْ أطَلَّ الـ ـفَجرُ أوْ أقْبَلَ المَسَا غَيْـرَ أُنْسِهْ
جَاهِلٌ يَجْهَلُ القِراءَةَ في الأَسـ ـفَـارِ لَـكِـنَّـهُ حَـكيـمٌ بِـفَأسِهْ
غَدُهُ مِثْلُ يَوْمِهِ، ليسَ يَغْشا هُ شَقَاءٌ ، ويَومُهُ مِثْلُ أَمْسِهْ

* *

لَـيْتَ لي قَـلْبَـهُ الـخَـليّ
لَيْتَ في الرّوحِ لي تُقَاهْ
لَـيْتَ في مُـقْـلَتَيَّ لي
مُـقْـلَـتَيْهِ ... وَاحَسرَتاهْ !
فَـأَرى الصّـبْـحَ يَـنْجَلي
عَـنْ شُعـاعٍ مِـنَ الحُلي
ذَهَـبِـيٍّ مُـكَـلَّـلِ
بِـلُـجَـيْـنٍ مِـنَ الـمِـيَاهْ
وَأَرى اللهَ كُـلّما
أُرْسِلُ الطّرْفَ في السَّمَا
إنَّ فِـيـهَا لِـمَـنْ سَمَـا
بـالـتُّـقَى صُورةَ الإلَـهْ

القصّة

١

غَلْواءُ— ما أحْلى اَسْمَها المِعطَارا—
صَبِيّةٌ تَغْبِطُهَا العَذَارَى
لا يَستَطيعُ شَاعِرٌ أنْ يُبْدِعَا
قَصيدَةً أجْمَلَ مِنْها مَطْلَعَا
تَصَوّرِ الأزهَارَ في نَوّارِ
تُنْعِشُها اَرْتعاشَةُ الأنْوارِ
تَصَوَّرِ النّسيمَ في الصَّبَاحِ
يَهِزُّ سَاقَ الفُلِّ وَالأَقَاحِ
تَصَوَّرِ السّماءَ في رُوائِهَا
كَأَنَّها الأحْلامُ في صَفَائِها
تَصَوَّرِ الأَعْشابَ في الجِبَالِ
تَحْلُمُ في مَهْدٍ مِنَ الظِّلالِ

تَصَوَّرِ الرَّابِيَةَ الجَمِيلَهْ
لَوْنَهَا ظِلٌّ مِنَ الخَمِيلَهْ
وَكُومَ الثَّلْجِ عَلى الرَّوابي
تَطْفُو عَلَيْها صُفْرَةُ الغِيَّابِ
وَٱنظُرْ أخيراً نَظْرَةً سَرِيعَهْ
مُخْتَلَفَ الجَمَالِ في الطَّبِيعَهْ
تَعْرِفْ إذاً مَعْرِفَةً عَلْياءَ
كَيْفَ السَّماءُ أبْدَعَتْ غَلْواءَ

* *

وَكَانَ في صُوَرٍ لهَا قَرِيبَهْ
أُعْطِيَتْ ٱسمَ الوَرْدَةِ الحَبِيبَهْ
جَمَالُهَا يَحْمِلُ للْجُنونِ
وَمِيضَةَ الشَهْوَةِ في العُيُونِ
تَشْعُرُ، مِنْ جَسَدِهَا المُشْتَعِلِ،
في كُلِّ عِرْقٍ بِدِماءِ رَجُلِ
تَصَوَّرِ البُرْكانَ في ثَوْرَتِهِ
تَنْقَذِفُ النّيرانُ مِنْ فُوهَتِهِ
كَالمَرأَةِ البَغِيِّ في مُقْلَتِها
عُنْصُرُ نَارٍ قُدَّ مِنْ شَهوَتِها

تَصَوَّرِ المَوْتَ بِنَابِ أفْعى

مُريبَةٍ بَينَ زُهُورٍ تَسْعَى

تَظُنُّها خِلالَ وَهْجِ النُّورِ

سَاقِيَةً تَنْسابُ في الزّهورِ

تَصَوَّرِ المَصدُورَ في خَدّيْهِ

تَوَرُّدٌ يَطْفو الصّبَى عَلَيْهِ

تَخالُهُ الرّبيعَ عِنْدَ فَجْرِهْ

إنْ أَنتَ لَمْ تَسْمَعْ سُعالَ صَدْرِهْ

وَرَجُلاً غَصَّ بِبَلْعِ رِيقِهْ

فَٱستَنْجَدَ القَطْرَةَ في إبريقِهْ

وَلَوْ دَرَى أنّ هُنَاكَ عقْرَبْ

لآثَرَ الغَصَّ على أَنْ يَشرَبَ

وَٱنظُرْ أخيراً نَظْرَةً سَريعَهْ

مُخْتَلَفَ الشّرورِ في الطَّبيعَهْ

يَبْدُ لَكَ المَقْتُ إذاً، فتَعْلَمْ

كَيْفَ أرادَتْ «وَرْدَةً» جهَنَّمْ

* *

وَرَغِبَتْ غَلْواءُ أنْ تَزُورَا

أُمَّ الجُدودِ الأقْدَمينَ صُورَا

فَسَافَرَتْ يَخْفِرُها الفَتَاءُ

وَحُسْنُهُ — تَبارَكَتْ غَلْواءُ

....

....

....

فِينِيقيَا وَمَجْدُها المُشَيَّدُ

ومُلْكُهَا المُعَظَّمُ المُؤيَّدُ

أميرةُ الفُنُونِ والتِّجَارَهْ

ومَنْشَأُ العُلُومِ وَالحَضَارَهْ

سُلْطَانَةُ البِحَارِ وَالأَسفَارِ

مَليكَةُ البِرْفيرِ وَالنُّضَارِ

لُؤلُؤةُ العُرُوشِ وَالتِّيجَانِ

ومَطمَحُ اليُونَانِ وَالرّومانِ

أَمْسَتْ بَقَايا وَطَنٍ مُدَمَّرِ

مِنْ بَعْدِ عِزٍّ شَامِخٍ مُنَوَّرِ

قَائِمَةً كَالطَّلَلِ المَهْجُورِ

علَى مِياهِ شَاطِئٍ في صُورِ!

٢

عَلَى ذُرْوَةٍ بَينَ أطلالِ صُورْ يُحيطُ بِهَا شَجَرٌ وَصُخُورْ
يَقُومُ بِنَاءٌ كعُشِّ النُّسُورْ

*

بِنَاءٌ يَرَى العَابِرُونَ عَلَيْهْ نَبَاتاً تَرامَى عَلى جَانِبَيْهْ
فَغَطَّى بِعَوْسَجِهِ سُدْفَتَيْهْ
كَرَمْسٍ قَديمٍ لِمَيْنٍ وَزُورْ تَكَلَّلَ بالشَّوكِ لا بالزُّهُورْ

*

طَلاهُ الظَّلامُ بِلَوْنِ دُجَاهْ لِكَثْرَةِ مَا لامَسَتْهُ خُطَاهْ
وَمَرَّ عَلَيْهِ الضّيا فَطَلاهْ
كَأَنِّي بِهِ بُرْجُ جِنٍّ وَحُورْ تَرَدَّدَ بَينَ ظَلامٍ وَنُورْ

*

إذا النورُ لَوَّنَهُ في السَّحَرْ وَمَدَّ عَلَيْهِ ظِلالَ الحَوَرْ
تَراءَى كَطَيْفٍ خِلالَ الشَّجَرْ
أتَى مِنْ دَيَامِيسِهِ لِيَزُورْ بَقَايا ذَراريّ تِلْكَ البُدُورْ

*

وَحِينَ يَسيلُ اصْفِرارُ المَغيبْ عَلى جَانِبَيهِ بِشَكْلٍ كَئيبْ
يَبينُ كَهَيْكَلِ عَظْمٍ مُريبْ
أَبَى أَنْ تُوَسِّدَهُ في القُبورْ —غَداةَ تَمَرَّدَ— أيْدي الدُّهُورْ

*

بِـــنَـــاءٌ تُـــزَنِّـــرُ أسْوارَهُ خَـــرائِبُ تَـــعْـــرِفُ أسْرارَهُ
فَقَدْ عَاشَتِ الدَّهرَ سُمّارَهُ
فَأَصْغِ لِنسأَلْ عَنْهُ الصّخُورْ أَلِـلْـحُبِّ شُيِّـدَ أمْ للشّرورْ

*

أَيَا سَائِلَ الصّخرِ عَنْ جَارِهِ دَعِ الصخْرَ يَنْطِقْ بِأَخْبَارِهِ
فَـلَـيْسَ ضَـنـيـنـاً بِـأَسرارِهِ

*

بَنَاهُ الجَلالُ وشَيَّدَ مَجْدَهْ وَقَدْ كانَ عَهْدُ الجَبابِرِ عَهْدَهْ
وَكَانَ الزَّمانُ المُسَوَّدُ عَبْدَهْ
تُـــنَـــارُ الـــلّـــيـــالي بِـأَنوارِهِ وتُـــزْهَى بِـــأَعْـــيَـــادِ سُمّـــارِهِ

*

بَنَتْـهُ يَدُ الفاتِحينَ الأُلَى أهَـابُوا بِـفِينِيقِيَا لِلْـعُلَى
فَأَمْسى بِهِمْ شَعْبُها الأَوّلا
يَـــقُودُ الـــزّمـــانَ بِـــأَبصـارِهِ ويُسْـــجِـــدُهُ تَـــحْتَ أسوارِهِ

*

وَكَـانَتْ أَمِـيـرَتُهُ يَوْمَ كَانْ أَمِيـرَ القُصُـورِ بِـذَاكَ الزَّمانْ
كَحُورِيَّةٍ مِنْ عَذَارَى الجِنَانْ
مُـــعَـــطَّـــرَةٍ مِـــثْـــلَ أشْجَـارِهِ بِدُهْـنِ الـلُّـبـانِ ، وَأسحارِهِ

*

وَهَبّتْ على القَصْرِ رِيحٌ سَمُوم   ذَرَتْ مِنْهُ أنْوارَ تِلكَ النّجومْ
كمَا ذَرَتِ النّارُ شَعْبَ سَدُومْ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَجْدِ آثارِهِ   سِوَى غُرَفَاتٍ لِتَذْكَارِهِ

*

تَرَى البُومَ يَخْلُفُ أرْبَابَهَا   ويَقتَحِمُ النّتْنُ أبْوابَهَا
وَيَفتَرِشُ السّوسُ أَخْشَابَهَا
كَشَعْبٍ تَخَلّى لأشْرارِهِ   فَقَامَ الدّمَارُ لإنْذارِهِ

*

لقَدْ سَلَّطَتْ فُوّهَاتُ الجَحِيمْ   عَلَى صُورَ ناراً وسُخْطاً عَظيمْ
كَنَارِ يَهُوذا وَأُورشَلِيمْ
وَأَبقَى الزّمانُ بِأَسفَارِهِ   مِنَ المجْدِ ذِكْرى لِزُوَّارِهِ

*

تَأَمَّلْ، تَأمَّلْ بِرُوحِكَ زُهْدَهْ   وَكَيْفَ تُبيدُ صُرُوفَ اللّيالي
أمِيرَ القُصُورِ وتَتْرُكُ بَعْدَهْ
بَقَايا مِنَ الغُرَفاتِ خَوالي   خَوالي... لَوْلا «الحَبيبَةُ وَرْدَه»!

٣

فِي لَيْلَةٍ تَنَبَّهتْ غَلْواءُ وَٱلبَدرُ في مَخْدَعِهَا إِنَاءُ
تَسيلُ مِنْهُ فِضّةٌ بَيْضَاءُ

فَأَرْهَفَتْ مِسْمَعَهَا المَطْرُوقَا فَسَمِعَتْ تَنَهّداً عَمِيقَا
يَصْدُرُ عَمّا يَنْهُشُ العُرُوقَا

وَأَرْسَلَتْ نَظْرَةَ بَرٍّ طَاهِرِ فَهَالَهَا في المَخْدَعِ المُجاوِرِ
فَاجِرَةٌ علَى ذِرَاعِ فَاجِرِ !

. . . .
. . . .
. . . .

مَا أَنْتِ يَا وَرْدَةُ تِلْكَ الوَرْدَهْ بَلْ أَنْتِ مِنْ أَشْواكِهَا مُسوَدّهْ
أَمِيرَةَ الشهوَةِ ، أَنتِ عَبْدَهْ !

. . . .
. . . .
. . . .

أيُّ خَيَالٍ حَلَّ في غَلْواءَ أيُّ رُؤىً مُحْرِقَةٍ سَوْداءَ
تَعَلَّقَتْ أجْفانَهَا العَذْراءَ؟

فَهَرَبَتْ إلى ضِفَافِ البَحْرِ وَطَوَّفَتْ بَينَ بَقَايَا الدّهْرِ
مِنْ خِرْبَةٍ، لِرُجْمَةٍ، لِقَبْرِ

وَكَانَتِ المِيَاهُ وَالصّخُورُ قَائِمَةً مَا بَينَهَا القُبُورُ
حَتى السّكونُ حَوْلَها مَسْحُورُ

وَالمَوْجُ بَعْدَ المَوْجِ كَيْفَ ذَابَا مُستَسْلِماً عَلى الحَصى مُنْسَابَا
يُقَبِّلُ القُبُورَ وَالتّرابَا

كَأَنّهُ جَمْعٌ مِنَ العَذارى أوْ ذِكْرَيَاتُ عَاشِقٍ تَوَارَى
تَهْمِسُ في أُذْنِ الرّدَى أسْرارَا

وَلِلْمِيَاهِ زَبَدٌ كَثيفُ يُنْسَجُ مِنْهُ كَفَنٌ خَفيفُ
عَلَيْهِ مِنْ نُورِ الدُّجَى حُرُوفُ

وَسَمِعَتْ غَلْواءَ طَيْرَ البُومِ يَنْعَقُ كَالشّؤمِ على الرّسومِ
مُدَنِّساً نَقَاوَةَ النّسيمِ

وَٱستَيْقَظَتْ في نَفْسِهَا المَحْمومَهْ مِنْ «وَرْدَةَ الحَبيبَةِ» الأثيمَهْ
صَارِخَةً ، أخْيِلَةُ الجَريمَهْ

وَدَبَّ في أَعْضائِهَا النّحِيفَهْ قَفْقَفَةٌ وَرِجْفَةٌ عَنيفَهْ
حُمّى سَرَتْ في جِسْمِهَا خَفِيفَهْ

وَٱستَفْحَلَتْ كَالشرِّ حِينَ يَبْدأ فَهْوَ صَغيرٌ إنّما لا يَفْتَأ
حتّى يَصيرَ نَقْمَةً لا تَبْرَأُ

. . . .

. . . .

وَمَــرَّتِ الأَيَّــامُ وَالـلّـيـالي سَوْدَاءَ بِـالـفِـتْـنَـةِ وَالـجَـمَـالِ

فَأَصْبَحَتْ غَـلْواءُ كَـالـخَيَالِ

* *

وَبَـرَزَتْ عِـظَامُها في الجِسْمِ

مُصْطَفّةً عَظْماً إزَاءَ عَظْمِ

كَـأَنَّـهـا أَقْلامُ الاعْـتِلالِ

تَكْتُبُ في صَحِيفَةِ الآجالِ

وَسَالَ في وَجْنَتِهَا الذّبُولُ

كَنَجْمَةٍ هَمَّ بِهَا الأُفُولُ

وَٱمْتَقَعَ الجَبِينُ بِٱصْفِرارِ

كَـأَنَّـهُ أَواخِـرُ الـنّـهَـارِ

في لَـيْـلَةٍ شَديدَةِ الغُسُوقِ

تَذَكّرَتْ حَيَاتَهَا في «الزّوقِ»

وَذَكَـرَتْ مَـواكِبَ الضّـبَـابِ

تَمْتَدُّ كَالحُلْمِ عَلَى الهِضَابِ

وَالشَّجَرَ الأَخْضَرَ وَالسّنابِلا

تَـبْسُطُ لِلطَّبيعَةِ الأَنامِلا

وَذَكَرَتْ أخْيِلَةَ المَسَاءِ
وَرَنَّةَ الأجْراسِ في الهَواءِ
ودَوْحَةَ الكَنيسَةِ الحَقيرَهْ
وبَابَهَا الصَّغِيرَ، وَالفَقِيرَهْ
وَصُفْرَةَ الشَمْسِ عَلى الجِبَالِ
وَلَعِبَ الأطْفالِ في الظّلالِ
واحتَشَدَتْ أخْيِلَةُ التّذْكَارِ
تَطُوفُ أسْراباً عَلى الجِدَارِ
وَجَحَظَتْ في صَدْرِهَا الآلامُ
كَجَفْنِهَا المَحْمومِ لا تَنَامُ
وَحَبَكَتْ في مُقْلَتَيْها الحُمّى
بِقَلْبِهَا العَفيفِ ذَاكَ الإثْمَا
وَانْتَقَلَ الإثْمُ بِهَا انْتِقالَهْ
أجْرَتْ عَلى خَيَالِهَا خَيَالَهْ
فَعَظُمَ الوَهْمُ، وَفي الأوْهامِ
أفْتَكُ بِالعَقْلِ مِنَ السِّرسَامِ
وَقَامَ في أحْلامِهَا المُعَذَّبَهْ
رُؤيَا كما لو كَانَتِ المُرْتَكِبَهْ:

الرؤيا

عَيْنُ مَنْ هَذِهِ التي لا تَنَامُ؟ هِـيَ عَينٌ، ضِيَاؤُهَا الآثَامُ!

. . . .

آلَمَتْهُ ذِكْرى، فَتاهَ وَفي عَيْـ ـنَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ الأثيمِ حُطَامُ
وَعَلى الشّاطِئِ الكَئيبِ قَتامٌ وَعَلى صُورَ وَحْشَةٌ وَقَتَامُ
حَاوَلَ النّومَ غيرَ أنّ طُيُوفاً جَاوَرتْ عَيْنَهُ وَفِيهَا أنْتِقامُ
فَنَبَا عَنْ فِراشِهِ كَأَثيمٍ أَيقَظَتْهُ مِنْ نومِهِ الأحْلامُ
إنّ عَينَ الأثيمِ جُرْحٌ عَمِيقٌ قَذِرُ الجَانِبَينِ، لا يَلتَامُ

. . . .

وتَراءَتْ لَهُ مَجَاري الوَادي كَسَرِيرٍ يَغيمُ في الأَبْعَادِ
فَبَكى ذَاكِراً عُذُوبَةَ مَاضِيـ ـهِ وَحُبّاً مَضَى مَعَ الأوْرادِ
قَالَ: «مَا حَلّ بِاللّيالي الخَوالي كَيفَ عَاثَتْ بِهَا يَدُ الجَلّادِ؟»
وَتلَوّى يَصِيحُ: «وَيْحَ ضَميري لَيْسَ هَذا الجَلّادُ إلّا فُؤادي!»

طَرَحَتْكَ السَّماءُ عَنْ قَلْبِ غَلْوا ... ءَ كَفَرْعٍ رِجْسٍ مِنَ الأجْسادِ
خَائِنَ الحُبّ إنَّ حُبّكَ دُونٌ ... فَٱحتَجِبْ فِيهِ عَنْ عُيُونِ العِبَادِ
ثُـمّ سَادَتْ سَكِـينَةٌ وتَوارَتْ ... جُزُرُ النُّورِ في الفَضَاءِ الرّمَادي

* *

لَـمْ يَرَ الفَجْـرَ غَاسِلاً بِضِياهُ ... هَضَـبَـاتِ الـمَدِيـنَةِ الـمَرْدُومَهْ
وَقِبَابَ الأبْراجِ يُوقِظُهَا النو ... رُ كَجِـنٍّ عَلى قُبورٍ قَدِيمَهْ
فَرَّ لَمْ يَلتَفِتْ كَشَعْبِ سَدُومٍ ... حِينَمَـا أَحْرَقَ الإلَهُ سَدُومَهْ

. . . .

مُزِجَ النُّورُ بالدّجَى حِينَ خَطَّ الـ ... ـفَجرُ في صَفْحَةِ السّماءِ رُسُومَهْ
كَضَمِيرِ الأَثيمِ يَشْمَلُهُ الصّفْـ ... ـحُ وتَبْقى مِنْ وَخزِهِ جُرْثُومَهْ
فأَطَلَّتْ غَلْواءُ مِنْ كُوّةِ الخِدْ ... رِ وفي نَفْسِهَا شَجُونٌ عَظِيمَهْ
قَالَتْ: «الفَجْرُ شَاحِبٌ مِثْلُ وَجْهي ... وَأَلِيـمٌ سَاهٍ كَنَفْسي الألِـيمَهْ
أَيّها العُمْـرُ، كَمْ تَعُدّ صَبَاحاً ... بَعْدُ لي... في أَيّامِكَ المَحْطُومَهْ؟»

العهد الثاني

عذاب الضمير

١

تَرامَى الّليلُ كَالهَمِّ الثّقيلِ   يَجُرُّ ذُيُولَ مِعْطَفِهِ الطّويلِ
وَيُبْرِزُ في مَشَارِفِهِ نُجُوماً   بِلَونٍ بُرتُقاليٍّ ضَئيلِ
وَكَانَتْ زُوقُ مِيكائيلَ تُصْغي   إلى هَمْسِ النّياسِمِ في الحُقُولِ
فَتَبْسِمُ عَنْ كَواكِبِهَا النّحيلَهْ
وتَحْلُمُ في جَواذِبِهَا الجَمِيلَهْ
بِعَهْدٍ — مَرّ في الدّنْيا — جَميلِ

* *

وَكَانَتْ قُبّةُ الجَرَسِ المُقيمَهْ   عَلى عَمَدَيْ كَنِيسَتِهَا القَديمَهْ
تَقَطّعُ في السّماءِ وَقَدْ تَرَامَى   عَلَيْهَا النّورُ أَفْلاذاً سَقِيمَهْ

كَطَيْفٍ يَخْفِرُ الأَمْواتَ لَيْلاً   وَيَبْقى سَاهِراً سَهَرَ الأُمُومَهْ
وَكَانَ اللّيْلُ مُنْفَطِرَ الشُّعورِ
أَحَسَّ لَهيبَ سُكّانِ القُبُورِ
فَلَطَّفَ في مَعَابِرِهِ نَسِيمَهْ

* *

وَكَانَتْ أَغْصُنُ الدّوْحِ القَديمِ   يَهِزُّ رُؤوسَهَا مَرُّ النّسيمِ
فيُسْمَعُ في الدّجَى مِنْهَا حَفِيفٌ   كَصَوْتِ الوَخْزِ في قَلْبٍ أثيمِ
وَفي الأَكواخِ أقْباسٌ ضِعَافٌ   كَأخْيِلَةِ الكَواكِبِ في الأَديمِ
تُصَعِّدُ مِنْ نَوافِذِهَا الصّغيرَهْ
زَفيراً مِنْ أشِعَّتِهَا الحَقِيرَهْ
كَأَنّ بِزَيْتِهَا بَعْضَ الهُمُومِ

* *

وَفي الأبْعادِ كَانَ يُرَى الخَليجُ   تَمُجُّ مِياهَهُ نُوراً يَمُوجُ
كَلَوحٍ أسْوَدٍ مُلْقىً عَلَيْهِ   إِطَارٌ فيهِ، مِنْ ذَهَبٍ، نَسيجُ
تُدَبِّجُهُ مَصابيحٌ وَزُهْرٌ   لَهَا في المَاءِ مَنْظَرُها البَهيجُ
وَأضواءُ النّجُومِ على الشّواطئْ
إذا ٱمتَزَجَتْ بِأضْواءِ المَرَافئْ
يَكُونُ مِنَ الخَيَالِ بِهَا مَزِيجُ

* *

دَعِ الأبْعادَ في اللّيلِ الجَميلِ   تَنَمْ سَكْرَى مَعَ النُّورِ الضّيلِ
وَخَلِّ أَنَامِلَ النّسَمَاتِ تَلْعَبْ   كَمَا شَاءَتْ بِأَوْراقِ الحُقُولِ
وَدَعْ قَطرَ النّدَى المَخْمُورَ يَسْقُطْ   عَلى جَسَدِ الجَنَائِنِ وَالطُّلُولِ
وَهَيّا بي نَلِجْ قَصْراً صَغيرا
تَرَى المِصْباحَ يَمْلأُهُ شُعُورا
رَسَا في الزُّوقِ مِنْ عَهْدٍ طَويلِ

* *

فَتُبْصِرَ إنْ وَلَجْتَ فَتىً كَئيبَا   مِنَ الإحْسَاسِ يُوشِكُ أنْ يَذُوبَا
إذا أَمْعَنْتَ فيهِ رَأَيْتَ جِسْماً   يَفُورُ كَأَنَّ في دَمِهِ لَهيبَا
لَهُ قَلْبٌ يُرَى في كُلِّ قَلْبٍ   كَأَنَّ اللهَ ذَرَّ بِهِ قُلُوبَا
فَتىً كَالفَجْرِ ألواناً وعُمْرا
إذا أَبْصَرْتَهُ أبْصَرْتَ فَجْرا
يَمُدّ جَمالُهُ ظِلّاً غَريبَا

* *

وإِنْ أَصْغَيْتَ تَسمَعُهُ يَقُولُ   لِوالِدَةٍ أَلَمّ بِها النُّحولُ
لأُمٍّ فَارَقَتْ زَوْجاً حَبيباً   طَواهُ مِنَ الرّدَى لَيْلٌ ثَقيلُ:
«أُحِسُّ لهَا اضْطِراباً في فُؤادي   وَدَمْعاً في حَنَاياهُ يَجُولُ
وَمَا أحْسَسْتُ أمْسِ بِمِثْلِ هذا

فَأمْسي كانَ — لا أدْري لماذا —
جَميلاً ، كُلُّ ما فيهِ جَميلُ !

* *

أَجَلْ ، يا أُمِّ ، صِرْتُ فَتىً شَقِيًّا   يَكَادُ اليَأسُ يُطْفِئُ مُقلَتَيَّا
فَأيْنَ مَضَتْ لَيالِيَّ الخَوالي   وَقَلْبٌ كَانَ في الماضي خَلِيّا ؟
أَرَى غَلواءَ تُعْرِضُ عَنْ هُيامي   وَيَكْتُمُ قَلْبُها سِرّاً خَفِيّا ! »
وتَسْمَعُها تَقُولُ لَهُ : « شَفيقُ
بُنَيّ ، لَقَدْ أَضَلّتْكَ الطّريقُ
فَهَلْ نَبّهْتَ قَلْبَكَ يا بُنَيّا ؟

* *

جَميلٌ ، يَا وَحِيدي ، أنْ تُحِبّا   وتَرْفَعَ لِلْهَوَى عَيْناً وَقَلْبا
وَتَسْمَعَ مِنْهُ أَنْغاماً عِذَاباً   وتَشْرَبَ مِنْ يَدَيْهِ الماءَ عَذْبَا
لَقَدْ أحْسَسْتُ قَبْلَكَ بِاضْطِرابٍ   وَقَاسَيْتُ الهَوَى سَهْلاً وَصَعْبا
وَلَكِنْ لَيس يَنْدَمُ مَنْ تَأنّى
فَغَلْوا ، يا ابْنِ ، أكْبرُ مِنْكَ سِنّا
إذا رَضِيَ الهَوَى فَالعُمْرُ يَأبى

* *

تَأَنَّ ، فَسَوْفَ تَهْوَى مَنْ تُريدُ   وتَهْواكَ العَذَارَى وَالوُرُودُ

فَمِثْلُكَ لا يُجَاوِرُهُ قُنُوطٌ وَمِلْءُ شَبَابِهِ عَقْلٌ رَشِيدُ
أَمَامَكَ ، يَا ٱبنِ ، أعْوامٌ طِوَالٌ وَمِنْ زَهرِ الهَوَى عَدَدٌ عَديدُ
تَأَنَّ ، فَسَوْفَ تَقْطُفُ مِنْهُ زَهْرَهْ
تَكُونُ أَشَدَّ مِنْ غَلْوَاءَ نُضْرَهْ
يُبارِكُ عِطْرَهَا العَهْدُ الجَديدُ . »

* *

فَيُطْلِقُ زَفْرَةَ التّعِسِ الكَئِيبِ وَيَغْرَقُ في دُجَى فِكْرٍ غَريبِ
وَيَذْهَبُ لا يُجيبُ... وَفِي هَواهُ لَظَى شَكٍّ أَشَدُّ مِنَ اللّهِيبِ
وَكَيْفَ يُجيبُ أُمّاً جَفَّ فِيهَا عُصَارُ الحُبِّ في عَهْدِ الغُرُوبِ
— أيَا أُمّي ٱصرفي ذي الكأسَ عَنّي
فَمَا في الحُبِّ شَأنٌ للتأنّي
وَمَا للعُمْرِ شَأنٌ في القُلُوبِ

* *

وَيَذْهَبُ لا يُجيبُ... وَفِي هَواهُ مِنَ الأَشجانِ مَا يُضْني قِواهُ
– دَعي ، يا أُمِّ ، زَهْرَ النّاسِ يَبْسِمْ وَيَنْشَقْ في الوَرَى غَيْري شَذَاهُ
فَلِي في جَنّةِ الأشْواكِ زَهْرٌ غَريبُ اللّونِ لا أَرْضى سِواهُ !

. . . .

. . . .

. . . .

٢

وَشُفِيَتْ غَلْواءُ مِنْ آلامِهَا
لَكِنَّها لَمْ تُشْفَ مِنْ أَوْهَامِهَا !

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

صُبَابَةُ اللّيْلِ عَلى الهِضَابِ
تَزْحَفُ زَحْفَ الهَارِبِ المُرْتَابِ
سَاحِبَةً وِشَاحَهَا الرّمَادي
عَنْ جَسَدِ الأَعْشَابِ وَالأَوْرَادِ
وَبَرَزَتْ جَوَاذِبُ السّهُولِ
عَارِيَةً ، بِلَحْظِهَا الخَجُولِ
وَٱنتَعَشَتْ حُشَاشَةُ النّسيمِ
فَٱرتَعَشَتْ في وَرَقِ الكُرُومِ
وَذَوَّبَتْ أَبْخِرَةُ الأَنْوارِ
في الصّبْحِ أَلْواناً على الأَطْيارِ

بَـراعِـمُ الزّهْـرِ عَلى الآكـامِ
تَـبَسُّـمُ الـرّبـيـعِ للأَيّـامِ
ونَـغَـمُ الـجَداولِ الرّقْراقَهْ
تَـمْـتَـمَـةُ الـطّبيـعَـةِ المُشتَاقَهْ
مَنْ يا تُرى يَكُونُ هَذا الوَلَدُ
في مُـقْـلَـتَـيْـهِ حُلُـمٌ مُشَرَّدُ
كَأنّهُ في جِسْمِهِ الضّعيفِ
وُرَيْقَـةٌ مِـنْ وَرَقِ الـخَـريفِ
لا حُبّهُ يَحْلو وَلا الرّبيعُ
فَـقَـلْـبُـهُ وَعَـيْـنُـهُ دُمُـوعُ !

٣

أَطَلَّتْ مِنَ الشّبّاكِ وَاللّيلُ نَيّرُ ... فَأَبصَرتِ الأوْراقَ تُطْوَى وَتُنْشَرُ
يَغيبُ ضِياءُ البَدْرِ عَنْهَا فَتَخْتَفي ... وَيَظْهَرُ مِنْ بينِ السّحَابِ فَتظهَرُ
فَقَالَتْ : «أَفي البُستانِ ريحٌ لَطيفَةٌ ... تُـبَرِّدُ في نَفْسي لَظىً يَتَسعَّرُ
أَفيهِ خَيالاتٌ أَحَنّ مِنَ الوَرَى ... تُبَدِّدُ عَنّي بَعْضَ مَا أَتذَكَّرُ!»

* *

وَخَفّتْ إلَيْه ، وَٱرْتِعَاشَةُ جِسْمِهَا ... يُلَوِّنُها البَدْرُ الحَيِيُّ المُصَوِّرُ

فَصَادَفَ جَفْنَاهَا الكَسِيرانِ جَدْوَلاً ... تَـخَلَّلَ مَجْـراهُ سُرَادِقُ أَخْضَرُ
وَقَدْ طَفَتِ الأزهارُ فَوْقَ مِيَاهِهِ ... كَحُلْمٍ نَقِـيِّ اللَّوْنِ يَأتي وَيَعبرُ
وَفي حِينَ كَانَتْ تُرْسِلُ الفِكْرَ في الدّجَى ... وَفي نَفسِهَا مَاضٍ يَمُدُّ وَيَجزُرُ
تَـراءَتْ لِعَيْنَيْها طُيوفٌ مُخيفَةٌ ... تَمُجُّ كَأَفْواهِ الأفاعي وتَصْفِرُ!

* *

وَعَادَتْ لِمَأْواها لَدُنْ عَادَ رُشْدُهَا ... إِلَيْها ، وفي الأجفانِ يَأسٌ وَأدمُعُ
وَأَلْقَتْ بِأَيْدي النّوْمِ مَخْمورَ رَأسِهَا ... فَـجَاوَرَ عَـيْـنَيْهَا كَرىً مُتَقَطِّعُ
تَمُرُّ بِهِ الأحْلامُ خَاوِيَةَ الحَشَا ... جِيـاعٌ تُـزَجِّيها طَوائِفُ جُوَّعُ
جِياعٌ يُؤَدّيهَا الخَواءُ إلى الكرَى ... فَتَـأكُـلُ أفْلاذَ العُيونِ وتَشْبَعُ
رموزُ هَوىً يَسْتَرْفِدُ القَلْبَ بُلْغَةً ... إذا جاعَ ، أوْ يُهْوي عَلَيْهِ فَيَبْضَعُ
وَلَمّا طَوى اللّيلُ النّجيُّ وشَاحَهُ ... وَجَـاءَ سَفِـيـرٌ لـلصَّباحِ يُشَيِّعُ
أَفَاقَتْ ، وَقَدْ لَاشَى لَهِيبَ شُجُونِهَا ... سَمَاعُ طُيورٍ في الحَديقَةِ تَسْجَعُ
كَمِجْمَرَةٍ أَفْنَتْ مَدَى اللّيلِ نَارَهَا ... فَمَا حَشْوُها إلّا رَمادٌ مُجَمَّعُ
وَرَنَّ صَدَى الأجْراسِ في كَبِدِ الضّحَى ... يُهيبُ بأرواحِ التّقاةِ ، فَتُسْرِعُ
فَقَالَتْ: «لَعَلَّ اللهَ يَقبَلُ تَوْبَتي ... فما ليَ في الدُّنيا سوى اللهِ مَرجعُ

٤

النّاسُ في المُعْتَكَفِ المُقَدَّسِ   يُعْلُونَ للهِ بَخُورَ الأنْفُسِ
وَلِلنّفُوسِ صَوْتُهَا المَسْمُوعُ

وَأذْرُعُ العَجَائِزِ المُرتَجِفَهْ   كَأَنَّهَا مَسَارِجٌ مُنْعَكِفَهْ
جَفَّتْ عَلى قِمّتِهَا الشّمُوعُ

* *

وَصَلَواتُ الكَاهِنِ القِدّيسِ
تُذيبُ رُوحَ اللهِ في النّفُوسِ
قَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «أبَانَا
أَنْزِلْ عَلى شُعُوبِكَ الغُفرانَا!»
إِذا، بِغَلْوا، كَضَميرِ الجَاني
تَجْمُدُ عِنْدَ لَفْظَةِ الغُفْرانِ

* *

وتَخْفِضُ الرّأسَ إلى الحَضيضِ   ذَارِفَةً مِنْ جَفْنِهَا المَريضِ
بَعْضَ دُمُوعٍ، كَالعَفَافِ، بِيضِ
والعَرَقُ البَارِدُ مِنْ جَبْهَتِهَا   يَرْشَحُ كَاللّهيبِ مِنْ مُهْجَتِهَا
أوْ كَمُذَابِ القَلْبِ مِنْ تَوْبَتِهَا

وَكَانَ في إِحدَى زَوايَا الهَيْكَلِ مُخْتَطَفَ الرّوحِ شَريدَ المُقَلِ
ذُو النّظَرِ المُخَدَّرِ المُشتَعِلِ

* *

فَبَدَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ التِفَاتَهْ
إلى المُصَلّى فَرَأَى فَتَاتَهْ

* *

غَلْواءَ ذَاتَ الأَلَمِ السّرّيّ ذَاتَ الضّميرِ التّعِبِ الشّقِيّ
ذَاتَ الهَوَى المُدَنَّسِ النّقِيّ

تَقْرَأُ في كِتَابِهَا الصّغيرِ كَأَنَّهَا تَقْرَأُ في ضَميرِ
مُعَذّبٍ مُلْتَهِبِ السّطُورِ

وتَارَةً تَرْفَعُ عَيْناً سَاهِيَهْ إِلى البَخُورِ المُتَلاشي
في سَمَاءِ الزّاوِيَهْ

فَتَتَلاشَى مِثْلَهُ أَنْفَاسُهَا في خَلَجَاتٍ وَٱرْتِعَاشِ
مِثْلَ ٱرْتِعَاشَاتِ الفَرَاشِ

في الجَوِّ حِينَ تَنْتَهي أعْراسُها أوْ كَالضَّبابِ في مَسَا الخَريفِ
يَنْحَلُّ في ٱرتِعَاشِهِ الخَفيفِ

فَقَالَ: «مَا تَخْشى؟ تُراها، ما بِهَا يَغْمُرُها، طَوْراً، دُجَى ٱضْطِرابِهَا
وَتَارَةً، تُعْرِضُ عَنْ كِتابِهَا؟»

وَانْتَهَتِ الصَّلاةْ في هَيْكَلِ الإِلَهْ
فَانْصَرَفَ الجُمْهُورْ

وَبَقِيَتْ غَلْواءُ وَالهَمُّ وَالشّقاءُ
في المَعْبَدِ المَهْجُورْ

كَشَمْعَةٍ لَمّا تَزَلْ مُضَوَّأَهْ
بينَ شُمُوعِ الهَيْكَلِ المُنْطَفِئَهْ

٥

كَانَ شَفِيقٌ لَمْ يَزَلْ مُخْتَلِي في الجِهَةِ اليُسْرى مِنَ الهَيْكَلِ
مُفَكِّراً في حُبّهِ المُقْفَلِ

* *

يُسَائِلُ القَلْبَ فَلا يَنْطِقُ
وَالقَلْبُ سِرٌّ في الهَوَى يَخْفِقُ

* *

فَمُذْ رَأى فُلّتَهُ الذّاوِيَهْ غَلْواءَ ذَاتَ الكَبِدِ الدّامِيَهْ
بَاقِيَةً تَضْرَعُ في الزّاوِيَهْ

قَالَ : «أَفِقْ يَا حُبّ مِنْ هَجْعَتِكْ فَسَيّدُ الآلامِ فِي بِيعَتِكْ
أَحَبَّ حَتى مَرْيَمَ الزّانِيَهْ ! »

ثُمّ دَنَا مِنْهَا وَفي مُقْلَتِهْ دَمْعٌ يَطُوفُ الحُبُّ في مَوْجَتِهْ
كَحِطْمَةٍ تُقْذَفُ مِنْ مُهْجَتِهْ

فَانْتَفَضَتْ غلواءُ مِنْ ذُعْرِهَا وَثَارَتِ الأنفاسُ في صَدْرِهَا
كَأَنَّهَا البُرْكانُ في ثَوْرَتِهْ

فَقَالَ : «عفْواً ، هَذِهِ أَدْمُعي تَشْفَعُ ، يَا غلواءُ ، بي فَاشْفَعي
قَطَرْتُهَا مِنْ قَلْبيَ المُوجَعِ

تَحْمِلُ في مَوْجَاتِهَا مِنْ دَمي حَديثَ حُبٍّ لَمْ يَرِدْ مِنْ فَمِ
وَلَمْ يَقَعْ مِنْ قَبْلُ في مَسْمَعِ

أَمَامَ هَذا الهَيْكَلِ الأَطْهَرِ أَمَامَ عَينِ البَائِسِ الأَكبَرِ
أمَامَ شَمْعِ المَعْبَدِ الأصْفَرِ

وَهَذِهِ الأشِعّةُ الذّائِبَهْ مِنْ فِلْذَةِ الغَزالَةِ الشّاحِبَهْ
عَلَى رُخَامِ المَذْبَحِ النَيِّرِ

أَمَامَ أَوْجَاعي ، أمَامَ الأَلَمْ أَمَامَ هَذا الضُّعْفِ ، هَذا السَقَمْ
وَهَذِهِ العَينِ الّتي لَمْ تَنَمْ

أَطْرَحُ قَلْبي لِلْهَوَى مِجْمَرَهْ ! » فَغَمْغَمَتْ غَلْواءُ : «مَا أكْفَرَهْ
هَذا الهَوَى ! يَمْضي وَيأتي النّدَمْ . »

وحَـدَّقَتْ حِينـاً إلى المُغْرَمِ   وَقَلْبُهَـا في صَدْرِهَا المُظْلِمِ
يَمْشِي مِنَ الآلامِ في مَأتَمِ

ثُمّ أَمَالَتْ عَيْنَهـا السّاهِيَهْ   عَنْ عَيْنِهِ الكَئيبَةِ البَاكِيَهْ
وَٱستَغْرَقَتْ في حُلُمٍ مُبْهَمِ

فَقَالَ: «لا، لا تُعْرِضِي فَالشّقَا   أرادَ، يَا غَلْواءُ، أَنْ أُخْلَقَا
أنْ أَعرِفَ الحُبَّ وأنْ أَعْشَقَا

فَأَيُّ سِرٍّ في دُجَاكِ ٱسْتَتَرْ   تُفْشِيهِ عَيْنَاكِ لِهَذي الصُّوَرْ
وَعَنْ فُؤادي لَمْ يَزَلْ مُغْلَقَا؟»

وَلَمْ يَكَدْ يَصْمُتُ حَتّى سَجَدْ   – قُدْسُ الهَوَى مَا ذَلَّ فيهِ أَحَدْ
فالحُبُّ – لا كُفرَ – إلَهٌ صَمَدْ

كَـأَنَّ في مُقْلَتِهَا هَيْكَلَهْ   يَرَى عَلَيْهِ سيِّدَ الجَلْجَلَهْ
يَفْتَحُ لِلحُبِّ جِراحاً جُدَدْ

وَقَـالَ: «غَلواءُ، هُنَا مَعْبَدي   في صَدْرِكِ المُنطَفِئِ المُوقَدِ
وَعَيْنِكِ الغَرْقَى بِبَحْرِ الغَدِ.»

وصَادَفَتْ مُقْلَتُهُ المَذْبَحَا   عَلَيْهِ ذَيْلٌ مِنْ شُعاعِ الضّحَى
وَصُورَةَ العَذْرَا، فَقالَ: «ٱشْهَدي!»

قَالَ: «ٱشْهَدي، إنَّ الهَوَى يَشْهَدُ   يَا صُورَةً لِمَرْيَمٍ تُعْبَدُ
يَا مَوْقِداً لِلْحُبِّ لا يَخْمُدُ.»

. . . .

. . . .

الـحُبُّ نِيرانٌ تُـنـيـرُ السَّما فَـتُـرسِلُ النّورَ لَنَا كُلّمَا
حَـانَ مَـعَ اللهِ لَـنَا مَوْعِدُ

أَشِعّـةٌ مِنْ مُـقْلَـةِ الخَالِقِ تَذُوبُ في الأَكْبادِ مِنْ حَالِقِ
فَـتَـمزُجُ الـخَـالِـقَ بِـالـعَاشِقِ

واللهُ مَا أَبْدَعَ قَلْبَ البَشَرْ حتى يَظَـلَّ خَامِداً كَالحَجَرْ
فَـالـنَّـارُ في عُنصُرِهِ الـخَـافِقِ

قَالَ لهَا : «قَلْبُكِ ، مَا أفْجَعَهْ أللهَ مَا أَقْسَاهُ ، مَا أَوْجَعَهْ
تَـكَلَّمِي ، أوَدّ أَنْ أَسْمَعَهْ

أَوَدُّ أنْ أحْني لَهُ أَضْلُعي قَوْساً مِنَ الحُبِّ فيَبْقى مَعِي
مَـا بَقِيَ العُمرُ ، وَأبْقَى مَعَهْ

أَوَدّ أنْ أَفْـرُشَ عَـيْنِي لَـهْ هَذا دَمِـي أَوَدُّ أنْ يَـأكُـلَهْ
إنَّ الـهَـوَى يُـهَـوِّنُ الـجَـلْجَلَهْ

ليسَ الهَوَى ، يا أُختَ روحي ، سوى قُربَانَةِ الأَرْواحِ ، ليسَ الهَوَى . . »
فَغَمْـغَمَتْ غَلْوا : «سِوى مَهزَلَهْ . »

وَغَـادَرَتْـهُ في أَسىً مُوغِـلِ مِنْ مُشْكِلٍ يُزْجَى إلى مُشْكِلِ
كمُـدلِـجٍ في لَـيْلِـهِ الأَلْـيَـلِ

فَقَالَ : «هَذا الحُبّ مَنْ أنْزَلَهْ؟» فَـرَنَّ في مِسمَعِهِ : «المَهْـزَلَهْ ! »
وَرَجَّـعَتْـهـا قُبّـةُ الـهَـيْكَلِ !

العهد الثالث

التجلّي

١

إجْرَحِ القَلْبَ وَاسْقِ شِعْرَكَ مِنْهُ فَدَمُ القَلْبِ خَمْرَةُ الأَقْلامِ
مَصْدَرُ الصّدْقِ في الشّعُورِ هُوَ القَلْـ ـبُ وَفي القَلْبِ مَهْبِطُ الإِلْهامِ
وإذا أَنْتَ لَمْ تُعَذَّبْ وتَغْمِسْ قَلَماً في قَرارَةِ الآلامِ
فَقَوافيكَ زُخْرُفٌ وَبَريقٌ كَعِظَامٍ في مَدْفَنٍ مِنْ رُخامِ
وَإذا القَلْبُ لَمْ يُرَقَّقْ بِحُبٍّ حَجَّرَتْهُ ضَغائِنُ الأَيّامِ
وَالهَوَى دُونَ أَكْبُدٍ لَيْسَ يَحْيا فَغِذاءُ الهَوَى مِنَ الأَجْسامِ
صَحِّ بالقَلْبِ إنْ هَوِيتَ فَليسَ الـ ـقَلْبُ إلّا وَليمَةً لِلغَرامِ
يا لَهَا في الهَوَى وَليمَةَ قَلْبٍ سَوْفَ يَبْقَى لَهَا صَدًى في الأَنامِ
وَاشْقَ مَا شِئْتَ، فَالشّقَا مُحْرِقَاتٌ صَعِدَتْ مِنْ مَذَابِحِ الأَرْحامِ
رُبَّ جُرْحٍ قَدْ صَارَ يَنْبوعَ شِعْرٍ تَلْتَقي عِنْدَهُ النّفُوسُ الظّوامي

وَزفيرٍ أَمْسَى — إذا قَدّسَتْهُ الـ ـروحُ — ضَرْباً مِنْ أَقْدَسِ الأَنْغامِ
وَعَذابٍ قَدْ فَاحَ مِنْهُ بَخُورٌ خَـالِدٌ في مَـجَـامِـرِ الأحْلامِ

. . . .

قَطَفَ الهَمُّ والأَسى زَهَراتٍ نَبَتَتْ في ضِفَافِ نَبْعِ الدّموعِ
وجَنى البُؤسُ بَعْضَ أَشْواكِ وَرْدٍ عَـطَّـفَـتْهَا الصّبَا عَلى اليَنْبوعِ
وَإذا بِـالـغَرَامِ يَضْفِرُ مِـنْـهَـا لِشَفيقٍ إكْليلَ قَلْبٍ وَجيعِ

* *

وتَـــراءَت مَلائِكٌ لِشَــفــيـقٍ في ثَـنَـايـا غَـمَـامَـةٍ بَـيْـضَـاءِ
وَاكَبَتْـهَا مِنَ السّماءِ عَذارَى طَـاهِـراتٌ كَـأَدْمُعِ الشّـعَـراءِ
حَـامِلاتٌ عَلى الصُّدورِ حُلِيّاً كمَصابِيحَ أُشْعِلَتْ في السّماءِ
أَوْ عناقيدَ أَنْضَجَتْهَا شُمُوسُ الحُبِّ
في عَـالَـمِ الـخَـيـالِ الرّفـيعِ
حَيْثُ لا يَضْمَحِلُّ فَصْلُ الرّبيعِ

* *

وَتَـرَاءَتْ لَـهُ سَلالِـمُ حَـمْـرا ءُ تَـدَلَّتْ أَذيـالُـهـا في الأَثيرِ
فُـرِشَتْ كُـلّ سُلّـمٍ بِـوُرودٍ رَبَـطَـتْـهـا شَفَـائِـفٌ مِنْ حَريرِ
وعَـلَـى كُـلّ وَرْدَةٍ قَـطَـراتٌ شَعَّ مِنْهَا لَمْ أدْرِ أيُّ شُعُورِ
فَـكَـأَنَّ الـوُرودَ جَامَاتُ حُبٍّ

أوْ قَوارِيرُ رُصِّعَتْ بِدُموعِ
وَطَلَتْها السّمَا بِلَوْنِ النّجيعِ

* *

وَتَراءَتْ لَهُ جُمُوعُ العَذَارَى فَوْقَ تِلْكَ السّلالِمِ العُلْوِيَّهْ
عَازِفَاتٍ لَهُ مَزاميرَ داو دَ بِكِنّارَةِ الهَوَى القُدْسِيَهْ
كُلَّ لَيلٍ، يا رَبِّ، أَغمرُ بالدّمـ ـعِ سَريري من أجل تلك الخَطيّةْ
وَيُميعُ الفِراشَ مَاءُ عُيُوني ! »
كُنّ يَعْزِفْنَ ، والصّدَى في الرّقيعِ
كَانَ يَرْقَى إلى العَلا بِخُشُوعِ

* *

«في قُلُوبِ الوَرَى فَسادٌ، وَلا صِدْ قَ بِأَفواهِهِمْ، فَفيهَا شُرورُ
وَحُلُوقُ الوَرَى قُبورٌ! ..» وَلمّا اَنقَطَعَ اللّحنُ واَنتَهَى المَزْمُورُ
سَمِعَ العَاشِقُ المُعَذَّبُ صَوْتاً رَجَّعَتْ في العَلا صَدَاهُ الخُدورُ :
«طَهّرَتْكَ الآلامُ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ
وَالهَوَى في فُؤادِكَ المَوْجُوعِ
ولَيالِيكَ في ظَمَاءٍ وَجُوعِ

* *

قَدَّسَتْ شُعْلَةُ السَّما فَمَكَ الإِنْ سِيَّ فَاَحْمَدْ نَارَ السّماءِ وَمَجِّدْ

وَهَواكَ الشّقيُّ قَدَّسَهُ الدّمـ ـعُ فَغَمَّسْهُ بِالدِّمَاءِ وَخَلِّدْ
فَجِّرَ الحُبُّ مِنْ فُؤادِكَ شِعْراً أَيّها البُلْبُلُ الصّمُوتُ فَأَنْشِدْ!»

. . . .

. . . .

أَيّها الفَاتِحونَ في الأَرضِ طُرّاً أَيّها الشّاربونَ كَأسَ الدّماءِ
أَيّها الشّاخِصونَ لِلْكَوْنِ سُخْراً مِنْ خِلالِ القَذائِفِ الصّمَاءِ
وَدِمَاءِ الضّعَافِ وَالأبْرِيَاءِ

قَدْ عَرَفْتُمْ مَجْدَ العُرُوشِ العَظِيمَهْ وَطَلَيْتُمْ تِيجَانَكُمْ بِاللُّبانِ
وَعَشِقْتُمْ مِنَ الجَمَالِ نُجُومَهْ وَٱرتَدَيْتُمْ مَطَارِفَ الأُرْجُوانِ
وَلَعِبْتُمْ بِالدّهْرِ وَالتّيجَانِ

ذُقْتُمُ الحُبَّ في مَجَالي جَمَالِهْ بَينَ رَقْصِ الأَجْسَادِ وَالأَوْتَارِ
وَٱغْتَصَبْتُمْ حتى حَرِيمَ خَيَالِهْ مُذْ شَبِعْتُمْ مِنْ شَهوَةِ الأَقْذَارِ
شَهوَةِ الطّينِ في خُدُورِ السّراري

وَٱفْتَتَحتُمْ مُلْكَ الثّرى بالصّوارِمِ وَسَكِرتُمْ بِخَمْرَةِ الإنتِصَارِ
وَشَرِبْتُمْ دَمَ الوَرَى بالجَمَاجِمْ وٱختَصَرْتُمْ صَفَائِحَ الأعْمَارِ
بِيَرَاعٍ مِدَادُهُ مِنْ نَارِ

ذُقْتُمُ الرّاحَ في اخْتِلافِ كُؤوسِهْ وتَفَلْتُمْ على يَدِ العَصّارِ
مَا تَرَكْتُمْ للشّعْبِ غَيرَ رُمُوسِهْ وَظَمَاءِ الأحْشَاءِ لِلْخَمّارِ
وَسُقَاطِ الطّلى لِبَعْضِ الجَواري

وَعرَفتُمْ في المَجْدِ كُلّ الأماكِنْ   وَقُصارى لَذّاتِهِ الحَمْراء
وَعَرفْتُمْ حَتى الغُيوبَ وَلَكِنْ   مَا عَرَفْتُمْ في المَجْدِ نُورَ السّماءِ
مِنْحَةَ الآلِهَاتِ للشّعَراءِ !

٢

في لَيْلَةٍ حَالِكَةٍ كَالهُمُومْ   هَابِطَةِ الجَوِّ بِثِقْلِ الغُيُومْ
كَأَنَّهَا قَدْ حُبِلَتْ بِالرُّجُومْ

كَانَ الفَتى الشّاعِرُ في مِخْدَعِهْ   يَبْكي فَيجري القَلْبُ في أَدْمُعِهْ
شِعْراً يَعيهِ الحُزْنُ في مِسْمَعِهْ

وَكَانَتِ الشّمعَةُ في حُجرَتِهْ   تَنْزَعُ كَالمَيِّتِ في سَاعَتِهْ
أَكُلُّ شَيْءٍ مِثْلُهَا لا يَدُومْ؟

وَكَانَتِ الوَحْدَةُ كَالمَدْفَنِ   مُوحِشَةً في ذَلكَ المَسْكَنِ
وَقَدْ سَطَا النّومُ عَلى الأَعيُنِ

واسْتَيْقَظَ الشّاعِرُ مِنْ سَكْرَتِهْ   وَحَوَّلَ العَينَ إلى شَمْعَتِهْ
أنيسَةِ الأَشْجَانِ في وَحْدَتِهْ

وبَعْدَ أنْ مَرّتْ عَلَيْهِ ثَوانْ   كَأَنَّها مِنْ دامِياتِ الزّمانْ
قَالَ بِصَوْتٍ رَاعِشٍ مُحْزِنٍ:

«يا شَمْعَتي، مَاذا وَراءَ النّزَاعْ   مَا هَذِهِ القَطْرَةُ تَحْتَ الشُّعَاعْ
وَلِـمْ أَرَى فِيهَا اْصْفِرارَ الوَدَاعْ؟

في دَمْعِكِ الشّاحِبِ نُورٌ يَذُوبْ   مَاذا تَقـولِيـنَ بـِهِ للقُلوبْ؟
لِمْ يَغمُرُ الشُّعْلَةَ هَذا الشُّحُوبْ؟

أَيَـنـتَـهِي الحُبُّ كَمَا تَنتَهِينْ   يَا شَمْعَتي، يَا مَثَلَ العَاشِقِينْ
لَـذّاتُـهُ تَـأتي وتَمْضي سِراعْ؟»

وَإِذْ تَلاشَى نَفَسُ الشّـمْـعَـةِ   مِثْلَ تَلاشي الرّوحِ في المَيّتِ
قَـالَ الـفَـتى الشّاعِرُ للظّلْمَةِ:

«يَا مَدْفَنَ الأنْوارِ مَاذا وَراءْ   هذا الدُّجَى الحَالِكِ، هَذا الغِطَاءْ
مَاذا وَراءَ اللّيلِ، هَلْ مِنْ ضِيَاءْ؟

. . . .

. . . .

. . . .

لِمْ يَنْقَضي اللّيلُ وَيأْتي السَّحَرْ؟
مَـهْزَلَةٌ مِنْ مَهْزَلاتِ القَدَرْ!»

* *

في ذلِكَ اللّيلِ العَصيبِ الطّويلْ   تَـذَكّـرَ الشّـاعِـرُ عَهْداً جَمِيلْ
لَمْ يَرَ مِنْهُ غَيرَ شَطْرٍ ضَئيلْ

إذْ كَانَ في مَيْعَتِه النَّاعِمَهْ يَحْلُمُ بالسَّعادَةِ الدّائِمَهْ...
خَابَ رَجَاءُ الأنفُسِ الحَالِمَهْ!
يَا خَافِقاً، أللهَ مَا أَوْجَعَكْ مَا أَبخَلَ الدّنْيا ومَا أطْمَعَكْ
تُعْطِي وَلا تُمْنَحُ حَتى القَليلْ

* *

في ذَلِكَ اللّيْلِ... وَمَا أظْلَمَهْ ذِكْرُ الصِّبَى في الأَكْبُدِ المُغْرَمَهْ
وَنُورُهُ في اللّيلَةِ المُظْلِمَهْ
تَذَكَّرَ الشّاعِرُ فَجْرَ الشبَابْ وذَلِكَ الوَادي وتَلْكَ الهِضَابْ
وَعَوْدَةَ القُطعانِ عِنْدَ الغِيَابْ

. . . .

. . . .

وَوَالِداً مَرَّ مُرورَ الشَبَحْ
كَأَنَّهُ يَوْمُ صَفَاءٍ سَنَحْ
فَقالَ: «يا قَلْبي، إلى الجَلْجَلَهْ حَمَلْتَ آمالَ الصّبَى المُثقَلَهْ
وَلَمْ تَدَعْ مِنْهَا سِوَى الأَخْيِلَهْ

. . . .

. . . .

لأجْلِ غَلْواءَ وَأَجْلِ العَذابْ

كَتَبْتِ لي في الحُبِّ هَذا الكِتَابْ
يَا شُعْلَةً مَحْجوبَةً بِالضَّبَابْ
يَا قَلْبِ! ...»

* *

إِذَا بِهِ، في الحُجْرَةِ المُظْلِمَهْ، يُصْغي إلى حَشْرَجَةٍ مُؤلِمَهْ
بَينَ خُفُوقِ القَلْبِ والتَّمْتَمَهْ
وَرَاءَ في قَلْبِ الدّجَى وَالِدَهْ يَغيمُ في شَفّافَةٍ صَاعِدَهْ
مِنْ صُلْبِ تِلْكَ اللّيْلَةِ البَارِدَهْ
كَأَنّها، وَهْيَ تَشُقُّ القتَامْ، لَوْحَةُ فَجْرٍ في إِطَارِ الظّلامْ
أو وَمْضَةٌ مِنْ شُعْلَةٍ مُبْهَمَهْ

* *

— قُدّسْتِ يَا غَيبُوبَةَ الشّاعِرِ رُؤيا كَمَرِّ الحُلُمِ الطّاهِرِ
أَوْ كَالهَوَى في عَهْدِهِ السّاحِرِ
قُدِّسْتِ في أَحْلامِكِ الشّاحِبَهْ قُدّسْتِ في آلامِكِ الذّائِبَهْ
في رُوحِكِ الحَاضِرَةِ الغَائِبَهْ
في كُلِّ ما تَحمِلُ مِنْكِ العُيونْ في سَوْرَةِ الحُبِّ وسُكْرِ الجُنونْ
وَفي ٱخْتِلاجِ الخَافِقِ الحَائِرِ —

فِي جَوْفِ تِلْكَ اللّيْلَةِ البارِدَهْ كَـأَنَّـهَـا ضَـمَـائِـرٌ جَاحِدَهْ
تَـخْـطُـرُ فِـيـهَـا فِـكْـرَةٌ حَاقِدَهْ

— وللرّياحِ الهُوجِ بَينَ الوَرَقْ عَزْفٌ كَأَنَّ الجِنَّ فِيهِ زَعَقْ
فَـمَزَّقَ الأرواحَ ثُمّ ٱنْطَلَقْ —

تَـحَـرَّكَ الـلّيْلُ وَقَالَ الخَيالْ: «مَنْ لَيسَ يَبكي في اللّيالي الطّوالْ
وَلا يُـدَمّي المُقلَةَ السّاهِدَهْ،

مَنْ لَمْ يَذُقْ في الخُبزِ طَعمَ الأَلَمْ وَلَـمْ يُـنَـكِّـرْ وَجْـنَـتَيْهِ السَّقَمْ
وَتَسْلُخِ الأَوجاعُ مِنْهُ حِطَمْ

مَنْ لا يَرَى في الشَمْسِ طَيْفَ الغُروبْ وَيَسْمَعُ اللّيلَ ٱخْتِلاجَ القُلُوبْ
وَيَرْصُدُ الشّمعَةَ حتى تَذُوبْ،

مَنْ لَمْ يُغَمِّسْ في هَواهُ دَمَهْ مَنْ يَمْنَعِ الأَهْوالَ أَنْ تُطْعِمَهْ
وَلا يَرَى في كُلِّ جُرْحٍ حِكَمْ،

مَنْ لَيْسَ يَرْقَى ذُرْوَةَ الجَلْجَلَهْ وَلَـمْ يُـسَـمِّرْ في الهوَى أُنْمُلَهْ
ويُـرفَـعِ الـعَـلْقَمُ والخَلُّ لَهْ،

مَنْ يَصْرِفِ العُمْرَ عَلى المَخْمَلِ وَلا يَذُوقُ البُؤسَ في الأَوّلِ!
وَلا الأَسَى في مِخْدَعٍ مُقْفَلِ

لَنْ يَعْرِفَ العُمْرَ شُعاعَ الإلَهْ وَلَـنْ يَـرَى آمـالَـهُ في رُؤاهْ
بَلْ عَالماً يَخْبِطُ في مَهْزَلَهْ!»

* *

وَٱنْسَحَبَ الطّيفُ إلى ظُلْمَتِهْ يَجُرُّ بالأَذيالِ مِنْ وَمْضَتِهْ
عَينَ الفتى الغَرْقَى بِغَيبوبَتِهْ

حتى إذا سادَ السّكونُ المُخيفْ —وكانَ في الخَارِجِ صَوْتُ الحَفيفْ
يَعْلو شَديداً مِنْ غُصُونِ الخَريفْ—

أفَاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ الشّاعِرُ وَقَالَ: «هَلْ يُرْجى لهُ آخِرُ
هَذا الدّجَى الغَارِقُ في ثَوْرَتِهْ؟

* *

قَدْ يَحْمِلُ الفَجرُ عَزاءً إليَّ إنْ حَمَلَ النّورَ إلى مُقلَتَيَّ
فاللّيلُ قَدْ أَخنَى عَلى كَاهِلَيَّ

يُخيفُني اللّيلُ بِأَرواحِهِ ثَائِرَةً كَالهَوْلِ في سَاحِهِ
وَبِالرّؤى مِنْ بِيضِ أشْباحِهِ

لا أَنشدُ البُؤسَ وَلا أرْغَبُ في حَمْلِ حُبٍّ قَوْمُهُ عُذِّبوا
فَالحُبُّ في الآلامِ ثِقْلٌ عَليَّ

يُخيفُني في مِخْدَعي البَارِدِ خَيَالُ حُبٍّ مُبْهَمٍ جَامِدِ
أبْكَمَ كَالأرْماسِ ، يَا وَالِدي

يُخيفُني اللّيْلُ فَأَيْنَ السَّحَرْ يَطْرُدُ مِنْ عَيْنيّ هَذِي الصّوَرْ
وَمَا عَلَيْها مِنْ شَقَاءِ البَشَرْ!»

. . . .

. . . .

كَانَ الدّجَى لَمّا يَزَلْ ثَائِرا وَالرّيحُ تُدْمي الأُفقَ المَاطِرا

بِالبَرْقِ ، جُرْحِ المَلاِ الخَالِدِ

. . . .

. . . .

كَأَنَّ لِلَّيْلِ هَوىً حَائِرا

ذَاقَ الأَسَى فَلَمْ يَزَلْ سَاهِرا

العهد الرابع

الغفران

١

مَضَتْ أَشْهُرٌ نُذِرَتْ لِلْمَطَرْ   وأَظْلَمَ فِيهَا المَسَا والسَّحَرْ
وَأَقْبَلَ نَوّارُ — عُرْسُ الطّبيعَةِ —   يَضْحَكُ في وَرَقَاتِ الشَّجَرْ
يُدَغْدِغُ بِالطَّلِّ عُشْبَ الحُقُولِ   ويَطْبَعُ أَلوانَهُ في الزَّهَرْ
ويَبْنِي عَلى الهَضَباتِ مَتَاحِفَ   تَسْخَرُ مِنْ هَذَيَانِ البَشَرْ
كَأَنَّ عَبَاقِرَةَ الجِنِّ فِيهَا   سكَنَّ وَعَلَّقْنَ تِلْكَ الصُّوَرْ
فَخَفَّ الشّبابُ نَدِيَّ الحَيَاةِ   يَسْتَقْبِلُ الحُلُمَ المُنْتَظَرْ
عَلى ثَغْرِهِ بَسَماتُ الرّبيعِ   وفي قَلْبِهِ بَسَماتٌ أُخَرْ

. . . .

وَفي يَوْمِ عيدٍ نَقِيِّ السّماءِ   كَأَنَّ السّما صَفْحَةٌ مِنْ سُوَرْ

أطَلَّ شَفيقٌ عَلى الهَضَباتِ ... فَرَاءَ الشَبابَ عَلَيْها ٱنْتَشَرْ
وأَبْصَرَ غَلْواءَ بَينَ الزّهُورِ ... كَحَوّاءَ بَينَ شَهِيٍّ الثَمَرْ
تُسَرِّحُ في عَدْنِها نَظَراتٍ ... عَرَفْنَ أَزَاهِيرَ خَيْرٍ وَشَرّ
وَقَدْ لَبِسَتْ ثَوْبَها الزَنبَقِيّ ... عَلَيْهِ نَسيجٌ بِلَونِ الخُضَرْ
وَأَلْقَتْ على العُشبِ جِسْماً هَزيلاً ... كَغُصنٍ مِنَ اليَاسَمِينِ ٱنْكَسَرْ
فَخَفَّ إِلَيها وَفيهِ عَذابٌ ... بَدَا مِنْهُ في مُقْلَتَيْهِ أَثَرْ
وقَالَ: «لَقَدْ خَلَعَ الحَقْلُ عَنْهُ ... رِداءَ الشّتاءِ وغَطّى الحَجَرْ
وَأَلْقَى عَلَيْهِ الرّبيعُ وِشاحاً ... جَمَالُ الطّبيعَةِ فِيهِ ٱنْحَصَرْ
فَهَلّا خَلَعْتِ رِداءَ اللّيالي ... وَأَلبَسْتِ رُوحَكِ ثَوْبَ البُكَرْ
وَهَلّا تَشَبَّهْتِ بالياسَمِينِ ... فَمَا كَادَ يُحْجَبُ حتى ظَهَرْ
لَقَدْ غَسَلَتْ بَسَماتُ الزّهُورِ ... ذُنُوبَ الشّتاءِ الكَفيفِ البَصَرْ
وعَادَ العَفافُ إلى الهَضَباتِ ... فَفي كُلِّ غَرْسٍ فُؤادٌ غَفَرْ.»
فقَالَتْ: «أُحاوِلُ أنْ أَتَناسَى ... زَماناً مَضَى وخَيالاً عَبَرْ!»
فقالَ: «وماذا يُمَثِّلُ هذا الـ ... ـخَيالُ؟» فَقَالَتْ: «غَراماً عَثَرْ.»
فَقَالَ، وَقَدْ جَحَظَتْ مُقْلَتاهُ: ... «وهذا؟» فقَالَتْ: «حَبيباً غَدَرْ.»
— وهذا الحَبيبُ؟
— غَفَرْتُ لَهُ ... ويَعْفُو إلهُكَ عَمّا بَدَرْ
غَفَرْتُ كَمَا غَفَرَتْ في الرّبيعِ ... زُهُورُ الرّبَى لِشِتاءٍ كَفَرْ
وَلَكِنّ بي نَدَماً كَاللّهيبِ ... يُريني الحَيَاةَ خِلالَ الشّرَرْ

* *

وَكانَ النّسيمُ يَهُزُّ الغُصُونَ فتَنْشُرُ في الجَوّ عِطْرَ الزُّهُورْ
كأنَّ العُطُورَ خطايا عَذارَى حَلَمْنَ بِأَثْمارِهَا في الخُدُورْ
ولَمّا أَفَقْنَ اعْتَرَفْنَ بِهَا وَقَدْ هَزَّهُنَّ الضّميرُ الطَّهورْ
وَكانَ المَسَاءُ عَلى الهَضَباتِ يَنْفِثُ أشْباحَهُ في فُتُورْ
وَشَمْسُ المَغيبِ تُعيرُ الظّلالَ أَلْوانُهَا في مَطَاوي الصّخُورْ
فَقَالَ شَفيقٌ ، وَفي قَلبِهِ رَجَاءٌ يَموتُ وَحُبٌّ يَثُورْ :
«عَشِقتُكِ، يَا غَلْوَ، عِشْقاً نَمَا شَقِيَّ الرّؤى في شَواطِئِ صُورْ
وكُنْتِ مِنَ الدّاءِ في نَشْوَةٍ تُريكِ الحَياةَ ظَلاماً وَنُورْ
جَهِلْتِ الهَوَى فَنَكَرْتِ الرّبيعَ وَقَدْ تَنْكُرينَ نُمُوَّ البُذُورْ
وَمَنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ أَنْ يَشُمَّ يَنْكُرُ حتى أَريجَ العُطُورْ.»
فَقَالَتْ : «صَدَقْتَ وَلَكِنَّني أُحِسُّ بِقَلْبِي جَفَافَ الجُذُورْ
فَأَنْتَ تَرَى في الرّبيعِ الجَمَالْ وأُبصِرُ أزْهَارَهُ كَالبُثُورْ
وَتُبْصِرُ في الزّهْرِ لَوْنَ الحَيَا ةِ وَأُبصِرُ في الزَّهْرِ لَوْنَ القُبورْ.»

٢

. . . .

. . . .

وَأَهْوَى علَى صَدْرِهَا بَاكِياً وأَهْوَتْ علَى رأْسِهِ بَاكِيَهْ
ومَا هِيَ إلّا دَقَائِقُ حتى تلاشَتْ رُؤى نَفْسِهَا الدّاميَهْ

فَـأَدْنَتْ إلى ثَـغْـرِهِ ثَـغْرَهـا عَلى مَشْـهَدٍ مِنْ تُقى الرّابيَهْ
عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ نَقَاءِ الزّهُورِ الـعَـذَارى وَمِـنْ عِـفّةِ السّاقِيَهْ

* *

وَإِذْ صَعِدَ البَدْرُ خَلْفَ الجِبَالِ وَذابَ عَلى الـرّبْـوَةِ الـعَـالِـيَـهْ
وَهَوَّمَتِ الـطّيرُ بَينَ الغُصُونِ لِـتَـحْـلُـمَ أَحْلامَـهَـا الصّـافِـيَـهْ
وَلَمْ يَبْقَ يُسْمَعُ في الحَقْلِ إلّا تَـنَـهّـدُ شَبّـابَـةِ الـرّاعِـيَـهْ
أَفَـاقَ الـحَـبيبَـانِ مِـنْ سَكْـرَةِ الـدّمـوعِ إلى سَكْـرةٍ ثَـانِـيَهْ
وَظَلّا مِنَ السُّكْرِ في نَزَواتٍ تُـطَـهّـرُهَـا عِـفّـةٌ بَـاقِـيَـهْ
إلى أَنْ دَنَا مَـوْعِـدٌ لـلـفِراقِ واَصْـفَـرَّتِ الأَنْـجُـمُ السّاهِـيَـهْ
كَأَنَّ النّجومَ الضّئيلَةَ في الأُفْقِ رَشْحُ خُـمُـورٍ عَلى خَـابِـيَـهْ
كَـأَنَّ الـنُّـجومَ زَفيـرُ خَـطَـايَا تُـصَـعِّـدُهُ لَـيْـلَـةٌ زَانِـيَـهْ

٣

«أَشِعَّةٌ مِـنْ مُـقْـلَـتَـيْكِ مُلْهِبَهْ
يَا أَلَمي ، تَجْعَلُ نَفْسي طَرِبَهْ
أَشْرِقْ عَلى قَـلْبي بَـهِـيّاً نَـيِّرا
فَـيُـورِقَ الشَـوْكُ بِـهِ ويُـزْهِـرا

يَا هَيكَلاً كُهّانُهُ القُلُوبُ
بَخُورُهُ الأَدْمُعُ وَالشُّحُوبُ
أسْمَعُ أجْراسَكَ مِنْ بَعِيدِ
فَهْيَ تُناديني إلى السّجُودِ!»

*

وَدَقَّ نِصْفُ اللّيْلِ في السّكُونِ
فَٱخْتَلَجَ الشّاعِرُ كَالظُّنونِ
وَقَالَ: «إنَّ تَعَبَ الضّميرِ
يَصْعَدُ مِنْ مَجَاهِلِ القُبُورِ
يَا لَيْلُ، يَا مَسَارِبَ الفَواجعِ
يَا قِرَبَ الدّمَاءِ والمَدامِعِ
كَمْ مِنْ خَليٍّ فيكَ يَستَريحُ
وَكَمْ شَقِيٍّ بَائِسٍ يَنوحُ
أُرْقُدْ قَريرَ العَينِ يَا خَلِيُّ
وَأَنْتَ فَٱشْقَ أيّها الشّقِيُّ
فاللّيلُ مِلْكُ المُتْرَفِ السّعيدِ
وَمِلْكُ كُلِّ تَعِسٍ شَريدِ!».

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

ـ غَلْواءُ ، يا نِبْراسَ قَلْبي البَائِسِ
يا أَمَلاً في ظُلُماتِ اليَائِسِ
يَا مَرْهَماً لِقَلْبيَ المَوْجُوعِ
يَا مَلَكاً يَطُوفُ في دُمُوعي
أُحِبُّ فِيكِ صُورةً عَذْراءَ
وَإنْ تَكُنْ أَصْباغُهَا شَوْهَاءَ
يَا صُورَةً تَجْري بِهَا السّعَادَهْ
الحُبُّ فِيهَا دُونَهُ العِبَادَهْ
يَا أَرَجَ المُروجِ وَالآكامِ
يَا وَتَراً أسْمَعَني أنْغامي
مَجّدْتُ آلامَكِ في الزّهُورِ
في وَهَجِ الأَنوارِ ، في الطيُورِ
في بَسَماتِ الصّبْحِ ، في الأصائِلِ
في القَمْحِ ، في تَموّجِ السّنابِلِ
في أدْمُعِ الأَيِّمِ وَاليَتيمِ
في صَرْخَةِ البَريءِ والمَظلومِ

يَـا زَهْـرَةً تَـائِـبَـةً مُـقَـدَّسَهْ
يَا خُبْـزَ قُرْبَانَةِ نَفْسي التّعِسَهْ
أحْـمَـدُكِ اليَوْمَ كَأَمْسِ وَغَدا
وَكُـلَّما غَـابَ الـنّـهـارُ وَبَـدَا
وَكُـلّما بَـلَـلْـتُ بـالـدُّمـوعِ
شِعْراً شَقِيّاً قُدَّ مِنْ ضُلُوعي!

* *

... وَقَدْ أَحَسَّتْ فَتْرَةً بِرُوحِهَا
تَـطّرِحُ الأوهـامَ مِنْ جُرُوحِهَا
وَرَفَـعَتْ إلـيْـهِ عَـيْـنـاً ذَائِـبَـهْ
كَـأَنَّـهـا صُـورَةُ نَـفْـسٍ تـائِـبَـهْ
لَـكِـنَّـهَـا عَـادَتْ إلى جُـنُـونِهَا
وثَـارَتِ الـنّيرانُ في عُـيُـونِـهَـا
وَكَـانَ قَـدْ أَوْشَكَ أنْ يُقَبِّلا
جَـبِـيـنَـهَا المُـضْطَرِبَ المُشْتَعِلا
حِينَ ٱسْتَحالَتْ جَمرَةً مُلْتَهِبَهْ
تَـراجَعَتْ عَنْهُ خُطىً مُضْطَرِبَهْ
وَبَـعْـدَ فِـكْـرٍ قَالَتِ: «الحياةُ

عَقارِبٌ مِن جَسَدي تَقتَاتُ

دَعْني ، فَلا أَبْرَحُ يَا حَبيبي
أعيشُ في مَاضيَّ ، في ذُنُوبي

في حَمأَةِ الضّميرِ، في أَوْجَاعي
في بُؤرَةِ الدّيدانِ وَالأَفاعي

أَيستَطيعُ الطّيبُ في القَارُورَهْ
أَنْ يَغْسِلَ الأوْساخَ في القاذُورَهْ

دَعْني، وَخَلِّ نَفْسَكَ العَذْراءَ
عَذْراءَ لا تَرْجِسُ في غَلْواءَ

وَٱستَرْجعِ القُبلاتِ مِنْ خَدّيّا
مَغْفِرَةٌ ثَقيلَةٌ عَلَيّا! »

فَقَالَ: «إنّ دَمْعةً تَطَهّرَتْ
تَكْفي لِغَسْلِ النّفْسِ مَهْما قَذِرَتْ

فَأَدْمُعُ التَّوْبَةِ وَالغُفْرانِ
أَقْدَسُ، يَا غَلْوا، مِنَ القُرْبَانِ

فَهْيَ خَميرُ الأَلَمِ المَعْجونِ
وَفِلْذَةُ القُلُوبِ في العُيُونِ

وَسُبْحَةُ النّفُوسِ في العَذَابِ

تُجْمَعُ في سِلْكٍ مِنَ الأَهْدابِ
وَهْيَ عَصِيرٌ مِنْ لُبانٍ طَاهِرِ
تَعْقُدُهُ الآلامُ في المَحاجِرِ
وَلُؤْلُؤٌ في قَعْرِ بَحْرٍ خاطي
يَقْذِفُهُ المَوجُ إلى الشَّواطي.»

* *

مَرّتْ ثَوانٍ كُلّها أحْلامُ
لَمْ يَتَخَلَّلْ سُكْرَهَا كَلامُ
كَانَ بِهَا الاثْنانِ يُصْغِيَانِ
إلى نِزَاعِ الأَلَمِ السّكْرانِ
إِذا بِهِ يَقُولُ: «يَا غَلْواءُ
هذا الشّقا — تَبَارَكَ الشقَاءُ —
هَذا الشّقَا، يَا غَلْو، يَا حَبيبتي
يَا أُخْتِ، يَا عَرُوسِ، يَا رَفيقَتي
هَذا الشّقا في مَطْهَرِ التّكْفيرِ
آخِرُ حَدٍّ لِشَقَا الضّميرِ
غَلْواءُ، فِرْدَوسُ الحياةِ هَهُنَا
فأَنتِ لَمْ تَزْني بَلِ الوَهْمُ زَنَى

إِحتَفِظي بِقُدْسِ تَذْكارِ الشّقَا
فَهْوَ طَريقٌ للعَفَافِ وَالتّقَى
إِنَّ الشقاءَ سُلّمٌ إلى السَّما
فَعَدْنُ ميراثٌ لِمَنْ تَأَلَّما
وثَمَنُ السّعادَةِ الخَلاّبَهْ
لَيْسَ يُوازي ثَمَنَ الكَآبَهْ! »

. . . .

. . . .

وَشُفِيَتْ غَلْواءُ مِنْ أَوهَامِهَا
لَكِنَّهَا لَمْ تُشْفَ مِنْ آلامِهَا!

مِن صَعِيدِ الآلِهَة

الطبعة الأولى

١٩٥٩

مِن صعيد الآلهة

أعْشَقُ الصّدْقَ ، لا أَقولُ سِوَى الحَـ ـقّ وَلَوْ جَارَ في الحَياةِ عَلَيّا

في فُؤادي القَوِيِّ رُوحُ إلَهٍ وَلَوَ انّي وُلِدْتُ مِنْ أَبَوَيّا

فالسَّماءُ الّتي أَنارَتْ شَبَابي وَضَعَتْ مُهْجَتي على شَفَتَيّا

أسطورة

إلى صديقي شفيق معلوف

كَـانَ مَـا كَـانْ
في رُبَـى لُـبْـنَـانْ

* *

شَاحِبٌ كَـالـطّـيْفْ
أهْـيَفٌ أَسْمَـرْ
ضَـامِـرٌ كَـالسَّـيفْ
أوْ أضْمَرْ

خَـدَرُ الـرّؤيـا عَلَى عَـيْـنَـيْـهْ
وَآرْتِـعَـاشُ الـحُـبِّ في فَـمِـهِ
عَـرَقُ الـوَحْيِ عـلَى صُدْغَيْهْ

فاضَ مِنْ دَمِـهِ

قَلْبُهُ، مَا أَبْعَدَ الآثَامْ
عَنْ هَواهُ ، عَنْ لَيالِيهِ
وَالهَوَى إِنْ رَاحَ يُخْفِيهِ
حَدَّثَتْ عن سِرِّهِ «الأَحْلامْ»
وَأَغانِيهِ

وَالحَوَرْ سَهْرانْ
مُوهَنَ الخَضْرِ
وَالقَمَرْ سَكْرانْ
في النَّهْرِ
وَٱلرُّبى أَلْوانْ
كَانَ مَا كَانْ

* *

بَكَّرَ العُصْفُورْ
دُونَ مِيعَادِ
وَٱسْتَفَاقَ النُّورْ
في الوادي
وَٱلصَّبَا لمَّا تَزَلْ سَكْرَى
تَخْبِطُ الدَّوْحَ وتَمْرُدُهُ

وَبِـرِفْقٍ تَـعْـطِفُ الـنّـهْـرا
لا تُجَعِّدُهُ

وَالـنَّدَى يَصْحُو عَلى العُنْقُودْ
فَكَحُلْـمِ الطِّفْلِ مَبْسِمُهُ
وَشِفـاهُ الشَـمْسِ تُـطْـعِـمُـه
وَتُـرَوِّي كَـنْـزَهُ الـمَـرْصُـودْ
حِينَ تَلْثِمُهُ

وَالـدُّمَـى الأَجْـفَـانْ
وَالشَّـذا الـعَـابِـرْ
كُـلُّـهـا ألْوانْ
لِلْشّاعِرْ
كُـلُّـهَـا أَلْـحـانْ
كَانَ مَا كَانْ

* *

هَـذِهِ الأَلْـواحْ
في رُبَـى زَحْـلَـهْ
كـالـهَـوَى وَالـرّاحْ
والقُبْـلَهْ

جِـنّـَةُ الأَظْلالِ تَـرْسُمُـهَـا

وَعَـرُوسُ الـنّـورِ تُـحْـيـيـهَا

عَبْـقَرٌ ، حتّى جَهَـنّمُـهَا

عَـرّشَتْ خَضْـرا بِـوادِيـهَـا

دَرَجَتْ فِـيـهَـا مُـخَـيَّـلَـتُهْ

شَاعِـرُ الأحْلامِ والـحُـبِّ

وَٱرْتَوَتْ مِـنْ نَـهْـرِهَا العَذْبِ

تَـأْخُـذُ الأصْـبـاغَ أخْـيِـلَـتُهْ

من دمِ القلبِ

حُـبُّـهُ الـنّـشْوانْ

مِنْ جَـنَى السِّـحْـرِ

غَـائِـمٌ سَـهْـرانْ

لِلْفَجْرِ

ذاهِـلٌ حَـيْـرانْ

كَـانَ مَـا كَـانْ

* *

غَـرَّبَ الشّـحْـرورْ

وَالـنّـوى جُـرْحُ

فَـالـمَسَـا مَـهْـجُورْ
وَالصُّبْحُ

قَـالَتِ الأغْصَـانُ لـلـنَّـهْـرِ
ذاتَ يَـوْمٍ : «أَيـنَ شادِيـنـا
مـا دَهـى حُـلقومَهُ السّحري
لا يُغَنّينا؟»

وَٱلسَّـواقي قُـلْـنَ لِـلْـزَّهْـرِ :
«أَيـنَ مَـنْ كـانَ يُـنـاجِيـنَا
يَـمْـلأُ الـوَادي تَلاحِـيـنَـا
مَـا دَهَـاهُ؟ فِـيـمَ لا يَجري
ظِلُّهُ فينا؟»

والـهَوَى الـظَّـمْـآنْ
قَـالَ لِـلْـبـانِ :
«لا أَرَى مَـنْ كَـانْ
يَرْعَاني !»

فَأَجابَ البَانْ :
«كَـانَ مَـا كَـانْ»

* *

عِشْتِ يَـا أغْصـانْ
عِشْتَ يَـا نَـهْـرُ
الـهَوَى رَيّـانْ
والشِّعْرُ

فَٱلدُّمى في الكَرْمِ ناهِدَةٌ
وَعَلَيْهَا الطّلُّ في حَرَمِ
كَرِضَاعِ الحُبِّ جَامِدَةٌ
نُقَطٌ مِنْهُ علَى الحَلَمِ
وَرَشَاشُ العِطْرِ وَالأنغَامْ
وخَرِيرُ الجَدولِ الكَوْثَرْ
وَالحَلِيبُ الخَمْرُ والعَنْبَرْ
حُمِلَتْ من شاطِئِ «الأَحلامْ»

لِذُرَى «عَبْقَرْ»
فَالمَسَا المَلآنْ
مِنْ دَمِ الكَرْمِ
لَمْ يَزَلْ يَهْمي
مِثْلَمَا كانْ

* *

بِــبَــنَــانِ الــنّورْ
لَــمْ يَــزَلْ هــارُوتْ
يَــفْــرِشُ الــيــاقُوتْ
في الـمَدى الـمَسْحُورْ

وَعَــلَى هَــوْدَجِــهِ الــهَادي
يَــنْـفُثُ الــلّــيْلُ مَصَابِيحَهْ
وَسَرِيــرُ الحُبِّ في الــوادي
لَــمْ يَزَلْ لــلطّــيرِ أُرْجُوحَهْ
كُــلُّ مَــا مَــرَّ بِــنَا يَبْقَى
ثَــابِتَ الــلّونِ كَــمَــا كــانَا
إِنَّــمَــا الأرواحُ أحْــيَــانَــا
حَسْبَما تَسْــفُــلُ أَو تَــرْقَى
تُــكْسِبُ الأَشيــاءَ ألوانَــا

وَالــــــهَوَى إيمانْ
لَــمْ يَــزَلْ نَــاضِــرْ
في دَمِ الشّـــاعِــرْ
مِــثْــلَــمَــا كَــانَ

* *

في رُبَــى الأسْرارْ

حَـــيْثُ لا شَهْوَهْ
قَـــالَتِ الأَزْهَـــارْ
للرَّبوَهْ :

«أنْظُري عَينَيْهِ، يا أُمّي
فَـالـهَوَى بَـاقٍ بِـعَـيْـنَـيْـهِ
جَفْنُهُ، كم ذَابَ في حُلمي
كُحلُ جَفنَيهِ
مَا أُحَيْلَى هَـذِهِ الخَلْوَهْ!
... هل سَمِعْتِ الحُبّ، يا أُختِ؟
عَادَ مُشْتاقاً كمَا عُدْتِ.»
فَـأَجَـابَتْ أُمُّـهـا الـرّبْـوَهْ :

«عَـــادَ يَـــا بِـــنْتِ
قَـلْـبُـهُ الـوَلْـهَـانْ
هَـــكَـــذا كَـــانَـــا
عَـــادَ وَلْـــهَـــانَـــا
مِثْلمَا كَانْ!»

اليتيم

حَرَمُ الجَمَالِ عَلى سَرِيرِكِ يَحْلُمُ   وَعَلَيْكِ مِنْ سُوَرِ الهَوى مُتَرَدِّمُ
وَٱلشَّمْسُ تِبْرٌ في أَديمِكِ كُلّما   شَبَّ النّهارُ نَما وأَينَعَ مَوْسِمُ

* *

لُبنَانُ يا رِيفَ السّماءِ وَثَغرَهَا   في كُلِّ شِبْرٍ مِنْ تُرابِكَ مُلْهَمُ
مَا أَنتَ بِٱلبَلَدِ اليَتيمِ وَإِنَّمَا   في كُلِّ عَيْنٍ لا تَراكَ تَيَتُّمُ
لَكَ في الفُصُولِ عَلى الطَّبيعَةِ ذِمّةٌ   وَعَلَى الجَمَالِ مُؤَخَّرٌ ومُقَدَّمُ
فَمنَ الشّتاءِ أبٌ يَدِبُّ بِصُلْبِهِ   جَيْشٌ مِنَ الخَضِرِ الجَنيِّ عَرَمرَمُ
وَمِنَ الرَّبيعِ أَجِنَّةٌ لَمْ يَختَمِرْ   في مِثْلِهَا نُورٌ وَلَمْ يَطهُرْ دَمُ
وَلَكَ الشَّبابُ كَريمَةٌ أغْصانُهُ   في الصَّيْفِ تَرْتَزِقُ الجِنَانَ وتُولِمُ
وَإذا الخَريفُ تَكَمَّشَتْ أعْراقُهُ   أجْرى الفُتُوّةُ فِيكَ حَتّى المَأْتَمُ
لَكَ مِن شَبَابِكَ أُسرَةٌ مَيْمونَةٌ   فَأبٌ يَفيضُ نَدىً وأُمٌّ تَرْأَمُ
مَا اليُتْمُ أنْ تُشْقِيكَ أُمٌّ أو أبٌ   اليُتْمُ أن تُزْرِيكَ عَيْنٌ أوْ فَمُ

إنَّ اليَتيمَ مَنِ امَّحى وِجْدانُهُ هُوَ مَنْ يَسُوقُ الظّلْمَ لا مَنْ يُظلَمُ
هُوَ حَاكِمٌ يَشْقى اليَتيمُ بِعَهْدِهِ جَوْراً ، وَمِنْ خُبزِ اليَتامَى يُطْعَمُ
الخَزُّ يُنْكَرُ إنْ أتى بِنَصِيحَةٍ وَالعَنكَبُوتُ إذا تَعْلَبَ يُكْرَمُ
«يُعْطيكَ مِنْ طَرَفِ اللّسانِ حَلاوَةً وَيَروغُ مِنْكَ كَمَا يَروغُ» الأَرقَمُ

* *

كُلُّ امْرِئٍ شَطْرانِ في سُلْطانِهِ رَأسٌ لَهُ يُحْنَى وَقَلْبٌ يُشْتَمُ
في كُلِّ مَأدُبَةٍ يَسيلُ لُعَابُهُ كَالهِرِّ يُؤمَنُ شَرُّهُ إذْ يُلْقَمُ
عَسَلُ الزَّبيبِ يَسيلُ من أحْداقِهِ وَعَلى سَريرَتِهِ يَجِفُّ الحِصْرِمُ
يَخْشَى لِضَعْفِ يَقينِهِ هَمْسَ الصّدى وَيَرَى الشّفَاهَ كَأَنَّها تَتَهَكَّمُ
وَلَهُ مِنَ الأَبْوابِ أنظَارٌ تَرَى وَمِنَ السّقُوفِ مَسامِعٌ تَتَفَهَّمُ
يا حاكماً في أيِّ يومٍ تَستَحي أَوَلَسْتَ تَدْري كَيْفَ أنْتَ وتَعْلَمُ

* *

هُوَ مُرشِدٌ خُبُزُ السّماءِ طَعَامُهُ يُصْغي إلى أسرارِهَا فَيُتَرْجِمُ
سُوَرُ التّقى تُتْلى عَلى فَمِهِ وَفي وِجْدانِهِ الهَاري تَفُحُّ جَهَنَّمُ
الدّينُ حَانُوتٌ يَبيعُ بهِ الرّجَا واللهُ نَهْبٌ في حِماهُ مُقَسَّمُ
وَلَهُ كَلامٌ في السّياسَةِ فَاصِلٌ خطأُ الشَّرائعِ أَنْ يُعابَ فَتُرْجَمُ
أَأَبا اليَتَامَى ، وَالحَياةُ قَصيرَةٌ ، مَاذا يُعَلِّمُكَ اليَتيمُ الأعظَمُ
لكَ في الجَحيمِ مَتى تَهِمّ إلى السّمَا في كُلِّ إسطَبْلٍ يُحَمْحِمُ مِرْجَمُ

هُوَ عَاشِقٌ لَمْ يَدْرِ مَا شِيَمُ الهَوَى فَإِذَا أَحَسَّ فَعِرْقُهُ المُتَأَثِّمُ
رُوحٌ مُهرَّأَةٌ وَلَحْمٌ جَائِعٌ وَفَمٌ يَنِمٌّ ومُقْلَةٌ تَتَضَرَّمُ
مَا بَيْنَ غَدرَتِهِ وبَيْنَ يَمينِهِ إِلّا تَسَلُّفُ حَاجَةٍ تَتَكَتَّمُ
فَحَذارِ مِنْ جُرْحِ الهَوَى فَجِراحُهُ يَبْقى الأَذَى فِيهَا وَيَفنى المَرْهَمُ

* *

تَاللهِ عَصْرُكَ يا جميلُ، فَعَصْرُنا فِيهِ رُقِيٌّ لِلْهَوَى وتَقَدُّمُ
الفَاجِرُ الزِّنْديقُ فَحْلٌ رَاشِدٌ والعَاشِقُ العُذْرِيُّ أَبْلَهُ مُسْقَمُ
يا بُثْنُ كَمْ يَحْلو زمانُكِ حِينَمَا تَصْفو لَنا لَيْلى وتَغْدُرُ مَرْيَمُ
مَاذَا عَسَى الواشونَ أن يَتَحَدَّثُوا إِلّا يقُولوا إِنَّهُ بكِ مُغْرَمُ

* *

هُوَ تاجِرٌ أدْنَى وأَبْخَسُ سِلْعَةٍ وِجْدانُهُ ، يُعْطِيهِ لا يَتَلَعثَمُ
حَجَرٌ تَحَجَّرَتِ العُيونُ بِعَيْنِهِ فَالنَّاسُ نَقْدٌ وَالمَصَائِبُ أَسْهُمُ
حَتّى دُمُوعُ البَائِسينَ شَهِيَّةٌ في قَلْبِهِ إِنْ كانَ فيها مَغْنَمُ
يا تَاجِراً تَعْلُو بِهِ أَسْعَارُهُ مِقْدارَ مَا يَدْنَى الضَّميرُ المُجْرِمُ
سَتَذُوبُ في الدُّنْيا كَأَنَّكَ تَرْكَةٌ بِيَدِ المُبَذِّرِ أو كَأَنَّكَ دِرْهَمُ
هُوَ شَاعِرٌ إِنْ لَمْ يَذُقْ أَلَمَ الهَوَى يَكْفيكَ مِنْهُ أَحْرُفٌ تَتَأَلَّمُ
مَا الشِّعْرُ إِلّا حِلْيَةٌ بَرّاقَةٌ خَزَفٌ يَغُرُّكَ أو زُجاجٌ يُوهِمُ
صُوَرُ الحَياةِ كَثيرَةٌ أَلْوانُهَا وَأَحَبُّهَا مَا قَد حَواهُ المُعْجَمُ
هُوَ شَاعِرٌ تَلِدُ الشُّموسُ صَريحَةً مِنْ حَوْلِهِ أُسَرَ الجَمالِ وَيُبْهِمُ
إِنَّ اليتامى مَنْ يَمُجُّهُمُ الوَرَى لَيْسَ اليَتامى مَنْ يَضُمُّ المَيْتَمُ

شوقي وحافظ

لا لِـقَـوْمٍ وَلا لِـدِيـنْ أَنْتَ لِلـنَّـاسِ أَجْمَعينْ
أهْلُكَ الـوَحْيُ وَالـهُدى دِينُكَ الـحَقُّ وَاليَقيـنْ
سِرْتَ في الأَرضِ رَافِعاً مَشْعَلَ الخُلْدِ في الجَبينْ
فَـكَـأَنّي بِكَ الـسَّـمَـا أُودِعَتْ في لَظىً وَطينْ
أَنْتَ لِـلْـجِـيـلِ، إنَّما لِـلْـذَراريِّ بَعْدَ حِيـنْ
لِـلْـطُّـغَـاةِ الـمُـهَدَّمِينْ لِـلْـبُـنـاةِ الـمُشَـيَّـدِينْ
لِـلْـمُلوكِ الـمُخَلَّعِيـنْ لِـلْـعَبيدِ الـمُتَوَّجيـنْ
لِلْصَّعَاليكِ ، لِـلّـذينْ خَدَّرُوا الأسدَ في العَرينْ
لِـلْـزِّنـاةِ الـمُسَيطِرِينْ لِلأُبَـاةِ الـمُـسْـتَـعْبَدِينْ
أنْتَ لِلْشَّوْكِ ، لِلْوُرودْ لِـلْـنَّبِيّينَ في القُيُودْ
لِلْبُذيِّينَ ، لِـلْـيَهُودْ لِـلْـنَّصَارَى لِلْمُسْلِمينْ
لا لِـقَـوْمٍ وَلا لِـدينْ أنْتَ لِـلـنَّـاسِ أجْمَعِينْ

* *

مُصْحَفٌ قَصَّتِ السُّوَرْ   فِيهِ أُسْطُورَةَ البَشَرْ
كُلَّما أَسْمَعَ العُلَى   آيَةً شَرَّفَ المَدَرْ
حَرَمُ الوَحْيِ لَوَّنَ الـ   ـحُبُّ في عَدْنِهِ الصُّوَرْ
فَعَلَى كُلِّ صُورَةٍ   مُرْضِعُ القَلْبِ وَالبَصَرْ
صُوَرٌ غِمْنَ بِالرُّؤى   وَتَجَلَّيْنَ بِالفِكَرْ
فَكَأَنِّي بِهِنَّ أُحدِرْ   نَ من عَبْقَرٍ أَثَرْ
يا فَخُوراً بِزَفْرَةِ الشِّعْرِ   وَالحُبِّ في الوَتَرْ
هازِئَ القَلْبِ بالطُّرَرْ   ضارِباً بِالدُّمَى الأُخَرْ
نَسَكَ الفَنُّ حِينَ قَبْلَـ   ـتَهُ فِيكَ وَانْحَصَرْ
أَيُّها الحارِسُ الأمينْ   هَيْكَلَ المَنْطِقِ المُبِينْ
يا أَمِيرَ المُشَرَّدِينْ   إِخْوَةِ الشَمسِ والقَمَرْ

* *

مَا الصِّبَى في تَرَنُّمِهْ   في هَواهُ وَفي دَمِهْ
وَصَبَاحُ الرَّبِيعِ يَفْتَـ   ـرُّ عَنْ عَاجِ مَبْسِمِهْ
وَالمَساءُ الوَلْهانُ يُصْغي   لِهَمَسَاتِ أَنْجُمِهْ
والأقاحُ البَرِيءُ يَنْـ   ـفُثُ أَحلامَ بُرعُمِهْ
مِثْلَ سِحْرٍ تُذيبُهُ   رُوحُ شَوْقي بِمِرْقَمِهْ
مَا الهَوَى في تَأَلُّمِهْ   وَالدّجَى في تَجَهُّمِهْ
وَالسَّما في انْتِقامِهَا   وَاللَّظَى في تَضَرُّمِهْ

وَصُـراخُ الـبَـرِيءِ في — نَـزوةٍ مِنْ تَـظَـلُّـمِـهْ
وَالـمَعَرّي علَى الوَرَى — ثَـائِـراً في تَـهَـكُّـمِـهْ
مِـثْـلَ شَوْقي تُـثـيـرُهُ — غَضْـبَـةٌ مِنْ جَـهَـنَّـمِـهْ
مَا عَلَى النّورِ واللّهَبْ — وَعلى الزّهْرِ في الهَضَبْ
إِنْ أَتَتْ شَاعِرَ العَرَب — نَـائِـحـاتٍ بِـمَـأْتَـمِـهْ

* *

بُـلْـبُـلُ الأرْضِ وَالسّما — نَـاشِرَ الـنّورِ فِـيـهِـمَـا
مَالِـئَ الأَرْضِ حِـكْـمَـةً — وَسَمَـا الـحُبِّ أَنْجُـمَـا
يـا أَخَـا الـمُـعْـدَمـينَ مَا — كُـنْـتَ في الـنّاسِ مُعْدَمَا
إِنّـما الـبُـؤسُ ذُقْـتَـهُ — في فُـؤادٍ تَـأَلَّـمَـا
في نُـفُـوسٍ تَـظَـلَّـمَتْ — وَشُعُـورٍ تَـظَـلَّـمَـا
عِشْتَ كَالنّورِ مُلْهَمَا — وَكَـعَـبّـاسَ مُـتْـخَـمَـا
ثَـمَـنَ الـغَـارِ مَـا دَفَـعْـ — ـتَ دُمـوعـاً وَلا دَمَـا
إِيـهِ شَوْقي فَـحَـافِـظٌ — كَـانَ أَشْقَى... وَأعـظَمَا
كـانَ يَسْـتَـلْـهِـمُ البـؤو — سَ وتَسْـتَـلْـهِـمُ الدّمَى
كُـنْـتَ تُـغْـنِي مُـتَـيَّـمـا — حِـيـنَ يُـغْـنِي مُـيَـتَّـمَـا
عَرْشُكَ الشّعْرُ وَالذّهَبْ — عَرْشُهُ الشّعْرُ والخَشَبْ
آهِ ! في دَوْلَـةِ الأَدَبْ — أيّ مَـلْـكَـيـنِ كُـنْـتُـمَا

* *

عِشْتَ في النَّفْيِ مِثْلَمَا عَاشَ في الخَمرَةِ الحَبَبْ
بَينَ أَسْمَى مِنَ الجَلا لِ وأَشهَى مِنَ الطَّرَبْ
عِشْتَ فِيهِ كَبُلْبُلٍ مَرَّ في العِيدِ وَٱحتَجَبْ
حَامِلاً مِنْ جَنَاحِهِ رَعْشَةَ الحَظِّ في الزَّغَبْ
لَسْتُ أنْسَاكَ طَائِفاً في اليَواقيتِ وَالذَّهَبْ
في قُصُورِ الحَمْراءِ تَسْتَنْـ ـطِقُ المَجْدَ في الخِرَبْ
تَسْأَلُ الفَنَّ، رَافِعَ الرّأ سِ، عَنْ أُسْرَةِ العَرَبْ
فَأَرَى مِنْ أُمَيَّةٍ فِيكَ ظِلاًّ مِنَ النَّسَبْ
ثَمَنَ الغَارِ مَا دَفَعْـ ـتَ دُمُوعاً وَلا تَعَبْ
إِيهِ شَوْقي فَحَافِظٌ كَانَ في بُؤْسِهِ أَحَبّ
كَانَ يُغْني مُيَتَّماً حِينَ تُغْني مُتَيَّما
أيّ مَلْكَيْنِ كُنْتُمَا أمسِ في دَوْلَةِ الأَدَبْ!

الحُرّ

لَبّيْكَ يَا قَلْبِ، مَاضٍ فِيكَ نَاداني   خَبّأتُ في عِطْرِهِ حُبّي وَإيماني
أيّامَ كانَ الهَوَى الغِرّيدُ يَضْحَكُ بي،   وَيَرْتَمي مَرَحُ الدّنْيا بِأَلْحاني
وَكَانَ لِلنّاسِ آمَالٌ مُحَبَّرَةٌ   تَفَكّكَتْ عَنْ كَلاليبٍ وَأرْسَانِ
فَقَدْ دَهَى الحُكْمَ أمْرٌ لا مَرَدَّ لَهُ   هَانَ القَوِيُّ لَهُ، وَٱستَأسَدَ الوَاني
كَانَتْ لَهُ القُرْعَةُ الحَمْقاءُ في بَلَدٍ   بَلا النّقِيضَينِ مِنْ جَهْلٍ وَعِرْفَانِ
فكَانَ كَٱلجَهْلِ للعُرْفَانِ عَجرَفَةٌ،   وَكَانَ للجَهْلِ كَٱلْعِرْفَانِ عُرْفانِ
عَذيرُهُ وَمْضَةٌ في لَيْلٍ مُدّلِجٍ،   بَاقٍ لَهُ أَمَلٌ، في قَلْبِ حَيْرانِ
كَسائِحٍ ضَلَّ في صَحْراءَ مُحْرِقَةٍ   كَأَنَّها قَلَقٌ في حُلْمِ ظَمآنِ!
يَمْشي، وَللنّارِ في أجْفانِهِ زَبَدٌ   عَلى لَظَى الرّمْلِ، مِنْ وَادٍ لِوِدْيَانِ
وَلِلسَّرابِ خِيانَاتٌ عَلى فَمِهِ   كَأَنَّها هُزْءُ شَيْطانٍ بِإِنْسانِ
حَتّى أصَابَ سَرَاةَ العَصْرِ نَاحِيَةً   يَمُجُّ فِيهَا سَحَابَ الظِّلِّ كَهْفَانِ
فَمَا تَخَيّرَ، بَلْ أهوَى عَلى ظَمَإٍ،   فَصادَفَتْ شَفَتَاهُ حَلْقَ ثُعبانِ

* *

في ذَلِكَ الزّمَنِ العَاتي لَبِسْتُ فَتىً   أَلَمّ في خُلْقِهِ أَمْجَادَ غَسّانِ
مِنْ سَالِفِ الكَرَمِ المَسلُوخِ عَنْ يَدِنَا   بَاقٍ على يَدِهِ إيماءُ إدْمانِ
أَحْلامُ لُبنانَ أَجْسادٌ على فَمِهِ   كَأَنَّ لُبنانَ لَمْ يبرحْ كَلُبْنانِ
تُصْغي إلى السّحْرِ يُحْيِيهِ بِهِ، فَتَرى   في كُلِّ رَابِيَةٍ بَعْثاً لإيوانِ
وَلَيْسَ كَالفألِ في الآدابِ داعِيَةٌ   لِهَدْيِ حَيْرانَ، أَوْ تَنْبِيهِ وَسْنَانِ
وَكَالخَيَالِ لِسَانٌ يُسْتَفَزُّ بِهِ   شَعْبٌ أَبِيٌّ إلى تَجْديدِ بُنْيانِ
وَكَانَ أَنَّ البَيَانَ الحُرَّ في دَمِهِ   أَشَاعَ حِقْدَ اللّظَى في الحَاكِمِ الجَاني
فَقَالَ: نَهْجُكَ في مَا تَدّعي خَطَرٌ   عَلى الرّعِيّةِ، يَحْدُوها لِعِصْيَانِ
أَمَا سَمِعْتَ صُدُورَ الشّعْبِ تَهْتِفُ لي؟   فَالشَّعْبُ مِلْكِيَ، وَالأَيَّامُ أعْواني!
فَأَغْمَدَ الحُرُّ في عَيْنَيْهِ قُوّهَةً   مِنْ نَاظِرَيْهِ، كَبُرْكَانٍ بِبُرْكَانِ
وقَالَ: مِلْكُكَ لَيسَ الشّعب، يا مَلِكي   فَلَسْتَ تَمْلِكُ إلّا بَعْضَ عُمْيانِ!
كُنْ مَنْ تَشَاءُ، كُنِ الدُّنيا بكامِلِهَا   فَلَسْتَ تَعْدِلُ صِدّيقاً بِميزاني

* *

جَمَالُ قَلْبي عُرْيَانٌ على شَفَتي   وَنُورُ نَفْسي مَعْقُودٌ بأجفاني
وكَيْفَ أَكْذِبُ، وَالدّنيا تُصَارِحُني   حَتّى قُشُورِيَ، حتّى جِسْميَ الفَاني
أَنْظُرْ إلى النّهْرِ في صَفْوٍ وَفي كَدَرٍ   فَهَلْ تَخَفّى عَلى الصّفْصافِ وَالبَانِ؟
لِلنّورِ في كُلِّ مَجْرىً مِنْهُ مِصْقَلَةٌ،   وَكُلِّ مُنْعَطَفٍ للحُبِّ تَدْيَانِ
وَأَنْظُرْ إلى حَرَمُونَ الشَّيْخِ كَيْفَ بَدا   فَهَلْ لِهَيْبَتِهِ الشّمّاءِ وَجْهَانِ؟
فَذَلِكَ الجَبَلُ الجَبّارُ أَطْعَمَني   قُوتَ النّسُورِ، وهَذا النّهرُ رَوّاني

* *

خَفِّفْ عُتُوَّكَ وَٱغْسِلْ قَلْبَكَ الجَاني لِلظُّلْمِ يَوْمٌ وَلِلْمَظْلومِ يَوْمانِ
عَرْشُ العَتيِّ على بُرْكَانِ مُنْكِرِهِ شَتيمَةٌ رَخَمَتْ في قَلْبِ سَكْرانِ
مَا كانَ سُلطَانُ هذا الشَّعْبِ سَيِّدَهُ، إِنَّ السِّيادَةَ مَا ٱحتاجَتْ لِتيجَانِ
هَذي الرَّعيَّةُ، مَهْمَا تَطْغَ، نافِرَةٌ وَمَنْ تَكُنْ لَسْتَ فيها غَيرَ سُلطانِ...
تَعْصي ضَميرَكَ والدُّنْيا تُنَاطُ بِهِ وَحِينَ أَعْصي ضَلالاً فِيكَ تَنْهاني!
فَٱخْلَعْ وَبَدِّلْ، لكَ الحِرْباءُ قَاعِدَةٌ، لَكَ الوداعةُ والطّغيانُ ثَوْبَانِ
مَنْ أَنْتَ؟ أَنْتَ يَدٌ سَوْداءُ ما ٱرتَفَعَتْ إِلّا لِتَفْريقِ أَحْبابٍ وَإِخْوانِ
مِنْ أَينَ أنتَ؟ مِنَ الفَحْشاءِ! لوْ شَعَرَتْ رُوحي بِهَا لَمْ أَبِعْ سَهْلي وأظْعاني
مَنْ جاءَنا بكَ؟ حُمْقُ الشّعبِ، يا مَلِكي لا بُؤسُهُ، فَبكَ الهدّامُ لا البَاني
لَقَدْ بَطِرْتَ فَلَمْ تُستَرْ مُخَدَّرَةٌ، وَقَدْ زَنَيْتَ فَلَمْ يَهنَأْ حَبِيبَانِ!
لَكَ الحُسامُ عَلى رأسي تُسَرِّحُهُ، وَلي عَلَيْكَ وَلَوْ حُجِّبْتَ عَيْنَانِ!
لَمْ يَبْقَ غَيرُ ثِمارٍ مِنْكَ فَانِيَةٍ، خَدائِعٌ نَتَنَتْ في بَعْضِ عِيدانِ
أَمَا سَمِعْتَ هُبوبَ الرّيحِ؟ إِنَّ لَهُ صَدَى تَزَحُّفِ أَشْباحٍ وَأَكفانِ!

* *

فَدَمدَمَ الحاكِمُ الغَضْبانُ، وَٱرْتَسَمَتْ عَلَيْهِ أشبَاحُ غِيلانٍ وَحِيتانِ
وَأَصْدَرَتْ نَفْسُهُ مَا في قَذارَتِها الحَمْراءِ مِنْ شَهْوَةٍ للأَحْمَرِ القَاني
وَصَاحَ: إِنْ يَكُ ذَا حَدٍّ لِسَانُكَ بي فَلي لِسانٌ عَلَيْهِ المَوْتُ حَدّانِ
فَحَمْلَقَ الحُرُّ في العاتي، وَقَالَ لَهُ: أَقْضي غَداً أَوْ أَموتُ اليَوْمَ سِيّانِ
فكُلُّ ما أَبْتَغي أنْ لا تُقَاطِعَني! دَعْني أُكَمِّلْ دِفَاعِي أَيُّها الجاني!

فيلكس فارس

تُذَكِّرُني ، وَحقِّكَ ما نَسِيتُ ... وَهَلْ أَنْسى شُجُونَكَ ما حَيِيتُ

أُحِسُّكَ في الحَرارَةِ مِنْ حَنيني ... كَأَنَّكَ في غَليلِ دَمي تَبِيتُ

وَأَسْمَعُ مِنْكَ مَا أَسْمَعْتَ قَلْبي ... وَقَدْ غَدَرَ الحَبيبُ المُستَميتُ

يُغَرِّقُ مِنْ عُيُونِكَ في عُيُوني ... هَوىً ساهٍ وَوِجْدانٌ شَتِيتُ

تَقولُ : «أَرى على وَقْبَيْكَ خَمْراً ... إذا وُصِفَتْ تَنَكَّرَتِ النُّعوتُ

أَخافُ عَلَيْكَ مِنْ دَمِها فَإِنّي ... بَذَلْتُ لها الحَياةَ وَما رَوِيتُ

هَوَاكَ هَوايَ ، قَلْبُكَ مِثْلُ قَلْبي ... كَمَا تَهْوَى عَلى مَضَضٍ هَوِيتُ

سَلَكْنَا مُعْضِلَ الدُّنْيا» — وَلَكِنْ ... شُفِيتَ مِنَ الشَّقَاءِ وَمَا شُفِيتُ

تُرابُ القَبْرِ أَسلَمُ مِنْ فِراشٍ ... عَلى جَنْبَيْهِ ثُعْبانٌ وَحُوتُ

رَأَيْتُكَ تَملأُ الدُّنْيا ضِياءً ... وَفي عَيْنَيْكَ تَحْتَرِقُ الزُّيُوتُ

وتَفْنَى في المَحَبَّةِ وَهْيَ بِكْرٌ ... وَيَسْمَنُ حَوْلَكَ البُغْضُ المَقيتُ

وَقَلْبُ الحُرِّ آفَتُهُ هَواهُ وَآفَةُ وَحْيِهِ الأَدَبُ النّحيتُ
فَفيهِ يُحَقَّرُ الخَزُّ المُوَشَّى وَيُكْرَمُ في سِواهُ العَنْكَبوتُ

* *

تَكَلَّمْ يا فليكْسُ فَنحنُ صَرْعَى وَفي أعْماقِنَا حُلُمٌ يَمُوتُ
وَعَلِّمْ كَيْفَ تُكْتَسَبُ المَراقي وكَيْفَ تُشادُ للأُمَمِ البُيوتُ
وَكَيْفَ صَواعِقُ الأفْكارِ تَهْوي وَكَيْفَ يُجَلْجِلُ الشَّعْبُ الصَّموتُ
أُفَتِّشُ في سُكُوتِكَ عَنْ بَيَاني فَيُخْرِسُهُ بِرَوْعَتِهِ السّكُوتُ
وَأَبحَثُ عَنْ شُعاعِكَ في سِراجي وَلي مِنْ زَيْتِكَ العُلْويِّ قُوتُ

* *

سَمِعْتُ المِنبَرَ المَحزُونَ يَشْكُو فَتَتَّضِعُ الأَرائِكُ وَالتّخُوتُ
يَقُولُ: «رُزِقْتُهُ أشْهَى طَعَامي وَلَمّا ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ قَوِيتُ
أَبَرُّ الوُلْدِ بِٱلآبَاءِ خُلْقاً وَأَقْرَبُهُمْ إليّ إذا زُهيتُ
عَلى عُرْيي نَمَا أَمَلاً وَلَمّا أَظَلَّتْني ذِراعاهُ كُسيتُ
وَكَانَ وكُنْتُ صَمْصاماً وَغِمْداً تُجَلِّلُني البُرُوقُ إذا عَريتُ
يَلُفُّ وَتينُهُ خَشَبي فَيَحْيَا وَيَنْبُضُ لي بِهِ شَرَفٌ وَصيتُ
وَكُنْتُ أَوَدُّ لو ذُوِّبْتُ نَوْطاً لَهُ وإلى سَريرَتِهِ رَقيتُ
وَنَوْطُ البَعْضِ تُحرِمُهُ الأَعَالي وَيُمْنَحُهُ الزّبانِيَةُ التّحُوتُ»
سَمِعْتُ عَروسَ شِعْرِكَ في خَيَالي تَقُولُ: «عَشِقْتُهُ حتّى ٱشْتَهَيْتُ
فَفي عَيْنَيْه ذَوْبُ السّحْرِ يُرْغي وَفي أهْدابِهِ المِسْكُ الفَتيتُ

بَذَلْتُ لَهُ الخَطايا مِنْ عُرُوقي وَحِينَ لَمَسْتُ مِرْشَفَهُ نَقِيتُ
وأَطْلَقْتُ الرَّوِيَّ لَهُ جَواري، قِيانٌ في مَزاهِرِهَا رَبيتُ»

* *

سَمِعْتُ بِلادَكَ الثَّكْلى تُنَادي: «لِيَ الغِطْرِيفُ والرَّجُلُ الثَّبيتُ
لِيَ الأنْوارُ في عَنَتِ اللَّيالي إذا ما رَاغَتِ الدُّنْيا العَنُوتُ
لِيَ الفُصحَى على أَدَبٍ بَليغٍ وَمِنْ أَلْبانِ ثَدْيَيْها سُقيتُ
وَلَيْسَ لِيَ الضَّواري في خُدُورِي تَسَرَّتْني وَكَالسِّلَعِ اقْتُنيتُ
يُقَعْقِعُ في مَشَافِرِهَا سَمِيجٌ وأدرَدُ أَشْنَعُ الدَّعْوى هَرِيتُ
عَذيري مِنْ مَمَاليكٍ مَوَالٍ لَهُمْ خُطَطٌ وَلَيسَ لَهُمْ سُموتُ»

* *

سَمِعْتُ القَبْرَ يَنفُثُ مِنْ دُجَاهُ حَدِيثاً فيهِ أشْجاني الخُفوتُ
يَقُولُ: «إليَّ يَأتي كُلُّ حَيٍّ وَيَبْقى في تُرابي مَا بَقيتُ
يُقيمُ اثْنانِ في دُنْيا سُكُوني فَتىً يَفْنَى وَآخَرُ لا يَمُوتُ»

بشر بن عوانة

أَتَجْهَلُ قَدْرَ بِشْرٍ؟ إنَّ بِشْرا لأَرْفَعُ مِنْكَ في النّاسُوتِ قَدْرَا
نَمَا بَيْنَ الأَبَاعِرِ في البَراري وَغَيرَ الكَهْفِ لَمْ يَعْرِفْ مَقَرّا
وَلَكِنْ حَلَّ في بُرْدَيْهِ وَحْيٌ كَفَاكَ تَفاخُراً وَكَفاهُ فَخْرا
وَهَلْ في بُرْدَتَيْكَ سِوَى دَعِيٍّ تَسَوَّدَ في القَبيلَةِ حِينَ أَثْرى؟

* *

رَأَتْ بِشْراً عَجُوزٌ ذاتَ يَوْمٍ وَقَدْ حَزَرَتْ بِهِ وَطَراً وأَمْرا
فَقَالَتْ: «أَنتَ تَبحَثُ عَنْ عُروسٍ وَبِابْنَةِ عَمِّكَ المِضْيافِ أحرَى.»
فَقَالَ لَهَا: «وَهَلْ هيَ ذاتُ حُسْنٍ؟» فَقَالَتْ: «إنَّها في الحُسْنِ بُشْرى
لَهَا شَعْرٌ كَأَنَّ اللّيلَ مِنْهُ تَمَنَّى البَدْرُ فِيهِ أنْ يَمُرّا
كَأَنَّ ذُؤَابَتَيْهِ حِبَالُ أَسْرٍ تُشَدّ بِهَا قُلوبُ العُرْبِ أَسرَى.»
فَخَفّ لِعَمِّهِ نَشْوانَ جَذْلاً وَكَاشَفَهُ، فَلاقَى مِنْهُ زَجرَا
فَقَالَ لَهُ: «أَبَيْتَ اللّعْنَ، قُلْ لي أَفَاطِمَةٌ لِغَيرِ دَمِي تُسَرّى؟

أَتَـأباهَا عَـليٌّ وَمِـنْ ذِراعِـي لآمَـالِ الـقَـبيلِ عَمِلْتُ جِسرًا؟
فَمَنْ لَكَ في الرَّعِيَّةِ غَيرُ بِشْرٍ يَـرُدُّ غَـوائِـلَ الـغَزَواتِ حُمْـرَا؟
وَكَـمْ بِكْرٍ وَهَبْتُكَ مِنْ دِمَائي وتَأبى، يا ظَلومُ، عَليَّ بِكْرَا.»

* *

وَهَامَ مُشَعّثَ الأحْلامِ غَـيْظاً يُـخَرِّبُ تَـارةً وَيَـعُـجُّ أُخْـرى
وَثَــارَ عَلى قَـبـيـلَـتِـهِ بِضُـرٍّ فَـكَـانَ الذّئْـبَ فَتْكاً أوْ أَضَرّا
فَضَـجَّ بَـنُـو الـرّعِـيَّةِ مِنْ أذَاهُ وَأَوْجَسَ عَـمّـهُ خَـوْفاً وَذُعْـرَا
فَـقَـرَّبَـهُ إِلَـيْـهِ ، وَقَـدْ تَـحَرَّى لَـهُ شَرَكـاً لِـيُـوقِـعَ فِـيهِ ذِمْرَا
وَقَالَ لَهُ: «إذا مَا كُنْتَ شَهْماً أَنِلْني مِنْ خُزاعَةَ مِنْكَ مَهرَا.»
فَـدَبَّتْ سَوْرَةُ الـعَـرَبِيِّ فِـيـهِ وَأَسْرَجَ مُـهْـرَهُ حَـتّـى يَـكُـرَّا
وَجَـنَّـبَ في حِـمَـالَـتِهِ جُـرازاً لَهِيبُ المَوتِ يَنفُثُ مِنْهُ جَمْرَا
وَكَـانَ الـنجَوُّ مُـرْبَـدّاً رَهـيـبـاً كَـأنَّ مِنَ الجَحيمِ عَلَيْهِ سِتْرَا
فَـسَامَـرَهُ حَـفـيـفُ الغَابِ حِيناً وَحِـيـنـاً سَامَـرَتْهُ طُيوفُ ذِكْرَى
وَفيـمَـا بِشْـرُ يَطْوي البِيدَ طَيّاً وَيَــنْـشُـرُهـا عَلى الآمَـالِ نَشْـرا
إذا بـالـمُـهْـرِ أجْـفَـلَ وَاعـتَـرَاهُ جُـمُـودُ دُمـىً وأَحْجَمَ وَاقْشَعَرَّا
فَـأَغْـمَـدَ في الـدّيَـاجي نَاظِرَيْهِ فَـأَبْصَـرَ في ثَـنَـايَاهَـا هِزَبْـرَا
وَفـاضَـتْ نَـشْـوةً مِـنْ مُـقْـلَـتَـيْـهِ مُشَعْشَعَةٌ فقالَ: «عُقِرْتَ مُهرَا.»
وَحِينَ جَذا انتَضَى السّيْفَ المُرَوّى وَقَالَ: «اثْبُتْ فَإِنَّكَ لَنْ تَفِرَّا
فَـلَسْتُ بِراجِعٍ يَا لَيْثُ حَتّى يَصِرَّ بِكَ الذّبابُ الغَثّ صَرَّا.»

* *

وَأَقْدَمَ مُثْبِتَ الأَبصارِ فِيهِ فَكَانَ كِلاهُمَا أسَداً تَسَرّى
وَكانَ اللّيْثُ يَفْرَقُ مِنْهُ طَوْراً وَيَبْسُطُ تَارَةً لِلْوَثْبِ ظُفْرَا
وَفي أَلحاظِهِ لَهَبٌ غَضُوبٌ يُراشِقُهُ بِهِ شَفْعاً وَوِتْرَا
يَنِشُّ بِشِدْقِهِ زَبَدٌ حَرُورٌ وَيَنْفُثُ صَدْرُهُ حُمَماً أَحَرَّا
وَضَجَّ الغابُ فَالدّنْيا صِراعٌ تُفَجّرُ في رُواقِ اللّيْلِ شَرّا
وَحينَ رَآهُ أَرْسَخَ مِنْهُ بَأساً تَذَأبَ وَالغَضَنفَرُ كَانَ حُرّا
وَأَطلَقَ بِشْرُ مُنْصَلَهُ عَلَيْهِ «فَقَدَّ لهُ مِنَ الأَضلاعِ عَشْرا.»
وَثَارَ الكَونُ ثَورَتَهُ فَأَلْقَى عَلى اللّيلِ الحُسامَ فَدارَ فَجْرَا
وأَسْكَرَ مَشْهَدُ الضِّرْغَامِ بِشْراً وَكَمْ شَرِبَ الدّمَ المُهراقَ خَمرَا
فَقَدَّ قَميصَهُ عَنهُ وأَمْلَى عَلَيْهِ بِالدَّمِ المَطْلُولِ شِعْرَا:
«أَفاطِمَ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ وَقَدْ لاقَى الهِزَبْرُ أَخاكِ بِشْرَا.»

* *

وَوَالى سَيْرَهُ يَمْتَلُّ فِيهِ لِيَبْلُغَ مَأرَباً قَدْ كَانَ وَعْرا
وَأَنْداءُ الصّباحِ تَفوحُ طِيباً وَيَسْكُبُهَا النّسيمُ عَلَيْهِ عِطْرا
وَفيمَا الحُبُّ يَنْهَبُهُ عَرَاهُ فَحِيحٌ مَرَّ في أُذُنَيْهِ مَرّا
وَأَبْصَرَ حَيَّةً طَلَعَتْ عَلَيْهِ مِنَ الأَدغالِ مِثْلَ التُّرْبِ سَمرَا
أَذَابَ الصُّبحُ خَمْرَتَهُ عَلَيْهَا فَمَالَتْ مِنْ خُمُورِ الصّبْحِ سَكْرَى
وَشَعَّتْ كَالزُّجَاجِ وَقَدْ تَلَوَّتْ عَلى أعْشَابِهَا بَطْناً وَظَهْرَا
فَقَالَ: «أخُوكِ كانَ عَليَّ وِقْراً وَلَكِنْ أنْتِ أثْقَلُ مِنْهُ وِقْرَا
فَهَلْ بُعِثَتْ بِهِ رُوحٌ تَرَدَّتْ بِجِلْدِ الأَفْعَوانِ تَرُومُ ثَأرَا؟»

وَلاقَـاهَـا بِصَـدرٍ رَاضَ صَـبْـراً وَلاقَـتْـهُ بِصَـدْرٍ ضَـاقَ صَـبْـرَا
فَكَـانَـتْ تَـنْـثَـني عَـنْـهُ ٱغْـتيـالاً وَتُـنْـشِـبُ رَأسَهَـا لِلْفَرْسِ غَدْرَا

* *

«تُـرَى مَاذا يَحُلُّ بِنَا إذا مَا أُصيبَ بِـنَـكْـبَةٍ ؟ اللهُ أدْرى
فَبِشْـرٌ مَـرْجِـعُ الفُـرْسانِ فِينَا وَحَـامِـيـنَـا إذا الـجَـوُّ ٱكْفَهَـرَّا
بَعَـثْـتُ بِـهِ إلى حَـتْـفٍ ذَميمٍ كَـأنّـي لِـلْـقَـبِيْلِ حَفَرْتُ قَبْرَا
فَإنْ يَسْلَمْ مِنَ الأسَدِ ٱبنِ داذا فَلَنْ يَنْجُو مِنَ الأفْعى طِمِرّا.»
وَشَمَّـرَ لِـلِّـحَـاقِ بِـهِ، وَكَـانَتْ دِمَـاهُ تُـثـيـرُهُ وَالـعَـيْـنُ شَـكْـرَى
عَلى فَـرَسٍ كَـأنَّ الـجِنَّ تَعْدُو بِـرِجْـلَـيْـهَـا فَـتَـخْـتَـفِـيَـانِ سِـحْـرا
وَلَـمَّـا أدْرَكَ ٱبنَ أخـيـهِ حَـيّـاً يَرُوغُ الوَحْشُ مِنْهُ جَذا وَخَرّا
وَقالَ: اعْدِلْ عَنِ الأفْعَى فَإنّي رَأيتُكَ أرْحَبَ الأعْرابِ صَدرَا
لأنْتَ أَحَـقُّ مِـنْ أُمَراءِ قَوْمي بِفَاطِمَةٍ فَكُنْ لي ابْناً وَصِهْـرَا.»
فَـأَلْـهَـبَـتِ الـحَـماسَـةُ كَـفَّ بِشْرٍ فَـصَـعَّـدَ سَيْـفُهُ المَصْدُورُ جَمْرَا
وَأَطـعَـمَ خَـصْـمَـهُ يُـسـرَى يَدَيْهِ وَأَجْرَى المَوْتَ مِنْ يُمْنَاهُ نَهْرَا
فَـقَـبَّـلَ عَـمُّـهُ يَـدَهُ بِـحُـبٍّ وَقالَ: «أَتَيْتُ أَطْلُبُ مِنْكَ عُذْرَا
ألا عُدْ بي إلى حَيْثُ السّرَايَا تُـقـيـمُ لِـعُـرْسِكَ الـيَـوْمَ الأغَرّا
فَقَدْ شَهِدَتْ صُخورُ الغابِ يا ٱبني بِـأَنَّكَ فَـارِسُ الأَعْرابِ طُرّا.»

* *

وَعَـادَا والـغُـصُـونُ تَـمـيـلُ تيهـاً كَـأَنَّ بِـهَـا لِمَا شَهِدَتْهُ سُكْـرَا

وتَعْطِفُ في الطَّريقِ على يَدَيْهِ تُقَبِّلُ مِنْهُما يُمْنى ويُسرى
وَإِذْ كانَا يَجوبانِ البَراري وَيَنْشُرُ بِشْرُ آيَ الفَخْرِ نَثْرا
إذا بِمُلَثَّمِ العَيْنَينِ نَجْدٍ تَعَرَّضَ في الطَّريقِ لهُ مُصِرّا
وَقَالَ: «كفاكَ تَفخَرُ يا عِصاماً فَفَخرُكَ مَرَّ في أُذُنَيَّ فَجْرا
قَتَلْتَ بَهيمَةً وقَتَلْتَ سُوساً وَتَملأُ مَاضِغَيْكَ قَذىً وَنُكْرا؟»
فقالَ: «وَمَنْ تكونُ؟ فقال: «إنّي نَذيرُ المَوْتِ جِئْتُ إِلَيْكَ جَهْرا
أَنا دَهْرٌ وَأَيَّامي سَعِيرٌ إذا نَازَلْتَني نَازَلْتَ دَهْرَا!»
وفي غَضَبٍ تَبَدّى المَوتُ فِيهِ عَلى سَيْفَيْهِمَا كَرّاً وَفَرَّا
أَصَابَ مُلَثَّمُ العَيْنَيْنِ بِشْراً فَأحْجَمَ عَنهُ إخفاقاً وَقَسْرا
وَصَاحَ بِهِ: «أَبَيْتَ اللّعْنَ فَٱرْفَعْ لِثَامَكَ لا تَظَلَّ عَلَيَّ سِرّا.»
فَقَالَ الخَصْمُ، وَهْوَ يُميطُ سِتْراً: «أَنا ٱبنُكَ فَٱنْظُرِ الوَلَدَ الأَبَرَّا.»
فَعَاوَدَ بِشْرَ تَذْكاراتُ عَهْدٍ تَصَرَّمَ تَارِكاً في الصَّدْرِ ذِكْرى
وَقَبَّلَهُ وَقَالَ: «أَراكَ يَا ٱبْني بِفَاطِمَةَ ٱبنَةِ الأعمامِ أَحرَى.»

الحجر الحي

أمام تمثال فوزي المعلوف

أطْبِقْ جَنَاحَيْكَ مَعقوداً لكَ الظّفَرُ فَقَدْ وَصَلْتَ وَشَوْطُ المَجْدِ مُختَصَرُ
مَا ضَرَّ وَكرَكَ أنْ تأتيهِ مُنْطَفِئاً مَا دامَ قَلبُكَ في جَنْبَيْهِ يَستَعِرُ
أَلَيسَ مِنْ رِيشِكَ المَحبورِ مُطرَفُهُ هَذِي الفِراخُ عليْها الأَبْرُدُ الحُبُرُ
تَركْتَهَا وَعَلى أَكتَافِهَا زَغَبٌ وَجِئْتَها وَعَلى أَبْدانِها أُزُرُ
هَذِي البواكيرُ ما أَوْرَدْتَ سُحرَتَها إلّا لِيُخْصِبَ في آصالِها الصَّدَرُ
قَذائِفُ لَنْ يُرَى فَجْرُ النّسورِ عَلى أحْلامِها البِيضِ إلّا حِينَ تَنفَجِرُ
أَتَيتهُ في النّحاسِ الحَيِّ طَيِّبَةً عَلَيْهِ مِنْ رُوحِكَ الأَعْراقُ والسُّرُرُ
عَيْناكَ في الحَجَرِ المَصبوبِ سَاهِرَةٌ يَقْظانَةٌ فِيهِما أحْلامُكَ الغُرَرُ
تُواجِهُ الليلَ هَوْلَ الرّيحِ صَاخِبَةً مَا ضَرَّكَ الذّئبُ جَوْعاناً أوِ النَّمِرُ
نِيرانُ عَبْقَرَ في عَينَيْكَ إنْ مَرَدَتْ هُزَجُ الدّجى فعَلى عَينَيْكَ تَنْصَهِرُ
مَهْما طَغَى اللّيلُ لا تُشْقيكَ زَوْبَعَةٌ وَلا يُجَهِّمُ في أَجفانِكَ الحَوَرُ
صُلْبٌ على الدّهرِ لا تَهْوي صَواعِقُهُ إلّا عَلَى جَانِبَي وَقْبَيْكَ تَنتَحِرُ

يَقظانُ والناسُ عُمْيٌ في مَراقِدِهِمْ سِيّانِ نامُوا عَلى ذُلٍّ أَمِ ٱحْتُضِرُوا
عارٌ عَلَيْنَا نَنامُ اللّيلَ هَانِئَةً عُيونُنا، وعُبابُ الليلِ مُعتَكِرُ

* *

لَمْ يَبْقَ مِنْ رُومةٍ إلّا صَغَائِرُهَا وَمِنْ قَياصِرِهَا إلّا دُمىً كِسَرُ
وتَشْهَدُ الصّبحَ عُرسَ الصّبْحِ مُنْعَقِداً عَلى جَبِينِكَ نُورٌ مِنهُ يَنْضَفِرُ
وَلائِمٌ لَكَ تُزْجى، مِنْ مَوائِدِها العِطْرُ والنّورُ والألحانُ والصُّوَرُ
وَالشّمسُ بالجفنَةِ الخَضْراءِ عَاشِقَةٌ مِنْ مِرْشَفَيها دَمُ العُنقُودِ يَختَمِرُ
وَالدُّلبُ - كِنّارةُ الأنْسامِ - مُرْتَعِشٌ فِيهِ لِكُلِّ نَسيمٍ عابرٍ وَتَرُ
تَشُدُّ جَفْنَيْكَ رُؤيا لا قَرارَ لهَا كأنّما الغَيْبُ في عَينَيْكَ مُنحَصِرُ
عَيْنُ العَظيمِ ضِياءُ الأنْبياءِ بِهَا مَرَّ الجَحيمُ وَلَمْ يُطْرَفْ لهَا بَصَرُ
رَفَعْتَ عَنْكَ سِتَارَ النّاسِ مُنتَفِضاً أَيَحْجُبُ الخُلْدُ مَنْ يَبْلى وَيَنْدَثِرُ
هَذي السّتارَةُ كانَتْ في تَشَدُّدِها عَلَيْكَ آخِرَ قَيْدٍ شَدّهُ البَشَرُ
كأنَّها، وهْيَ تُنضَى، خِلعَةٌ كَذَبَتْ مِنَ الفَناءِ لِحاءٌ عَنْكَ يُقتَشَرُ
مُنْذُ ٱبنِ مَرْيَمَ والأكفانُ هَاوِيَةٌ عَنِ النُّبوغِ وصَخرُ القَبرِ مُنْحَدِرُ
كَمْ في بلادِكَ مِنْ نَفْسٍ تَوَدُّ عَلى وَقَاحِ عَوْرَتِهَا أَنْ تُسدَلَ السُّتُرُ

* *

جَاءَتْ عَروسُكَ في حُلْمي تُخاطِبُني يَصُونُها المَلَكَانِ : الحُبُّ والخَفَرُ
شَبابُها قُبَلُ الأجْيالِ في دَمِهِ كَأنَّهُ بِجَمالِ اللهِ مُؤتَزِرُ
في مُقْلَتَيْها نُجومٌ للهَوَى جُدُدٌ وَفي يَدَيْها نُجومٌ لِلْعُلى أُخَرُ

مِنْ جَنَّةِ الحُبِّ غَرْسُ الخَيرِ ما نبَتَتْ   –لَوْ ذَاقَتِ الأَرْضُ مِن أَثمارِهِ– سَقَرُ
قالَتْ: ثِمارِيَ لَمْ تُبذَلْ لِغَيرِ فتىً   جَرَتْ بِهِ الدَّعَةُ الخَضْراءُ وَالكِبَرُ
كَمْ شاعِرٍ نَوَّرَتْ في رُوحِهِ قُبَلي   فَكُلُّ قُبلَةٍ حُبٌّ مِنْ فَمي قَمَرُ
وَلَمْ أَطَأْ قَلبَهُ إلّا عَلى زَهَرٍ   وِسادَتي وَفِراشي قَلبُهُ العَطِرُ
وَكَمْ فتىً بَطِرَ الإلهامُ في دَمِهِ   فَقامَ يَغْصِبُني في شِعْرِهِ البَطَرُ
أطْعَمْتُهُ شَفَتي حِيناً فَسَاوَمَ بي   كَأَنَّني سِلْعَةٌ تُشْرَى وتُحتَكَرُ
لمّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ مِعْطَفي خَجَلاً   صَارَ الحُطَيئَةَ في أَحْقادِهِ عُمَرُ

* *

أَبَا النّسورِ، سَقَيتَ المَوتَ خَمرَتَهُ   فَصُلبُكَ المُصْطَفى لِلخُلْدِ مُدَّخَرُ
ما ضَرَّ نَسرَكَ لمْ يُعْقِبْ وَقَدْ نُسِلَتْ   مِنْهُ النّجُومُ، فَفَوْزي وَحْدَهُ أُسَرُ
لَرُبَّ حَيٍّ غَدا في قَوْمِهِ حَجَراً   وَرُبَّ مَيْتٍ غَدا حَيّاً بِهِ الحَجَرُ

شاعر الليالي

إلى روح الياس فياض

مُلْقِي النورَ قبلَ عَهْدِ البُدُورِ　　فهْوَ شَطْرٌ مِنَ الضّياءِ الكَبيرِ
أَطلَعَ اللهُ في الحياةِ رِجَالاً　　غَمَرُوا لُجَّةَ الظّلامِ بِنُورِ
هُم بُدُورُ الأجيالِ، هُم شُعراءُ الـ　　أرضِ هم كَهْرباءُ هَذا الأَثيرِ
كُلّما ذَرَّ شاعِرٌ في سَمَاءٍ　　شعَرَ اللّيْلُ بانْقِلابٍ خَطيرِ
إِنّما الشّاعِرُ الحَقيقيُّ يَشْقَى　　بِمُجاجَاتِ زَيْتِهِ المَنْذُورِ
كالمَنارَاتِ تَبْعَثُ النّورَ في اللّيْـ　　ـلِ وَتَشْقَى في الشّاطئِ المَهْجُورِ
أَوْ دُخَانٍ مِنَ المَجَامِرِ يَرْقَى　　حامِلاً للنّفوسِ عِطْرَ البَخورِ
هُوَ مِنْ نَزْوَةِ النُّبُوغِ أَذانٌ　　أنْ يَرى البُؤسُ شُعْلَةً في الصّدُورِ
وَقَضَاءٌ لِلعَبْقَرِيَّةِ أَلّا　　يَبْسِمَ المَجدُ في جَناحِ النّسُورِ
هَكَذا الحِكْمَةُ الخفِيَّةُ شاءَتْ　　فَهْيَ تُخْفي أقباسَهَا في الضّميرِ
تَمْنَعُ النّورَ عَن عُيونِ السّلاطِـ　　ـينِ وتُعطِيهِ لِلْمَعَرّي الضّريرِ

* *

أوْحَشَ الرّوْضُ في الخَريفِ فَلا تَسْـ ـمعُ فِيهِ أُغْرودَةً لِلطُّيورِ
وَالزُّهُورُ الّتي تَنَشَّقْتَ رَيّا هَا تَخَلَّتْ عَنْ خِدْرِهَا لِلصُّخُورِ
وَسُقُوطُ الأوراقِ يَسلُخُ في الفَجْـ ـرِ بَقَايا الآمالِ في المَصْدُورِ
أَيْنَ تِلْكَ الزّهُورُ يَنْفرِطُ الصّبْـ ـحُ عَلَيْهَا بِاللُّؤْلُؤِ المَنْثورِ
يَذْبُلُ الزَهْرُ في الخَريفِ وَيُبْقِي لِبُذُورِ الرّبيعِ بَعْضَ عُطُورِ
هَكَذا الشّاعِرُ المُحَلِّقُ إذْ يَمْـ ـضِي وتَبْقَى آثارُهُ لِلدُّهُورِ

* *

لَمْ يَمُتْ شَاعِرُ «اللّيالي» فَعَينا هُ تَشعّانِ في «الكِتابِ الصّغيرِ»
رُبَّ سِفْرٍ أضاءَ هَيْكَلَ نُورٍ خَلَدَتْ فِيهِ مُقْلَتَا شِكْسبيرِ
رُبَّ سِفْرٍ مَحَا قُصُورَ الدّهاقيـ ـنِ وَأَعْلى بالمَجْدِ كُوخَ الفَقيرِ
لا يَموتُ «الفَيّاضُ» وَالشِّعْرُ حَيٌّ وَعَلى البُؤسِ بَسْمَةٌ لِلثُّغُورِ
وَعَلى مَحْجَرِ اليَتيمِ مِنَ القَلْبِ دِماءٌ مَحْمومَةٌ بالزّفيرِ
وَقُلوبُ الشّبابِ تَنْبِضُ لِلْحُـ ـبِّ وتَأْوي إلى عَذارَى الخُدُورِ

* *

لا يَموتُ الفيّاضُ مَا دَامَتِ الأر واحُ تَهْتَزُّ لاخْتِلاجِ الضّريرِ
وَجَمالُ الأفكارِ مِنْ مُحْرِقاتِ الـ ـقَلبِ يَمْتَدُّ في شُعاعٍ طَهُورِ
وَالسّماعُ الطّافي عَلى وَتَرِ الشِّعْـ ـرِ يُشيرُ الهَوَى بِمُرْدٍ وَحُورِ
يا خَيالاً في الصُّبْحِ خَدَّرَ أجفا ني وَنُوراً في اللّيلِ كَانَ سَميري
قُلْ لهُمْ: أستريحُ في قَصرِيَ المَمْـ ـلُوكِ مِنْ بُؤسِ بَيْتِيَ المأجورِ

رَبحَ السّيْفُ فَانِيَاتِ القَضَايَا وَمَلَكْتُ العُلى بِبَعْضِ سُطُورِ
مَلَكٌ في دُجُنَّتي يَتَمَنَّى مَبْسِمُ الفَجْرِ لَوْ يَكونُ سَفيري
دَوْلَتِي بالخُلُودِ نِيطَتْ لأَنّي لَمْ أَشِدْهَا بِالْعَاجِ وَالبِرْفِيرِ

* *

قُلْ لهُمْ: نِمْتُ في الحَياةِ عَلى الشّوْكِ مِراراً ومَرَّةً في سَريري
إنَّ مَوتي عَلى الرّبَابِ رُقَادٌ يَنْتَهي بي إلى صَباحٍ مُنيرِ
يَرْقُدُ الشّاعِرُ الكَبيرُ مِراراً إنَّما السّرّ في الرّقادِ الأخيرِ

* *

قُلْ لهُمْ: تَحطِمونَ في الأَرْضِ كأسي وبِمَوتي تُقَدّسُونَ خُمُوري
عَقَّ زَهْري الوَرَى وَقَدْ يَتَمَنَّى قَطْرَةً لِلنُّفوسِ مِنْ إكْسيري
زَهَرُ المَجْدِ لا يُفَتَّحُ لِلشَّاعِرِ إلّا عَلى ضِفَافِ القُبُورِ

* *

نَمْ قَريراً فَسَوفَ يَأتي صَباحٌ يَمْهُدُ الرّوحَ لانْقلابٍ كَبيرِ
وَغُصونُ الخَريفِ لا بُدّ أَن تُمْسي غُصُونَ الرّبيعِ بَعْدَ شُهُورِ

عودة جبران

خَلَعْتَ عَنِ الرّوحِ ثَوْبَ المَدَرْ   فَخَفَّ العَذابُ وطَابَ السَّفَرْ
وَأَقْبَلْتَ ، فَالقَمَرُ المُسْتَهَامُ   — أخوكَ — يُناجيكَ خَلْفَ الشّجَرْ
وَهَذي بِلادُكَ — مَهْدُ الزّمانِ —   يَهُزُّ بِهَا الشّوقُ حَتّى الحَجَرْ
وَهَذا النّسيمُ كما كَانَ أمْسِ   وَهَذي الجِبَالُ ، وَهَذَا الحَوَرْ
وَهَذي الكُهُوفُ بِصُلْبِ الصّخورِ   جَلالُ القُرونِ عَلَيْهَا انْتَشَرْ
وَهَذي عَذَارَاكَ يا ابْنَ الرّبيعِ   تُنَاديكَ مِنْ شَرَفَاتِ القَمَرْ
وَصِنّينُ مَا زَالَ جارَ السّمَاءِ   وَمَا زَالَتِ الهَضَباتُ الأُخَرْ
وَإِنْ تَكُ تُبْصِرُ في سَفْحِهَا   سَواعِدَ دَقَّتْ وَخُلْقاً ضَمَرْ
فَرُوحُ بِلادِكَ لَمّا يَزَلْ   وَإِنْ راغَ مِنْهُ صِباغُ الطُّرَرْ
تَبَدَّلَ مِنْهُ الإِطارُ الهَزيلُ   وَهَلْ يَتَبَدَّلُ إِلّا الخَبَرْ؟

* *

حَكيمَ الزّمانِ وَقِيثَارَهُ   ومَهْدَ الهَوَى وَالحَنانِ الأَبَرّ
هُنَا الحُورُ فَارْقُدْ قَريراً فَمَا   أَحَبَّ وَأَقدسَ هَذا المَقَرّ

هُنا الأَنبياءُ الأُلى قَبّلُوكَ فَنَبَّأْتَ بالأَدَبِ المُبتَكَرْ
هُنا طَهَّرَ الشِّعْرُ في شَفَتَيْكَ بِنَارِ الأُلوهَةِ يا ابنَ البَشَرْ
سَمِعْتُ عَرُوسَكَ مُنْذُ لَيالٍ تُنَبّئُ بالحَدَثِ المُنْتَظَرْ
وَفي يَدِهَا خَشَباتُ رَبابٍ تَشظَّى عَلَيْهِ الأَسَى فَانكَسَرْ
وَأَبْصَرْتُ وَجْهَكَ هذا الصَّباحَ يَطْفُو عَلَيهِ صَباحٌ أَغَرّ
فَيَغْمُرُهُ بِبَخُورِ الحَنانِ وَيَمْسَحُهُ بِزُيُوتِ الكِبَرْ
وَيَعْقُدُ في شَفَراتِ جُفُونِكَ ذَرَّاتِ نُورٍ كَرُؤْيا ظَهَرْ
كَأَنَّ عَرائِسَكَ الخَالِداتِ وَقَد كُسِيَتْ مِنْ رُؤاكَ الحِبَرْ
أَتَتْكَ تُوَدِّعُ هَذا الجَمالَ فَذابَتْ عَلى وَجْهِكَ المُحْتَضَرْ

* *

عَرُوسُكَ عَذْراءُ مِنْ عَبْقَرٍ أَتَتْكَ مُصَبَّغَةً بِالخَفَرْ
تُذيبُ عَلَيْكَ رُؤى الأَنْبياءِ مُغَرَّفَةً بِرُمُوزِ السُّوَرْ
مِنَ السِّحْرِ في مُقْلَتَيْهَا رَشَاشٌ وَلِلحُبِّ في شَفَتَيْهَا ثَمَرْ
فَدَغْدَغْتَهَا في خُدُورِ الرَّبيعِ وَعَانَقْتَهَا في خُدودِ الزَّهَرْ
غَزَلْتَ لَهَا حُوّةً في الجُفُونِ تُخَدِّرُها عِفّةٌ في النَّظَرْ
وَغَمَّسْتَ رِيشَةَ وَحْيِكَ في شَفَتَيْهَا وَلَوَّنْتَ تِلْكَ الصُّوَرْ
مَشَاهِدُ أَدْمَيْتَ قَلْبَكَ فِيهَا ومَا زِلت تُدميهِ حتّى انفَجَرْ
تَبَارَكَ قَلْبٌ تُفيضُ رُسُومُكَ مِنهُ عَلى كُلِّ لَوحٍ أَثَرْ
وَجِئْتَ الوَرَى بِأَناشيدِ حُبٍّ نَقِيٍّ كَوَجْهِكَ أَوْ كَالسَّحَرْ
أَناشيدَ مَا صَعِدَتْ قبلَ عَهْدِكَ مِنْ حَلْقِ إنْسٍ وَلا مِنْ وَتَرْ
أَناشِيدَ كَانَتْ عَلى شَفَتَيْكَ رِضاعَ الهَوَى مُنذُ كانَ الصِّغَرْ
حَلَمْتَ بِأَنْغامِهَا في الصِّبَى وَعَلَّمْتَ أَوْضَاعَهَا في الكِبَرْ

رشيد نخلة

عَذيرُكَ مِنْ مُستَلْهِمينَ تَصَدّرُوا مَحَطُّ القوافي والرّواءُ المُعَطَّرُ
وَلُبنانُ فَجرُ اللهِ، أصْدَقُ ما بِهِ وأَثْبَتُ مَا فيهِ الجَمالُ المُبَكِّرُ
وَمِنْ عَيْنِهِ نُورٌ وَمِن قَلبِهِ هوىً فَرَبُّكَ في لُبنانَ يَهوَى وَيَنْظُرُ
وَلبنانُ مِنْ عَدْنٍ جَبينٌ ومُهْجَةٌ جَرَى كَوْثَرٌ فيهِ وَأَزْهَرَ عَبْقَرُ
وَأعْذَبُ مَنْ غَنَّى بِلُبنانَ بُلْبُلٌ عَلى شَفَتَيْهِ قَامَ للحُبِّ مِنْبَرُ
يُنَثَّرُ من حُلقُومِهِ ذَهَبُ الرّبَى وَلبنانُ أغْنى الأَرْضِ نُوراً وأَطْهَرُ
وأَكْرَمُ مَن غَنَّى بِلُبنانَ شَاعِرٌ عَرائِسُهُ دُونَ القَواميسِ حُضَّرُ
يَضِنُّ، على جَرْعى الكَرامَةِ، عِزّةً وَيَمْرَحُ في مَرْعَى الجَمالِ يُبَذِّرُ

* *

رَآني حَواريُّ القَريضِ فَقَالَ لي: أتاني هُدىً مِنْهُ فَقُمْتُ أُبَشِّرُ
أُعَلِّمُ عَشواءَ الهَوَى كَيْفَ تَهتَدي وَمَن مُسَّ في أعْراقِهِ كَيْفَ يَشعُرُ
وَقَالَ لِيَ الأجْدادُ مِن مَسْقَطِ العُلى كَبِرْنا بِهِ، والفَضْلُ بالفَضْلِ يَكبُرُ

وأولادُنَـا مُسْـتَودَعٌ لِـبُـذُورِنَـا نُكَرَّمُ أَو نُخزَى بِهِمْ حِينَ نَبْذُرُ
وَقالَتْ ليَ الفُصحى غَبَطْتُ لِسَانَهُ فَمِنْ «لَغْـوةٍ» للشِّعْرِ هُذِّبَ عُنصُرُ
وإِنْ ضَاقَ هذا الشِّعْرُ وَهْوَ مُحَرَّرٌ فَما ضَرَّهُ، إنَّ الكَرِيمَ مُحَرَّرُ
نَما في مَجاري الشَّمْسِ عَذْبُ بَيَانِهِ فَمَنْطِقُهُ الفَوْرِيُّ كَالشَّمْسِ نَيِّرُ
وَمَرَّ بِهِ لُبنانُ أخْضَرَ كَالهَوَى فَإِلْهامُهُ كَالحُبِّ رَيّانُ أخْضَرُ
أَمِنْ سَاذِجِ الأَرْيافِ أقبَلَ وَادِعٌ وَعَنْ بُلَغاءِ العَصْرِ قَامَ يُكَفِّرُ؟

* *

وَقَالَ ليَ «البَارُوكُ»: مَرّ بِشَعْرِهِ عَبيري، فَمِسْكٌ ما نَشَقْتُ وعَنبَرُ
زُلاليَ مَعْقُودٌ بِسُكّرِ لَفْظِهِ وَطِيبِـيَ مَعْجونٌ عَلَيْهِ مُخَمَّرُ
أَرانيَ فيهِ، فَالنَّسيمُ نَقِيَّةٌ مَعَابِرُهُ، وَالبُطمُ نَدْيانُ مُزْهِرُ
و«لِلشُّوفِ» أرْواحٌ تَرُفُّ كَرِيمَةً على وَحْيِهِ، وَالوَحْيُ لِلرّوحِ مَعبَرُ
وَفي كُلِّ مَرْعىً ضَمَّهُ «الشُّوفُ» وائِلٌ وفي كُلِّ كُوخٍ ضَمَّهُ الشّوفُ جَعْفَرُ
وَفي كلِّ مَفْتولٍ إبَاءٌ مُخَنْدَقٌ وَفي كُلِّ مَكْحولٍ عَفَافٌ مُسَوَّرُ
وَقَالَ أبو سُعْدى: حَيِيتُ بِشِعْرِهِ كَأَنّيَ فيهِ ما أزالُ أُزَمجِرُ
وَأَعْجَبُ منْ لُبنانَ يَطْرى جَبينُهُ وَما كانَ إلّا الحَقُّ فِينَا يُؤَمَّرُ
وَنَحنُ مَوالِيدُ الجَمالِ وَجُنْدُهُ فَمَا عِنْدَنا إلّا الجَمالُ مُسَيْطِرُ
وَإِنْ عَرِيَتْ مِنْ مَرْمَرِ الأَمْسِ دارَتي فَفي الخُلُقِ المَوْروثِ عاجٌ ومَرْمَرُ

* *

تَعِبْتَ وَلَمْ تَقْنَطْ وَمِثْلُكَ يُرتَجَى وَشِعْرُكَ في الدُّنْيا الحَمامُ المُطَيَّرُ
فَمِنْ جَبَلٍ وَعْرٍ إلى صَخْرِ شاطِئٍ وَمَنْ حَمَلَ الآمالَ لا يَتَكَسَّرُ

الثورة العظمى

هَذِي الرّوائعُ مِنْ ذَاكَ اللّظَى خُلُقُ ، ما أَضْعفَ السّيْفَ حينَ الخُلقُ يُمتَشَقُ
مَا في الحَديدِ وَلا في النّارِ مُنتَصِرٌ كِلاهُما في لَهِيبِ الحَقِّ يَحترِقُ
اللهُ أكبَرُ كَمْ في الفِكْرِ مِنْ شُعَلٍ حَذارِ في ظُلْمِهِ أَنْ يبرُقَ الحَدَقُ
إذا الضَّميرُ وَنَى في رَدْعِ مُنكَرَةٍ فَاْصْبِرْ لَهَا فَهُناكَ الحِبرُ والوَرَقُ
لَوْ يُستَشارُ حَكيمٌ لَمْ يَكُنْ زَغَلٌ وَلَمْ يَكُنْ ظَالِمٌ لَوْ يُسبَرُ العُمُقُ

* *

مَعابِرَ الفِكْرَةِ الحَمْراءِ كَيْفَ نَمَا عَلى ثَراكِ شَباباً ذَلكَ العِرقُ
سَبْعٌ وعِشرُونَ لَمْ يُفْجَعْ بِهَا أَدَبٌ وَلَمْ يُخَيِّمْ على فِتْيانِهَا نَزَقُ
مَشى الشّبابُ بِهَا طَوْعَ الضّميرِ فَمَا في السّلمِ بَاغٍ وَلا في الحربِ مُرْتَزِقُ
هذا الشبابُ رِضاعُ الحَقّ في دَمِهِ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مَنْ في عِرْقِهِ رَنَقُ
لَمْ تَبْرَحِ الثّورةُ العُظْمى تُراوِدُهُ ثَديُها الحُمْرُ في عَينَيهِ تَنْدَلِقُ
مَضَى إلى المَجْدِ لَمْ يُشْهَدْ لَهُ مَثَلٌ وَلَمْ تُشَقَّ لإِنْسٍ مِثْلَهُ طُرُقُ

في كُلِّ صَرْخَةِ عَذْراءٍ جَرَى أَمَلٌ   وَكُلِّ وَثْبَةِ جُنديٍّ مَشَتْ فِرَقُ
بُطُولَةٌ حَارَتِ الدّنْيا بِرَوْعَتِهَا   أَسكْرَةٌ هِيَ في النيرانِ أَمْ شَبَقُ
هُمُ الصّعاليكُ ، أقْصى المُستَحيلِ لهُمْ   فَلَوْ أقامَ بِأَحْلاقِ الرّدَى مَرَقُوا
في كُلِّ جَبْهَةِ صُعْلُوكٍ بَدا مَلِكٌ   وَكُلِّ أُمْنِيَّةٍ مِنْهُ بَدا شَفَقُ

* *

لينينُ ، أحْلامُكَ الغرّاءُ قَدْ صَدَقَتْ   فَٱنْفُضْ تُرابَكَ ، يَكْفِي ذلكَ الغَرَقُ
لمْ يَبقَ مِنْ شِرْعَةِ الدّنيا سِوَى رَمَقٍ   وَٱلْمُسْتَرِدُّونَ بَاقٍ مِنْهُمُ رَمَقُ
بُورِكْتِ يا نَهْضَةً لِلشَّعْبِ ثَائِرَةً   هَذي الرّوائعُ مِنْ إيمانِهَا عَبَقُ
إنَّ البَقاءَ عَلى الإيمانِ مُرْتَكِزٌ ،   ألأقوياءُ مَضَوْا والمُؤْمِنونَ بَقُوا

عودة الطيّار

إلى روح فوزي المعلوف

بَلَدٌ في مَجَاهِلِ الأَبْعَادِ
مَاتَ فِيهِ فَتَى الزَّمَنْ
فَامْتَطي الرِّيحَ يا طُيورَ بِلادي
وَاحْمِلِيهِ إلى الوَطَنْ

* *

عَشِقَ المَجْدَ مُنذُ سُحرَةِ عُمْرِهْ فَغَزَا سِرَّهُ بِأَسْرارِ شِعْرِهْ
شَاعِرٌ يَسْحَرُ الدُّمَى بِأَغانِيـ ـهِ فَتَجْري فِيهَا الحَيَاةُ بِسِحْرِهْ
لَوْ أصَاخَ المَاضي البَعيدُ إِلَيْهِ لَتَمَنَّى لَوْ كانَ أُذْناً لِعَصْرِهْ
وَلَوانَّ الزُّهُورَ شَمَّتْ شَذاهُ لَتَمَنَّتْ لَوْ خَبَّأَتْ بَعْضَ عِطْرِهْ
وَلَو انَّ الخَيالَ جَاراهُ في الرِّيـ ـحِ لَضَلَّ الخَيالُ عَنْ مُستَقَرِّهْ
وَلَوَ انَّ النّسورَ خُبِّرْنَ عَنْهُ لَتَمَنّيْنَ لَوْ دَرَجْنَ بِوَكْرِهْ

طَارَ في عَالَمِ النّجُومِ يُدِبُّ الـ ـروحَ في عَالَمِ النّجُومِ بِأَسرِهِ
يـا لَـهُ في العُلى جَناحاً كَأَنّ الطّيْرَ غَارَتْ مِنْهُ فَهمَّتْ بِكَسْرِهْ

اهْجُرِ الأرضَ وَٱبنِ جُدرانَ عُشّكْ
في الـــخُـلـودِ — عَلى ذُرَاكْ
طِرْ وَدَعْني أحلّ أخْشابَ نَعْشِكْ
بِـــنَشـيـــدي — لِـكَـيْ أَراكْ

* *

لَيْسَ للشّاعِرِ المُسجَّى عَلى الأحْـ ـلامِ نَعْشٌ مِنَ الجُذُوعِ حِجَابَهْ
إنَّ نَعْشاً تَغَلْغَلَ الخُلْدُ فيهِ عَالَمٌ ضَاقَ بِالشُّموسِ رِحَابُهْ
ألمساميـرُ فيهِ مِنْ مَنْجَمِ النّو رِ وَمِـنْ جَـنَّةِ الرّؤى أَخْشابُهْ
عَـالَـمٌ أُفْـقُـهُ الـخَيـالُ الإلَـهِـ ـيّ وَنُـورُ الـمُـخيّلاتِ سَحَابُهْ
الشّـعُـورُ الـنَقِـيُّ كَـوْثَـرُهُ المُنْـ ـسابُ وَالـنّـدُّ وَالـبَـخُـورُ تُـرابُهْ
عَـالَـمٌ قُـوتُـهُ ثِـمَارٌ مِنَ الحُـ ـبِّ وخَمْـرٌ مِنَ السّلامِ شَرَابُهْ
نَسَماتُ الـغُـفـرانِ هَبّتْ عَلَـيْهِ فَـتَلاشَتْ أَتـعـابُـهُ وَعَـذابُـهْ
عَـالَـمُ الخُلْدِ لَيْسَ يُفْتَحُ إلّا لِـمُلُوكِ الـخَيالِ والحُبِّ بَابُهْ

* *

يا عَرُوسَ الخَيالِ قُودي خَيالي
وَٱرْفَـعِـيــهِ — عَنِ الـوُجُـودْ .

وَدَعيني أَسْمَعْ نَشيدَ الجَمَالِ
إنَّ فِيهِ — مَعْنى الخُلُودْ

* *

فُتِحَ النّعْشُ لي فأَبْصَرْتُ قَصْرَ الـ ـروحِ قَامَتْ على قُلوبٍ عِمَادُهْ
وَرَأَيتُ الفَجْرَ المُذَهَّبَ بالنّو رِ أَحَاطَتْ بِعَرْشِهِ أَجْنَادُهْ
وَتَراءى ليَ الأثيرُ بِلَوْنِ الـ ـعاجِ يَقْتاتُ بالشُّعورِ جَمَادُهْ
ونُجُومٌ تَمُوجُ فِيهَا حياةٌ كُلّ نَجْمٍ مِنْها يَسيلُ فُؤادُهْ
وَالأَعاصيرُ والصَّواعِقُ في زِيٍّ حَمَامٍ، وَاللّيلُ ذابَ سَوادُهْ
وَرَأَيْتُ الخَيالَ في ثَوْبِ مَلْكٍ تَتَنَزّى مِنَ الرّؤى قُوّادُهْ
وَرَأيتُ الفِكْرَ الصّريحَ إِلٰهاً لا يُرى غُلّهُ وَلا جَلّادُهْ
كانَ عِيدٌ في ذَلِكَ النّعْشِ لَوْ أَصْغى إِلَيْهِ الوَرَى لَزَالَ حِدَادُهْ

* *

وَإِذا بي أَرَى مَلاكاً عَلَيْهِ
تَتَشَرَّدْ — رُؤى دَمِهْ
فَاضَ ذَوْبُ الشُّعورِ مِنْ رِئَتَيْهِ
وتَجَمَّدْ — عَلى فَمِهْ

* *

في يَدَيْهِ رَبَابَةٌ، وَعَلى جَفْـ ـنَيْهِ كُحْلٌ تَحَارُ في أَلْوانِهْ
إِنَّ كُحْلاً تَراهُ في مُقْلَةِ الشّا عِرِ تَحْنيطُ حُبِّهِ وَحَنَانِهْ

هُوَ «فَوْزي» أتى إلى الخُلْدِ لا يَحْـ ـمِلُ إلّا العَفافَ مِنْ لُبنانِهْ
وَسِوَى آلَةِ الشّقَا في يَدَيْهِ وَجَفافَ الدّمُوعِ في أَجْفَانِهْ
فَأَحَاطَتْ بِهِ مِنَ النّورِ هالا تٌ صِباحٌ كَأَنَّها مِنْ بَيَانِهْ
وَأَتَتْهُ النُّجُومُ في زَوْرَقِ الحُـ ـبِّ لِتُصْغي سَكرَى إلى أَلْحانِهْ
وَإِذَا أَبّلُونُ يَأخُذُ تاجاً لُؤلُؤيَّ الإِطَارِ مِنْ تِيجَانِهْ
وَبِذَوْبِ اللُّبانِ يَمْسَحُ صُدْغَيْـهِ وَعِطْرُ الخُلُودِ مِنْ أَدْهَانِهْ

* *

وتَمَشّى في عَالَمِ الشّعَراءِ
صَوْتُ مَأتَمْ — هَالَ السّماءْ
حَمَلَتْهُ إِلَيْهِ رِيحُ الفَنَاءِ
أيّ سُلّمْ — يَرْقَى الفَنَاءْ!

* *

قَالَ لِلزُهْرِ أبّلُونُ: أَطِلّي وَٱسْمَعي أيّ ضَجّةٍ مَشْؤومَهْ!
أيّ صَوْتٍ أَتَى يَذُرُّ عَلَينا في حِمَانَا كِبْرِيتَهُ وَسُمُومَهْ؟!
مَا سَمِعْنا مِنْ قَبْلُ نَدْباً كَهَذا وَرِيَاحاً كَهَذِهِ مَحْمومَهْ!
فَأَطَلَّتْ كَواكِبُ الخُلْدِ حيرَى ثُمَّ قَالَتْ بِمُهْجَةٍ مَكلُومَهْ:
«... يَزْعمُونَ السّماءَ قَدْ ظَلَمَتهُمْ فَغَزَتْ شَعبَهُمْ وأَرْدَتْ نَديمَهْ!»
ثُمَّ سَادَتْ سَكِينَةٌ عَقِبَتْهَا خَلَجَاتٌ مِنَ الحُصُونِ العَظيمَهْ
وَرأَيتُ الخُلودَ يُصْغي وَشَاهَدْ تُ عَذاراهُ خُشّعاً وَنُجُومَهْ

تَتَلَقَّى طَوالَ أَرْوِقَةِ الأولَمبِ أَلْفاظَ أَبّلُونَ الحَكِيمَهْ

* *

ودَوَى صَوْتُ أَبّلُون يَقُولُ:
لِيُمَجَّدْ — فَوْزِي الحَبيبْ
أغْلِقُوا القَصْرَ فَالخُلُودُ الجَميلُ
مَا تَعَوَّدَ — هَذا النّعيبْ

* *

أيّ شَأْنٍ للنّاسِ بالشّاعِرِ المُلْـ ـهَمِ لا شأنَ للتّرابِ بِنَفْسِهْ
«هُوَ مِنْ عالَمِ الخُلودِ» في عَيْـ ـنَيْهِ نُورٌ مِنَ «الخُلودِ وَقُدْسِهْ»
أَطْلَقَتْهُ الأرضُ التي قَيَّدَتْهُ فَأنْثَنَى عَائِداً لِمَسْقَطِ رَأْسِهْ
نَحْنُ أوْلى بِهِ فَهُمْ ظَلَمُوهُ يَوْمَ دَسّوا سُمّاً بِخَمْرَةِ كَأْسِهْ
يَوْمَ رَاحُوا يُكَدّرُونَ نَدَى الوَحْـ ـيِ عَلَيهِ وَيشتُمونَ بِبُؤْسِهْ
أزْعَجُوهُ عَهْدَ الشّقاءِ، وَلَمّا زُفَّ لِلْخُلْدِ أَزْعَجُوهُ بِعُرْسِهْ
وَإِذَا بالخُلُودِ يُغْلَقُ في وَجْـ ـهِي فَأَهْوِي إلى الفَناءِ وَيَأْسِهْ
وبِقَلْبي مِمّا سَمِعْتُ نَشيدٌ لَمْ أَزَلْ مُصْغياً لِرِقَّةِ هَمْسِهْ!

الفهرس



القيثارة

المريض الصامت

أفاعي الفردوس

الألحان

نداء القلب

إلى الأبد

غلواء

من صعيد الآلهة

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون: ٨٩٤٨٣٧